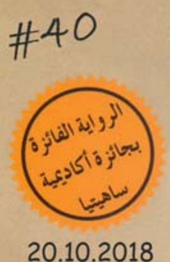
إم. تي. فاسوديفان ناير



كالام

رواية

ترجمة

سحر توفيق

إم. تي. فاسوديفان ناير

كالام

ترجمة: سحر توفيق

مراجعة: سعيد الغانمي

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PL4718.9V32 K3112 2016
Vasudevan Nair, M. T, 1934-
[KAALAM]
كالام : رواية / تأليف إم. تي. فاسوديفان ناير ؛ ترجمة سحر توفيق ؛ مراجعة سعيد الغانمي. - ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.
397 ص. ؛ 14 × 21 سم.
ترجمة كتاب : KAALAM
تدمك : 978-9948-17-551-3
1- القصص الهندية- القرن 20.
أ- توفيق، سحر. ب- غانمي، سعيد. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
KAALAM by M. T. Vasudevan Nair



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

کالام

وحين صحوتُ، كان النخاع

يجري خارجاً من عظامي

بأنك كنت الصديق الذي حلمتُ به،

ولكن ليس الحلم الذي صحوتُ عليه،

ومن ثم وضعت ذلك عني من أجل الشك للشك.

إزرا باوند

مقدمة الطبعة الإنجليزية

في 1934، في قرية كودالور بمنطقة بالاكاد، مقاطعة كيرالا، ولد إم. تي. فاسوديفان ناير (الذي عُرف بين أصدقائه وقرائه باسم إم. تي.) وترعرع وسط بيئة من حقول الأرز الخصبة، والغنية بنخيل جوز الهند والأريكا التي تتمايل في الريح المحملة بعبير المانجو والجاك فروت، على ضفاف النهر الذي أحبه، «نهر بهاراتا»، والذي يُعتقد أن عددا من أفضل كُتاب وشعراء كيرالا قد استمدوا غذاءهم الروحي على ضفافه. وكانت قرية كودالور توفر الإطار والخلفية لكثير من أعماله. ولم تتوقف أبداً فصولها المتغيرة، وإيقاعات الدورة الزراعية فيها، وأحلام وآمال أهلها، عن منحه مادة ثرية ينهل منها.

كان إم. تي أصغر أربعة أولاد، وفي عمر مبكر، كان يتوق لأن يكون كاتباً. وهو يذكر على نحو متكرر في مقالات ومقابلات عديدة أن طفولته شهدت حدثاً كان له تأثير عميق في نفسه. فعندما كان لا يزال صبياً في المدرسة، أُرسل في أحد الأيام إلى قرية مجاورة لإحضار نسخة مكتوبة يدوياً من قصيدة «رامانان» المشهورة للشاعر تشانجامبوزا. وكانت إعارة على أساس إعادتها في اليوم التالي. أحضرها الفتى إلى البيت، وراقب بدهشة بالغة أخوته وزوجة أخيه يجلسون طوال الليل لنقلها كتابة. وأصابه العجب، «كل هذا العذاب والعمل الشاق لنقل قصيدة؟!».

بدأ يقرأ الشعر باللغة المالايالامية بنفسه - قرأ أعمال الثلاثي العظيم فالاتول، وكوماراناسان، وأوللور؛ كما قرأ بالاماني أمّا، وج. سانكرا كوروب، وتشانجامبوزا، وإيداسري، وفيلوبيلي. ولقد أسره أن يكتشف أن الكلمات التي يستخدمونها مألوفة لديه، أما الجديد والساحر فهو ترتيب العبارات. وأفضى به افتتانه بالقصائد إلى حفظها عن ظهر قلب، والترنم بها وهو يتجول على التلال بصوت مرتفع.

واستمر يلتهم كل القصص القصيرة التي استطاع أن يضع يده عليها، قصص من تأليف بشير، وتاكازي، ولاليتامبيكا، وأنترجانم، وس. ك. بوتيكات، وكارور نيلاكانتا بيلاي، وكيشافاديف. وأصبح هؤلاء الكتاب هم أبطاله - فكان يقص صورهم من المجلات ويلصقها على جدران حجرته. وسرعان ما تنامت رغبته في اللحاق بصفوفهم.

بدأ إم. تي يكتب في الرابعة عشرة من عمره. أرسل القصص التي يكتبها إلى كل المجلات التي استطاع أن يجد عناوينها، كانت مشكلته الوحيدة إلى حد ما أن يتمكن من الحصول على ثلاثة أرباع «الآنّة» [عملة هندية قديمة] التي يحتاجها لإرسال قصصه بالبريد. وفي 1953، كسب جائزة في مسابقة للقصة القصيرة نظمتها مجلة ماتروبهومي الأسبوعية، عن قصته «حيوانات السيرك» (Valarthumrigangal). ومنذ تلك اللحظة، استمر في تقدم متواصل.

يقول إم. تي. دائماً إن القصة القصيرة هي الشكل الأدبي المفضل لديه. وقد كتب ثماني عشرة مجموعة قصص قصيرة. «في القصة القصيرة يمكنك أن تصل إلى الكمال، تقريباً. فهي، من الناحية البنائية،

أقرب إلى القصيدة. والكاتب يظل يراجعها، وينقحها، ويحذف كل الأجزاء غير المرغوبة منها، حتى يصل في النهاية إلى الشكل الملائم بالضبط»[1]. ويستمر في تجربة هذا الشكل، وبعض أفضل قصصه القصيرة: على سبيل المثال «شرلوك» و«نقوش على الحجر»، ظهرت في تلك الفترة. وإذا كان هناك بعض الميل الزائد في أعماله المبكرة إلى الاتجاه العاطفي، فإن مؤلفاته المتأخرة مصقولة بدرجة كبيرة، ومؤلفة بحرفية بالغة، وتتسم بانتظام وانضباط كامل. ويشير الشاعر أيابا بانيكر إلى أن كُتَّابا قليلين للغاية استطاعوا في حياتهم أن ينجزوا مثل هذا التغير في أسلوبهم وأن يصقلوا حرفيتهم بهذه الدرجة وبهذه القوة في غضون فترة وجيزة[2].

مع ذلك، لم يقتصر إم. تي على القصص القصيرة. فقد كتب أيضاً ثماني روايات، حظيت كلها بانتشار كبير وتقدير في كيرالا، ومسرحية، وعدداً من السيناريوهات السينمائية الناجحة. وكان واحداً من أوائل الكتاب باللغة المالايالامية يستثمر الكتابة القصصية ليصل بها إلى بُعد يتجاوز مجرد وصف الشخصية والحدث، ويعطي أهمية أعظم للتفكير والمشاعر، ويتأمل العقل البشري ويحلل أسرار رغباته وأشواقه. وأبطاله، في الروايات والقصص القصيرة على السواء، شخصيات خارجية، معزولة عن الأسرة والمجتمع، ضحايا الظروف، تستبطن مشاعرها وغالباً ما يعتريها شيء من الاشمئزاز الذاتي.

وهذه الرواية، ***كالام*** (1969)، هي روايته السادسة. وهي تصف

(1) «Vanajam Ravindran in Conversation with M.T. Vasudevan Nair,» in *Wordsmiths*, ed. Meenakshi Sarma, Katha (1996), 205.

(2) M. M. Basheer ed. *Kathayum Ponilum*, Current Books (1996), 146.

حياة البطل سيتو منذ الخامسة عشرة حتى الثلاثين من العمر، والحركة التي لا هوادة فيها من شاب طموح تملأ نفسه الأحلام، وتفعمه بالثقة في قدرته على أن يصل ويمتلك العالم كله، إلى نضج يسير فيه النجاح المادي والاجتماعي يدا بيد مع إحساس غامر بالتحرر من الوهم، وشعور مأساوي بالفشل. وبرغم أن الرواية ليست سيرة ذاتية بشكل مباشر، إلا أن إم. تي. يعترف: «سيتو، في رواية كالام، يشبهني كثيراً. وأنا أشارك سيتو في تجاربه العاطفية، والأحوال التي مرت به»(1). وكان كثير من شخصيات الرواية جزءاً من حياة قريته أيضاً.

تصور هذه الرواية، المكتوبة بنثر شعري بديع، الأحوال والفصول المتغيرة لمشهد طفولة المؤلف. فالنهر، الشاهد الصامت على كل أزمة في حياة سيتو، يعكس رحلته من فترة المراهقة إلى نضج خلا من الأمل ومن الحب. وفي نهاية الرواية، يرقد النهر جافاً ومشققاً كقلبه نفسه. هذا النهر يحمل آثار تجربته، فتحول من سطح يموج ويترقرق بالمياه، يحمل المركب العابر الذي حمل سيتو إلى حياته الجديدة طالباً في الكلية، إلى مجرد مجرى من الرمل الجاف، «يحلم بالفيضانات»، ولا بد أن يعبره لكي يعود إلى الوجود التافه المجرد من المعنى الذي نحته لنفسه في المدينة، باعتباره «السيد سيتو، رب العمل». وتصوير المؤلف شديد الدقة والحساسية لشخصية سيتو، وقدرته على تحليل نفسه وقدرته على اكتشاف ما يحدث له في كل لحظة، والتصوير المحدد لأبعاد الشخصيات الأخرى والصور المثيرة للخيال في المناظر الطبيعية

---

(1) «Vanajam Ravindran in Conversation with M.T. Vasudevan Nair,» in *Wordsmiths*, ed. Meenakshi Sarma, Katha (1996), 207.

في كودالور، كل ذلك يعطي الرواية كثافتها العاطفية ونسيجها الثري للغاية.

كان نظام العائلة في التَارَاواد المتفسخ، القائم على النظام الأمومي الذي تعيش به عائلات الناير في كيرالا، هذا النظام بكل صراعاته ومشكلاته، وعداواته التافهة ومشاعر الغيرة النارية فيه، كل هذا كان جزءاً من البيئة التي تربى وسطها إم. تي.، وقد منحه مصدراً لا ينقطع من المواد الملهمة. كان نظام «سامباندهام» في الزواج، الذي كانت تتبعه عائلات الناير، والذي فيه يدخل الرجال في علاقات تعاقدية مع زوجاتهم ويزورونهن في بيوتهن، كان لا يزال ساريا عندما كان إم. تي. طفلاً. بالنسبة للشخص الأجنبي، ربما لا يبدو واضحاً لأول وهلة أن الرجال في بيت سيتو هم أزواج زائرون لا يشكلون روابط قوية أو دائمة بزوجاتهم وأطفالهم. على سبيل المثال، كان والده مرتبطاً بأخواته وأطفالهن ارتباطاً قوياً - وهو ارتباط تكرهه أم سيتو لذاته، وأيضاً لأنها تعتقد أنه يؤثر عليه ويجعله يعطي أطفال أخواته الجزء الأكبر مما يكسبه من دخل. وعلاقة سيتو بأبيه علاقة ملتبسة وغير مشبعة، حيث يغمره شعور بأن أباه لا يحمل له أي تقدير، وأنه ممتنع عن مساعدته. وأما بيت أبيه، في بوشبوت، حيث تعيش عماته، وحيث يمكنه أن يذهب فقط كضيف مكرم، هذا البيت يرمز للسعادة والأمان اللذين لا يستطيع الحصول عليهما في بيته، وهو مولع بهذا البيت ويقارنه ببيته المتهالك الحقير بأرضيته المشققة، وأعمدته الخشبية التي نخرها السوس، وافتقاده التام لأي من وسائل الراحة.

خالة سيتو، تشيرياممّا (الخالة الصغرى)، كان لديها زوجان زائران.

الأول أنهى علاقته بها عندما توقف عن زيارتها بانتظام، وانتقل الثاني إلى بيتها بعد أن استلم نصيبه من ممتلكات عائلته التاراواد، ومن الواضح أنه كان يُعتبر شخصاً طفيلياً، عالة على العائلة. أما الخال مادهافا، خال سيتو، فهو ينتقل مؤقتا إلى بيت فاداكيتو عندما يتزوج ديفو، فقط ليعود إلى الحياة مع أختيه عندما تسوء الأمور هناك. لكن أخا سيتو الأكبر، باراميسوارا، يأتي بزوجته إلى البيت، ويعود إلى الانتقال معها عندما تحدث مشاجرات بين أمه وزوجته. وهم أمثلة على الجيل الجديد، جيل سيتو، الذي يتحلل في النهاية من نظام العائلة المترابطة.

والبطل الحقيقي للرواية هو «كالام» نفسه، ذلك الدفق الذي لا يتوقف للزمن، الذي يشكل حياة سيتو، ويبعده عن كل شخص وكل شيء يحبه، ويحمله من خطأ إلى خطأ. وكلمة «كالام» تحمل داخلها وعياً عميقاً بالحاضر، والماضي، والمستقبل، وإدراكاً كامناً بمرور الزمن بلا هوادة. وقد تُرِك عنوان الرواية كما هو، لأن كلمة «time»، التي تعني «الزمن»، أقرب معادل لكلمة «كالام»، لا توحي بما تحمله من إيحاءات مركبة ولا بمداها اللانهائي.

تتكون الرواية من واحد وأربعين فصلا مقسمة في سبعة أقسام. الأقسام الخمسة الأولى تتناول حياة سيتو كطالب في الكلية، وآماله وتطلعاته. وفي القسم السادس يبحث عن عمل، ويجد عملًا بصعوبة بالغة، ثم لا يلبث أن يفقده. في القسم السابع والأخير تتفتح مراحل تحول سيتو إلى «السيد سيتو، رب العمل». وفيما عدا القسمين الثالث والرابع، حيث يتغير منظور الرواية من جانب سيتو إلى خاله مادهافا، تحوم بقية الرواية حول سيتو بثبات. ومع الحركة إلى الأمام وإلى الخلف

في المدى الزمني الممنوح لكل قسم، أحياناً تركز الرواية على فترات زمنية قصيرة تتميز ببعض الكثافة في المشاعر، وأحياناً يقوم المؤلف بتكثيف فترات زمنية طويلة في فصل واحد. على سبيل المثال، في الجزء الأخير من الرواية، تمر أحداث تسع سنوات كومضة سريعة من خلال عقل سيتو عندما يعود إلى بيته بعد غياب طويل جداً.

في روايتيه الطويلتين السابقتين على هذه الرواية، ***نالوكيتو*** (Naaluketu, 1958)، ***وأسورافيتو*** (Asuravithu, 1960)، ينتقم أبطاله لأنفسهم من عائلاتهم ومن المجتمع عن المعاناة التي تحملوها، لكن سيتو بطل كالام، يفتقد التحقُّق في كل جانب من جوانب حياته – أحب ثلاث نساء، وخذلهن جميعاً، في كل علاقاته الشخصية بأعضاء عائلته، أو مع أصدقائه وزملائه، في عمله الذي يدفعه إلى نمط من التصرفات التي يزدريها هو نفسه. وهو على وعي مرير بكل فشل متعاقب، ولكنه عاجز دائماً عن انتشال نفسه من عواقبه التعيسة. وبرغم كل هذا، ربما بسبب ميله لتحليل نفسه بلا هوادة، يخرج في اللحظة الأخيرة كشخص يستطيع بشكل ما أن يحتفظ بأحلامه حية حتى وهو يعلم على وجه اليقين أنه لا يستطيع تحقيقها. ويبدو من الممكن في هذه الحالة أن يستمر الأمل في أن تتمكن القصيدة التي وقعت في أحبولة ضوء الشمس في الصباح، الذي يتلألأ فوق نهر أصبح مجراه مجرد رمال جافة، القصيدة التي تناضل لتجد الكلمات، ربما تتشكل برغم كل شيء، بينما يغادر سيتو البيت لآخر مرة.

أسماء علاقات القرابة

أتشان	أب
أمّا	أُم
أمّاما (ن)	خال
تشيرياتشان	العم الأصغر، أو زوج الخالة الصغرى
تشيرياما	الخالة الصغرى
إيداتي	أخت كبرى
إيتان	أخ أكبر
موتاسي	جدة
أوبو	أخت كبرى

القسم الأول

ليلاً.

الجنادب نائمة بين البراعم الجديدة من العشب على حافة حقل أغرقته مياه المطر، تستيقظ مُجفلة عند سماع خطوات الأقدام. أشعر بها تدغدغ سمانة ساقي وأنا أسير، وتخشخش بنعومة، تحاول بعث ذكرى لا يستطيع قلبي المثقل أن يحددها. متى سمعت هذا الصوت المألوف الفرح آخر مرة؟

عبق التراب المبلل، والظلام الرمادي. فجأة يخطر لي أن الظلام والليل لهما رائحة. الطرقات التي اختارها الرجال الذين جاؤوا لرش الحقول مليئة ببرك من المياه الآسنة التي لا تزال تعكس سماء ملبدة بالغيوم، برغم أن المطر قد توقف.

المشعل المتوهج أمامنا يضيء لنا الطريق.

أستطيع أن أسمع العجوز الشيرومان يلهث وهو يسير خلفي حاملاً صندوقي الصفيح وفرشتي. ويتزايد وضوح خرير النهر بينما نترك الحقول خلفنا ونصعد إلى طريق ريفي وعر.

نقف ونستمع إلى رقرقة النهر خلف العبّارة، وقد ربطت مرساته إلى وتد على الضفة. نهر من الظلام، بامتداد لا نهاية له من الضوء الضعيف فوقنا. هل أسمع عجلات قطار تدمدم فوق الجسر المرتعش من القضبان الحديدية على الضفة الأخرى؟

يبرز صاحب العبارة من كوخه، شبحاً يغالب النوم. يعرف مواعيد القطار عن ظهر قلب.

هل هذا قطار الرابعة والنصف؟ لا أجرؤ على السؤال. لم أعد ذلك الصبي الصغير الجاهل. فأنا في السادسة عشرة من عمري، وفي طريقي إلى الكلية في مدينة تبعد ثلاثة وخمسين ميلاً، حيث بنى السلطان قلعة ذات يوم. أنا الآن رجل شاب؛ كبرت أثناء مرور الليل.

(ليلة ما نالت كل تلك السنوات من توهجها في ذاكرتي، ليلة ظلت حية كمشهد، كرائحة دم أريق حديثاً).

حمل المراكبي مصباحاً ينبعث منه الدخان، وتغطيه طبقة من السِّناج، يعلقه فوق القارب ويبدأ في إخراج الماء بجاروف يدوي. أسمع هديل حمامة داخل قلبي، حمامة معبد منعزلة، حطت على قرميد السقف في الغسق.

النهر، العبّارة.

سبق لي أن عبرت النهر مراراً عديدة للذهاب إلى بيت طبيب العيون، وإلى المعبد، وحقول الخيار. وها هي العبارة بانتظاري، بعد كل تلك السنوات.

هل سيحمل الشيرومان صندوق الصفيح بثبات على مقعد المركب؟ لا أريده أن ينزلق ويقع عندما يتحرك القارب. ولكن، هل أجرؤ على أن أقول: «تشاتابا، أمسك الصندوق بحرص، لا تدعه يسقط».

أضع يديّ بثبات على الفراغ خلفي، وأحاول التوازن حتى لا يبتل

الموندو الذي أرتديه، الموندو[1] النظيف، المنشَّى، والمطوي والمثبت جيداً فوق ركبتي. بدأت الأكواخ على الشاطئ المهجور تأخذ شكلا في ضوء الصباح.

يتسرب الماء البارد إلى آثار خطواتي ونحن نسير على الرمل المبلل. أتمنى لو نستطيع أن نغذ السير. هل أسمع الجسر الحديدي يطقطق؟ تقع الجذوة من المشعل وتخبو على الرمل المبلل. وتلمع قضبان السكة الحديد ببريق فضي في الظلام الواهن.

يتضاءل شعوري بالسعادة أمام الخوف الذي يملؤني.

خالي يسرع الخطو إلى الأمام، يؤرجح يديه الكبيرتين، والموندو الذي له مطوي أيضاً ومثبت فوق ركبتيه، ويلف منشفة حول رأسه. يتلفت إلى الخلف وينادي.

«أسرع يا ولد».

صوته مرتفع بلا داع. يتحدثون عادة بصوت مرتفع، الكبار - أمي، خالتي الصغرى، خالي، والزائر النادر، باراميسوارا إيتان (أخي الأكبر) - ولهذا لا أتذكر أبداً وجوههم، فقط أصواتهم المرتفعة.

والآن بحرص، هناك شظايا حادة من الحجر منثورة على العوارض تحت قضبان السكة الحديد.

وفجأة، أنسى قطار الرابعة والنصف، أضواء الإشارة الحمراء، المدينة التي كنت أحاول جهدي أن أتخيلها بالأمس. أعرف أنه من الغباء أن أشعر بالحزن، لأنني لن أذهب بعيداً في الواقع. لا، هذا القلق

(1) الموندو: رداء من القطن يصنع غالباً على أنوال يدوية، يرتدى حول الوسط في منطقة كيرالا وتولوندو، وجزر المالديف. وعادة ينشى ويكوى قبل ارتدائه. [المترجمة]

في قلبي ليس حزناً. وأشعر بحرقة في عيني فقط لأنني... نعم، لأن العرق يجعل الزيت من شعري يسيل عليهما.

وتأتي إلى عقلي فجأة ذكرى الخشخشة الناعمة لعدد لانهائي من الجنادب تتحرك في الحقل. وتبدو أصواتها تلك بالضبط كأصوات أزرار في بلوزة زرقاء تنفتح فجأة بطقطقات خفيفة.

لماذا لم أتذكر من قبل؟ بينما أغذ السير على العوارض، أوجه لنفسي اتهاماً بكل عنفوان شاب في السادسة عشرة - لماذا، لماذا، لم أتذكر من قبل؟

1

غسل سيتو وجهه مرة أخرى، ورش الحفنة الأخيرة من الماء من الإناء النحاسي على وجهه ورقبته، وعاد إلى الشرفة الشرقية وجلس مسنداً ظهره إلى العمود.

في الخارج، كانت شمس العصر تلتهب، والحر لا يطاق. كانت نسمة من الريح تهب بين الحين والآخر من خلال نخيل الأريكا، محملة باللهب. فقط لو كانت الأرض قد كُنست ومُسحت بخرقة مبللة، لكان بوسعه أن يرقد عليها. ولكنها كانت قذرة، ومشققة، ومليئة بالغبار.

لم يكن الوقت قد حان بعد للذهاب إلى مكتب البريد. ربما تكون هناك رسالة من أبيه اليوم. وعد باراميسوارا إيتان بإرسال ثلاثين روبية في الشهر. فإذا أرسل أبوه الباقي، أمكنه الذهاب إلى الكلية. رفض إيتان أن يكتب ويطلب من الأب. فكتبت له الأم. وكان رد

الأب مليئاً بالشكوى: لقد كان مريضاً، لم يعد العمل في العزبة مربحاً كما كان فيما مضى. قرأ سيتو الرسالة لأمه، ثم راح يقرؤها مرة أخرى. لا، لم يذكر فيها شيء عنه، عن سيتو. كان قد وضع رسالة منه شخصياً مع رد الأم. وكان ذلك منذ تسعة أيام. تستغرق الرسائل من جبال أنايمالاي عادة يومين حتى تصل.

إذا راقبت من جانب التل، يمكن أن ترى قطار البريد يعبر الجسر. كان سيتو دائماً يتأكد من أن صندوق البريد الأحمر على القطار قبل أن يغادر للذهاب إلى مكتب البريد. وحتى عندما يفعل، كان دائماً يصل مبكراً عن الساعي المحلي ذي القدمين المصابتين بمسمار القدم، الذي يحضر البريد من كوتيبورام.

كان ينام حتى الرابعة. من الممتع أن يرقد المرء ورأسه على السور، حيث تنام أمه أثناء الصيف.

لم يكن قادراً على النظر إلى الخارج. بدا وكأن اللهب معلق فوق الحقول. والرمال خلفها بيضاء تشع سخونة، لم يجرؤ على النظر إليها لأكثر من دقيقة.

كانوا يأملون أن تمطر في عيد فيشو[1]، ولكنها لم تمطر حتى في مهرجان تالابولي في معبد سريرانكارا، الذي يأتي فيما بعد في العام. قالت الخالة الصغرى إنها لم تر أبداً مثل هذا الصيف الحار طوال حياتها. وكانت تقول ذلك كل عام، ودائماً كانت تتنبأ بأن الناس سيموتون من حرارة الشمس. وبرغم ذلك لم يمت أحد أبداً لهذا السبب.

(1) عيد رأس السنة في ولاية كيرالا، وفي المناطق المجاورة من ولاية كارناتاكا وتاميل نادو. وهو يصادف اليوم الأول من السنة المالايالامية، التي تبدأ في شهر ميدام، ويوافق هذا اليوم 14 إبريل من السنة الميلادية. [المترجمة]

«سيتو، هل رأيت بادمو؟»

تلك كانت تشيرياممّا، (الخالة الصغرى)، من الشرفة بالأعلى.

«لا».

«فتاة بائسة، ذات يوم ستقع في بركة أو في بئر. لابد أن يكون الأطفال مطيعين. انتظر حتى أضع يدي عليها».

يمكن الآن أن تبدأ الخالة الصغرى في وصف كل الأساليب التي ستستخدمها في معاقبة بادمو. قال:

«لابد أنها تلعب عند الجيران».

كانت تشيرياممّا تلطم بادمو لأتفه الأسباب، وتضربها بأي شيء في متناول يدها. كلما تشاجرت مع أمي، كانت عادة تفرّج عن غليلها في بادمو. ولا يعني ذلك أن الأم تلقي بالاً من أي نوع. كانت بادمو تظل تنشج حتى تفقد القدرة على التنفس، وحينئذ تطلب الأم من سيتو أن يأخذها بعيداً. «إذا ماتت فلن يكون هناك أحد لنقل جسدها سواي».

بعد ساعات، تعطي الخالة الصغرى حماماً زيتيا لبادمو، وتلطخ جبهتها بالفيبهوتي[1]. وتأخذها على حجرها، تربت عليها بحنو، وتبكي.

راحت تشيرياممّا تقطع الشرفة ذهابا وإيابا، وقد ظهر رداؤها التحتي البالي تحت منشفة صغيرة لا تكفي الغرض منها، ملفوفة حول وسطها. لم تكن ترتدي الروكا، البلوزة الهندية القصيرة، أبداً في الصيف، مفضلة ترك ثدييها بلا غطاء. ولم تكن لتدخل حتى لو كان

(1) فيبهوتي vibhuti: الرماد المقدس الناتج عن حرق الخشب المجفف في بعض الطقوس الهندوسية. يوضع على شكل ثلاثة خطوط أفقية عبر الجبهة وأجزاء أخرى من الجسم تقرباً إلى الرب شيفا. [المترجمة]

هناك زائرون. وكثيراً ما كان سيتو يفكر في نفسه غاضباً، تلك المرأة البائسة، لماذا تظل في الشرفة بنصف ثياب؟

حتى الخال مادهافا لم يكن ليجرؤ أن يقول شيئاً لها. فعلى أية حال، كان أصغر منها ومن أمي، ومن ثم ليس عليهما الاستماع إليه.

قالت الخالة الصغرى: «تركت مروحة هنا هذا الصباح. أين هي؟»

لم يجب سيتو. لم تكن تسأله مباشرة. كل ما كانت تحتاجه عندما بدأت الكلام هو وجود شخص في محيطها.

«لا أثر لأحد يساعدني. لكن هناك كثيرين لتعذيبي».

مسحت الخالة الصغرى شفتيها الباهتتين وبصقت في الفناء. كانت مستعدة للشجار. «كان عليّ أن أسأل مئة شخص قبل أن يأتي لي ابن تشاتابان أخيراً بورقة طلع لعمل المروحة. والآن كل واحد يريدها!»

ظل سيتو غاضباً في صمت. وضجت الأم تشكو، ليس لأحد على وجه الخصوص: «لا يتاح لي الحصول على قليل من الراحة حتى في فترة بعد الظهر».

هزت الخالة الصغرى آخر النشوق من زجاجة تضعها في وسطها، واستنشقته، ومسحت أنفها، وضحكت بازدراء لضوء الشمس.

«لا يمكن أن أفتح فمي، أليس كذلك؟ كل ما أقوله خطأ. كالياني هي المهجورة، ليس لها من يتحدث بالنيابة عنها. قل لي يا ولد، هل قلت أي شيء خطأ؟ كل ما قلته هو أنني تركت مروحة هنا وأنني لا أجدها الآن».

نظر سيتو بعيداً، فهو غير مستعد لأن يلعب دور الشاهد. متى يستطيع الهرب من كل هذا؟

لن تستسلم الأم. نزل سيتو الدرجات وسار حتى السور. نادت ديفو من المجمع السكني لأتباع براهما، مجمع إلّام،

«سيتو، هل مادهافيتان موجود هناك؟»

«لا».

«عندما يعود، قل له إن كونهاتول تريد أن تراه».

كان الخال مادهافا هو الذي يرعى شؤون «مجمع إلّام» الآن، فقد مات كونجان نامبوديري[1]. كان يشرف على قطف جوز الأريكا وبيعه وجمع الأرز من جوفينداان، الفلاح الأجير. كانت كونهاتول تثق ثقة عمياء في الخال مادهافا، فهي تعرف أنه لن يخدعها أبداً. وكان هو يبدو سعيداً بما تعطيه له من حين لآخر.

كانت الخالة الصغرى تشكو من أن الخال مادهافا لا يعطيها أبداً ولا حتى رُبع «أنّة»[2] لشراء النشوق، برغم ما يكسبه من بستان الموز وما يحصله كمدير لمجمع إلّام.

وتدافع الأم عنه دائماً، «إنه رجل، على أية حال، ويحتاج النقود لنفقاته الخاصة».

أرهف سيتو أذنيه. هل انتهت المشاجرة الآن؟ لا. انتقلت الأم إلى الشرفة، استعداداً للمعركة.

ماذا لو التقط ورقة طلع ساقطة على الأرض من مجمّع كونهاتول، وصنع بها مروحة وألقاها إلى الشرفة؟ لا، لن توقفهما. كلتا المرأتين تحبان الشجار. وكانت الأم دائماً هي الفائزة – وعلى أية حال، هي التي

(1) نامبوديري: لقب لطائفة من أتباع براهما في ولاية كيرالا الهندية. [المترجمة]

(2) الأنّة anna: عملة قديمة في الهند، كانت الأنة تساوي 1/16 من الروبية، وانتهى التعامل بها منذ عام 1957، عندما تحولت الهند إلى استخدام النظام العشري في العملة. [المترجمة]

تدير البيت. وهذا يعني أن بادمو سوف تتلقى علقة اليوم بكل تأكيد.

عندما كان زوج الخالة حياً، كانت تتشاجر معه طول الوقت. اعتاد أن يجلس جلسة ناسك زاهد، مرتدياً موندو صغيراً لا يكاد يستره، ويمسّد لحيته ويستمع إليها. كان زوجها الثاني. أما الأول فكان كاندوليكاران كريشنان ناير. وكانت تجمعه بها علاقة «سامباندهام» لمدة عامين[1].

كانت أمي دائماً توجه لخالتي الاتهام قائلة «ينبغي على المرأة أن تكون في ظل زوجها».

وكانت الخالة ترد: «وهل كل أولئك النبيلات اللائي يعشن في ظل رجالهن مزدهرات الآن؟ لا تثيريني». كانت تقصد الإشارة إلى أن أبي يعطي كل ما يكسبه لأبناء وبنات أخواته.

في الواقع، لم يكن زوج الخالة، كريشنان ناير، ثرياً في تلك الأيام. وكان معتادا على تأجير قطعة أرض خالية بمجرد حصاد الأرز، ويزرع فيها بذور السمسم. أو يلجأ لأخذ قطعة أرض بالقرب من النهر لم يستأجرها أحد من الفلاحين، ويزرعها بالخيار. وكانت أمي تحترمه، لأنه من النوع الذي يهتم بعائلته. كان لديها دليل على ذلك عندما كان باراميسوارا إيتان طفلاً. فقد أصابه مرض وأشرف على الموت. ولم يستطع فايديان كودوموندوكاران أن يفعل شيئاً له. وظن

(1) علاقة سامباندهام sambandham: (الكلمة تعني حرفياً «علاقة»): علاقة تعاقدية، تشبه رباط الزواج لدى طوائف النظام الأمومي مثل طائفة الناير في ولاية كيرالا الهندية في الأزمنة القديمة، دون أن يكون الرجل مسؤولاًعن زوجته حتى يكمل ارتباطه بالزواج الرسمي. كان الهدف من هذا النظام أن يتفرغ الرجال للحروب، ولم يعد هذا النظام قائما اليوم. [المترجمة]

الجميع أنه سوف يموت. لكن كريشنان ناير عبر النهر في سكون الليل وظلمته، وأحضر امرأة غسّالة من على بعد خمسة أميال. كانت امرأة عجوزاً وعمياء، تسير بالكاد ويبدو أنها لم تذهب إلى أي مكان من قبل. لكن كريشنان ناير شجعها على المجيء إلى البيت. ووصلا عند انبلاج الصبح، وبمجرد أن وضعت العجوز بعض الدواء المصنوع من الأعشاب على جبين الطفل وصدره وبدأت تردد بعض التعاويذ، حتى فتح أخي الأكبر عينيه.

فقدنا الاتصال بكريشنان ناير عندما توقف عن زيارة الخالة الصغرى. كل ما عرفناه هو أنه ترك القرية. وبعد أن سلم زوج الخالة ممتلكاته لابن أخيه وجاء ليعيش معنا، سمعنا ذات مرة أن كريشنان ناير يقوم بالتجارة في بازهاني وأنه أرسل لأخته خمسمئة روبية.

وأخبرنا كاهن كان قد ذهب من قريتنا إلى المعبد الموجود في بازهاني في عيد ثايبويام[1] أن كريشنان ناير فعل خيراً لنفسه وكسب نقوداً، وأنه تزوج وأصبح لديه أطفال.

جاء كريشنان ناير إلى القرية منذ خمس سنوات، قبل أيام قليلة من زواج باراميسوارا إيتان. وكان أبي في البيت. وكان الخال مادهافا وإيتان قد ذهبا إلى بلدة كونامكولام لشراء ملابس.

فتح الباب رجل يرتدي قميصاً أزرق وقميص «فشتي» ذا حاشية مذهبة، كان هو كريشنان ناير.

كان يضع في أذنيه قرطين من حجر أبيض، وحول عنقه سلسلة

(1) ثايبويام Thaipooyam: احتفال خاص بطائفة التاميل، عندما يكتمل القمر في شهر «تاي» (يناير/فبراير). [المترجمة]

ذهبية، وكذلك حول معصمه الأيسر، وفي أصابعه خواتم ضخمة. وعلى ذراعه وشم عبارة عن صورة لكريشنا يعزف على الفلوت. أصيبت أمي بارتباك شديد. وحدث بعض الاضطراب وهي تقوم بتقديم شاي ولقمة خفيفة له.

كان أبي وكريشنان ناير بحاجة لكثير من الكلام معاً. وكانت أمي تذهب إلى الباب الأمامي من وقت لآخر لتشترك في المحادثة.

«هل آبو ناير في البيت؟»

«كان هنا منذ فترة قصيرة». سيتو فقط رأى زوج خالته وهو ذاهب إلى فاداكيتو.

عندما كان بسبيله للذهاب، سأل كريشنان ناير أمي: «أين الأم كالياني؟»

فكر سيتو أن الخالة الصغرى سوف تظل بالداخل، ترضع بادمو. لكنها جاءت، تحمل بادمو على ردفها، وقد أرجعت شعرها الرمادي خلف أذنها اليسرى. رآها سيتو وهي تبذل مجهوداً لكي تبتسم.

وتفتق فم كريشنان ناير عن سِنٍّ ذهبية وهو يبتسم، ويده على الباب: «هل أنتم جميعاً بخير؟»

وصدر عن الخالة الصغرى صوت يدل على الموافقة. وظلت على وجهها ابتسامة شاحبة كزهرة استخدمت في الزينة ثم سقطت داخل كومة القمامة.

«إنني عائد في الغد. ولهذا فكرت أن آتي وأراكم جميعاً قبل رحيلي».

رأى سيتو كريشنان ناير يضع شيئاً في يد بادمو. ورقة بخمس روبيات. وبينما يلقي تحية الوداع للأب، سأل سيتو:

«في أي سنة دراسية أنت؟»

«السادسة». ولم ينس سيتو أبداً رائحة الورقة الجديدة النظيفة ذات الروبيات الخمس التي أعطاها له كريشنان ناير.

انتظرت الأم في الشرفة، تتخبط في صندوق ورق التنبول، حتى غادر كريشنان ناير. ثم قالت: «مهما بلغ من الثراء، فلم ينس الماضي. إنه طيب القلب».

رأينا زوج الخالة يجر هيكله القوي عبر السياج، يلتقط أنفاسه، وعيناه في الأرض.

قالت الأم: «كل ذلك مقدر ومكتوب، ألا ترى؟ هي أصغر مني، ولكن ما الفائدة؟ غباؤها أوصلها إلى هذا الحظ التعس. كان يمكن أن تعيش ملكة... ملكة».

وقفت الخالة الصغرى على الجانب الداخلي من الباب، مثل مخلوق منسي، تربت شعرها بيديها. لم تنبس بكلمة واحدة، ولم تنظر حتى إلى الأم.

ولكن الأب نهر الأم: «ها هو ذا. الزمي الصمت».

***

«سيتو». كانت تشيرياما تنادي.

كانت الشرفة هادئة. يبدو أن الأم خسرت المعركة. جاءت الخالة الصغرى وهمست: «هل أنت ذاهب إلى مكتب البريد؟»

«ربما».

«احضر لي نشوقاً بنصف أنّة. وليس معي نقود». تمنى سيتو أن لا تكون أمه قد سمعت. فقد يؤدي ذلك لبدء مشاجرة أخرى. كانت

الأم تكره أن تستخدم النساء النشوق؛ وكان الأمر يثير غضبها بشدة.

أين يمكن أن يجد نصف «أنّة»؟ لم يقل شيئاً للخالة الصغرى. تمددت هي في الفراندة، وأسندت رأسها على مرفقيها، وبصقت في الفناء.

رأى شخصين قادمين عبر الحقل نحو البيت. من هما يا ترى، في هذا الوقت من اليوم؟ باراميسوارا إيتان؟ غاص قلبه عندما تعرّف على أحدهما. هاريداس! يا إلهي، لا!

كان أول ما فكر فيه هو الخالة الصغرى، التي ترقد على مرأى من أي عابر دون أن ترتدي «بلوزة»، وثدياها عاريان، وملابسها الداخلية ظاهرة.

«خالتي، هناك شخص قادم».

«من؟»

«صبي كان معي في المدرسة، وشخص آخر»..

«حسنا».

لم يجرؤ أن يطلب منها أن تدخل. ابتلع ارتباكه، وانتظر بينما صعد هاريداس على الدرجات. وعندما تنبه فجأة إلى أن الموندو الخاص به بالٍ وقذر، لم يستطع حتى أن يتصنع الابتسام.

«من الصعب الوصول إلى بيتك يا سيتو».

«كان يمكنك أن ترسل لي مذكرة».

«إنه تشاندريتان. جئنا إلى بيت جوبي مينون، وفكرنا أن نمر بك فأنت في نفس الحي».

لم تكن ثمة مقاعد هنا بالأسفل. فأين يجلسان؟

كان قميص هاريداس البوبلين الأبيض مبللاً بالعرق. وضع هاريداس يده على كتف سيتو، وقال، وعيناه مفعمتان بالضحك: «ألم أقل إنني أحمل لك مفاجأة في يوم من تلك الأيام؟»

«تعال، هيا نصعد للطابق الأعلى».

رفعت الخالة رأسها، ثم أنزلته مرة أخرى.

صعدوا للطابق الأعلى. كان المقعد الخفيف الموجود عادة في الشرفة قد طوي وأبعد من المكان. دعاهم إلى الغرفة، «اجلسوا». جلسوا على الإفريز الخشبي للشرفة في الغرفة القذرة. كانت الأتربة والقمامة قد كُنست في كومة وتُركت في الشرفة. وشعر سيتو بالغثيان.

سوف يقول للأم، إذا كانت ستتفاخر مرة أخرى، بقولها «ليس من السهل الحفاظ على النظافة في مثل هذا البيت»: بيت فعلاً!

وفكر في بيت هاريداس الجميل، المرتب. النباتات في الأصص على الأفاريز خلف البوابة الحديدية، وتعريشة الياسمين في الفناء. المقاعد مرتبة حول منضدة مستديرة في الغرفة الأمامية وعليها مفرش من القماش يزدان بزخارف مشغولة بالألوان. قدمه هاريداس إلى أمه. كانت ترتدي موندو منشى من النوع الأصلي، أبيض بإطار أسود. وقدمت أخت هاريداس الكبرى لهم الشاي وقطعاً من المانجو في طبق من البورسلين الأبيض.

كان قد مر على هاريداس في طريقه عائداً من سجال جدلي. لم يكسب جائزة في ذلك اليوم. لكن لطف الترحيب الذي لقيه من هاريداس ظل باقياً في ذاكرته.

استأذن منهما وأسرع إلى الأسفل. كان الأمر مثيراً للخجل - كان

يزعم أن والده موظفٌ مهمٌ يرسل إلى البيت كميات كبيرة من النقود كل شهر، وأن منزله به «نالوكيتو» كبير المساحة، وهو فناء داخلي به أربعة أعمدة، وله غرفة خاصة به.

كانت خالته قد تركت الشرفة. حسناً. دلف إلى الداخل، أين أمي؟ سألت بادمو، التي جاءت إلى الداخل تجر قلفة جوز هند مربوطة بحبل: «أين فاليامّا؟»

«لا أعرف».

عبس في وجهها.

«خالتي، أين أمي؟»

«انظر في المطبخ».

«ليست هناك. خالتي، لابد أن أقدم شاياً لأصدقائي».

«أمك هي التي تدير البيت، يا ولد. أنا فقط آكل ما يُعطى لي. ولا أشكو إن لم أحصل على شيء. من أنا، على أية حال؟ لو اهتممت يوماً بالنقود التافهة التي كنت أحصل عليها، لكان في استطاعتي شراء ما يلزمني من حساء وملابس».

«من فضلك يا خالتي، هل يمكن أن تصنعي لي بعض الشاي؟»

«بأي شيء؟ أمك تغلق على الشاي والسكر».

كان الحديث معها عديم الجدوى. ذهب إلى الخارج باحثاً عن الأم.

يا إلهي! أتمنى ألا يسمع هاريداس.

كانت الأم عند سياج فاداكيتو، تتحدث مع العمة.

«أمي، عندي زائرون، زميلي في المدرسة هاريداس وأخوه. من فضلك اصنعي بعض الشاي بسرعة».

قالت الأم: «ليس عندنا لبن».

«أمي!» كان على وشك البكاء.

«ماذا أفعل إذا لم يكن عندنا لبن؟»

أسرع إلى الباب المجاور، وتحدث مع سوميترا. فذهبت لترى العنزة التي كانت تركتها لترعى. وأسرع عائداً إلى المطبخ.

«أمي، ماذا سنقدم لهم إلى جانب الشاي؟»

«رأسك. اخرج يا ولد. من حسن حظك أنك لن تموت جوعاً. وتظن أنني سوف أقدم وجبة خفيفة لأي شخص تريد؟»

لماذا ينبغي أن تتحدث الأم بهذا الصوت المرتفع؟ جرى صاعداً السلم، كان هاريداس وأخوه عند الباب.

«هاري، لن تذهب الآن؟»

«نعم، لابد».

قال بجهد جهيد: «ابق لتتناول كوباً من الشاي».

ورد أخو هاريداس: «علينا أن نمر ببعض الأماكن الأخرى».

لم يستطع أن يدفع نفسه للإصرار. ترددا للحظة في الفناء. كانت بادمو تلعب في الشرفة.

«أين أمك، يا سيتو؟»

«في المطبخ، أظن. سوف أدعوها».

وأنقذه تشاندريتان: «هيا بنا. قل لأمك أننا اضطررنا للمغادرة».

سار مع هاريداس عبر الحقول على الطريق كانت هذه هي أول مرة يخرج فيها دون أن يرتدي قميصا.

سار تشاندريتان أمامهما.

وسأل هاريداس: «ماذا تفعل بوقتك في الإجازة؟ لقد رأيت تي كيه بي في أحد الأيام».

حاول سيتو أن يبتسم: «إلى أي كلية سوف تذهب؟»

«سوف أنتظر النتيجة».

«أوه، هيا، بالطبع سوف تنجح. لا أستطيع الذهاب إلى كلية حتى لو نجحت. ليس لدينا نقود».

توقفوا عند القناة. قال سيتو: «وداعاً يا داس. سوف أكتب لك».

«لابد أن تفعل. سوف أقول لـ (تي كيه بي) إنني رأيتك».

سار سيتو عائداً، كان الحقل يشع حرارة لاهبة تحت قدميه.

عندما عاد إلى البيت، شعر بالغضب من العالم كله. شعر بأنه يريد أن يهدم البيت القديم المسقوف بالقش بعوارضه المشقوقة. يا لها من عائلة «تاراواد» حقاً![1] تخيل هاريداس يصف زيارته لبيت سيتو بين أصدقائه.

نادت الأم: «سيتو.. بادمو، قولي لسيتو إنني أريده».

لم يتحرك.

بعد قليل، جاءت الأم تحمل الشاي في قدحين نحاسيين. «ها أنت».

أخفى ألمه واستياءه، وقال: «لقد ذهبا».

تركت الأم قدحا من الشاي بجواره ونزلت. سكبه على الأرض.

كيف يستطيع أن يواجه هاريداس مرة أخرى؟

(1) تاراواد tarawad: العائلة في مجتمع تحت نظام أمومي في الوراثة، ترث الأم والبنات ولا يرث الرجال. هذا القانون ألغي حالياً بعد إقرار قانون العائلة المشتركة عام 1975 في تشريعات ولاية كيرالا. [المترجمة]

انعقدت الصداقة بينهما في العام الذي كان فيه هاريداس يعيد سنته العاشرة. كان لهاريداس شعر مجعد، وابتسامة مشاكسة، ودائماً كان متأخراً عن الحصة. كان يتناول النشوق، ويتهكم على المعلمين وكثيراً ما كان يُطرد من الفصل. ذات مرة جلس بجوار سيتو، فلاحظ مجموعة من قصائد تشانجامبوزها بين كتب هاريداس وسأله أن يعيرهُ إياها. وكانت هذه هي الطريقة التي تعارفا بها.

وسرعان ما أصبحا صديقين، أكثر تلاميذ الفصل ذكاء وأكثرهم مشاكسة. كانا يذهبان معاً في كل مكان. إلى مهرجان المعبد في كالاتهور. لمقابلة الكولونيل لاكشمي، التي حاربت مع ساباش تشاندرا بوسي. وجاء هاريداس بالأخبار بأنها من المتوقع أن تكون في مقابلة في مكان مجاور، كان هاريداس أكبر من سيتو بعام أو اثنين، وإذا نظرت بإمعان، يمكن أن ترى ظلاً خفيفاً للغاية لشارب فوق شفتيه.

كان هاريداس بارعاً في إلقاء الشعر. وكذلك كانت باروكوتي.

كانت باروكوتي، وعلى جبهتها نقطة «بوتو» سوداء، تأتي دائماً إلى المدرسة وسط زحام من البنات. كانت بينهن القائدة، وكانت أجملهن.

وأراه هاريداس رسالة. «هل تريد أن تعرف من كتبها؟»

«من؟»

«تي كيه بي».

«من تي كيه بي؟»

كانت الرسالة مكتوبة على طول أربع صفحات، وكانت موقعة تي. كيه. باروكوتي.

بدأ هاريداس يأتي إلى المدرسة مبكراً. كان سيتو يسكن على بُعد

أربعة أميال من المدرسة، ووجد أنه من الصعب أن يأتي مبكراً. ولكن، بناء على إلحاح هاريداس، يزدرد كوب الكانجي ويسرع إلى المدرسة في التاسعة. كان الفصل العاشر ب، أحد الفصول الجديدة بالطابق العلوي. كان ينتظر بالخارج حتى يرى باروكوتي تخرج من غرفة البنات. وبزعم أنها ذاهبة إلى الحمام، تخرج إلى غرفة الفصل وتتحدث مع هاريداس، بينما يقف سيتو في الشرفة يراقب ليتأكد من أن أحداً لا يراهما.

كانت باروكوتي تنطق حرف الشين، وكأنه «سين». وكان هذا ملحوظاً بشدة عندما كانت تلقي الشعر. ولكن لم يكن أحد من الأولاد يضحك منها، لأنها كانت باروكوتي.

ذات يوم، لم يأت هاريداس، وسمع سيتو صوتا يناديه وهو يمر عبر الغرفة المخصصة للبنات.

كانت باروكوتي. وشعر بسعادة لا توصف.

سألته: «هل يمكن أن تسلفني دفتر الفيزياء الخاص بك؟»

لم يكن هذا طلباً مثيراً للدهشة، لأنه كان أبرع الطلبة في الفصل ودائماً كان يحصل على أعلى الدرجات، برغم أنه كان أصغرهم سناً. في تلك الليلة، قام بنسخ الدفتر في دفتر جديد تحت ضوء مصباح زيتي، وغطى الكتاب بصفحة من مفكرة قديمة عليها إعلان عن حساء الفينوليا، كانت هذه الصفحة معلقة على الجدار عنده منذ أمد طويل. وأعطى هذا الدفتر لباروكوتي في اليوم التالي، وهو يشعر بأنه أنجز إنجازاً لا مثيل له.

وشعر بالحيرة، هل يخبر هاريداس بذلك يوم الاثنين، ولكنه لم

يفعل. أخفى سره ككنز دفين بينه وبين باروكوتي، سر لم يشاركهما فيه هاريداس.

أحياناً، كان ينظر إلى باروكوتي خفية في الفصل. كانت جميلة للغاية، وعندما تسير تجرجر تنورتها الطويلة وراءها على الأرض.

ذات يوم، قال له هاريداس: «باروكوتي مريضة». كانت مصابة بالتيفوئيد. وأخبره هاريداس فيما بعد بأن باروكوتي لن تعود إلى المدرسة. وبرغم ذلك فقد جاءت ذات مرة، لتأخذ شهاداتها. رآها سيتو عن بعد. كانت قد قصت شعرها، تلك الضفيرة الطويلة المتأرجحة التي اعتادت أن تشبك بها زهوراً حمراء، قصته ليصبح مثل شعر الصبي. شعر بألم في قلبه. والتفت مبتعداً قبل أن تراه.

وفي ذلك اليوم، قال لهاريداس: «باروكوتي استعارت دفتر الفيزياء مني. هل تستطيع استعادته منها؟»

«لقد أعطته لي منذ مدة طويلة. وقد نسيت».

هل نما شعرها مرة أخرى؟ لم يجرؤ على سؤال هاريداس اليوم.

سألت الأم: «من الذي سكب هذا الشاي؟»

لم يجب. صعد إلى الطابق الأعلى، وارتدى قميصه.

وسمعها تزعق: «لماذا تسكبه؟ ممن أنت غاضب؟ أعرف أنك أردت أن أقدم الشاي والوجبة الخفيفة. لكنني لا أحصل سوى على ستين روبية يرسلها والدك لي لإطعامكم جميعاً. آه، أريد أن أعرف ماذا كنت تفعل لو لم أكن موجودة».

سوف تبدأ الآن، تتحدث عن كفاءتها، وتفوقها، والاحترام الذي تكنه لها نساء الحي. أسرع مبتعداً قبل أن تبدأ.

2

«سيتو، هل نسيت ما طلبته منك بالأمس؟»

«ماذا؟»

«كنت أريد نشوقاً بنصف آنّة».

لم يجب سيتو. كان يحاول أن يفهم كيف يحصل على قطعتين من ذات الآنّة لنفسه. وها هي الخالة الصغرى تذكره مرة أخرى.

تنهدت الخالة الصغرى: «الناس لا يلقون بالاً إليك إن لم تكن تمتلك أي شيء خاص بك».

سمع أن الخالة الصغرى كانت تعيش حياة ميسرة حتى تخلى زوجها عن حقوقه في ممتلكات العائلة وجاء هنا. ولكن سيتو يذكر دائماً أن زوج الخالة كانت لديه مشكلات مالية لا تنتهي. كان يستمع أحياناً في صمت إلى ما تقوله الأم والخالة الصغرى.

مات في أحد أيام الصيف، في صيف يماثل هذا الصيف تماماً. كان سيتو في السنة الدراسية الثامنة في ذلك الوقت. كان قد فرغ من الامتحانات وبقي بالبيت. تلك كانت أول مرة يشهد الموت.

قبل ذلك، فقدت الخالة الصغرى طفلين أثناء الولادة. ولكنه كان في المدرسة في المرتين. في إحداهما، سمع الخالة الصغرى تئن من الألم عندما استيقظ في الصباح. كانت على وشك الولادة وأُرسل سيتو لإحضار الأم تشاموكوتي، القابلة. وظلت الأم والعمة بارو من فاداكيتو يزجران الخالة الصغرى لأنها لا تريد أن ترقد، وتصر على السير في القاعة ذهاباً وإياباً. قالت الأم: «اذهبي وارقدي، أيتها التعسة، أنا أيضاً أنجبت أطفالاً».

العمة من فاداكيتو قدمت لسيتو الكانجي في ذلك الصباح. وعندما ذهب لإحضار حقيبة المدرسة من تحت السلم، كانت الأرض مبللة. وكأنما انقلب عليها قدر من الماء.

«انفتق القرن وتدفق الماء. لماذا لم تأت القابلة؟» أسرع سيتو مبتعداً.

عندما عاد من المدرسة ذلك المساء، أرهف أذنيه بحدة ليسمع صراخ الطفل. لم تتحدث الأم أو الخالة إليه. ولم يطبخ أحد الكانجي. وناداه زوج الخالة: «تعال، يا سيتو».

خرجا معاً. كان زوج الخالة قد كسب لتوه قضية ضد عائلة إريمبيليات، وتلقى بعض النقود كفائدة. كانت لديه أوراق مالية وقطع نقدية وضعها في وسطه. اشترى لسيتو شاياً ووجبة خفيفة. وفي طريق العودة، توقف زوج الخالة خارج بيت كاندوني قائلاً إنه سوف يعود بعد قليل. ظل سيتو بالخارج ينفخ الأوراق الكبيرة لنبات الخروع. عاد زوج الخالة بعد وقت طويل، يمسح ذقنه ويبصق من وقت لآخر وهو يمشي. كان وجهه المستدير الذي نبتت شعيرات لحيته الرمادية قد تحول إلى اللون الأحمر، وانبعثت منه رائحة شراب العرق.

«تعال». بدا زوج الخالة مترنحاً، غير مستقر على قدميه. قال وهما يعبران الحقول، «خالتك الصغرى أنجبت ولداً، لكنه مات».

كان الجميع يحبون زوج الخالة. عندما أراد أن يتزوج للمرة الثالثة، واقتُرح عليه اسم الخالة الصغرى، لم يكن أحد في العائلة لديه ما يعترض به على العريس البالغ خمسين عاماً. كان هو الكارانافار، كبير الجماعة على الإطلاق بالنسبة لجماعة التاراواد، ويمتلك دكاناً في مواجهة معبد

أريامبادات. ولكن تجارته فشلت وقرر أبناء إخوته تقسيم ممتلكات العائلة. ونشأ نزاع واستسلم زوج الخالة وسلم حقوقه في الملكية مقابل تسوية بحوالي ثلاثة آلاف روبية. ثم جاء ليعيش هنا. وأعطى نقوده كسلفة لرجال جماعة إيريمبيلياث من طائفة المابيلا[1] وفقد كل شيء، المال والفوائد. فرفع قضية ورهن في البداية مجوهرات الخالة الصغرى ثم مجوهرات الأم ليدفع تكاليف المحاماة. وكسب القضية، لكن النقود التي تلقاها لم تكن كافية لدفع الديون التي تراكمت عليه.

كان الأخ الأكبر، باراميسوارا، متى ما جاء إلى البيت، يعطي زوج الخالة الصغرى روبية أو اثنتين لشراء أوراق التنبول. وكانت الخالة الصغرى تكره ذلك. أما زوجها فكان يستيقظ مبكراً في الصباح للهروب من مهاتراتها، ويذهب إلى النهر، ويصلي حتى تشتد حرارة الشمس. بعد ذلك، يلطخ جبهته وصدره بالرماد المقدس، ويعود إلى البيت ويسير إلى الشرفة. وبعد الغداء، كان دائماً يذهب إلى فاداكيتو.

***

كنا جميعاً ندعو بارو، الأم في بيت فاداكيتو المجاور لنا، بالعمة، ذلك أنها كانت ذات قرابة بعيدة بنا. حتى أمي التي كانت أكبر منها، كانت تدعوها بالعمة.

وكانت إحدى الفتاتين، ديفو أو سوميترا، تفرش حصيرا لزوج الخالة وكان يبقى عند فاداكيتو حتى يناديه أحد ليأتي إلى البيت ويتناول الغداء. كانت العمة أحياناً تعطيه كوباً من الشاي. فقد كانت تحب وجوده هناك، لأن بيتها لم يكن به رجال.

---

(1) مابيلا mapilla، أكبر جماعة مسلمة في ولاية كيرالا الهندية. [المترجمة]

وجدت الخالة أن بادمو يمكن أن تُلام على هذا أيضاً. «ألا يستطيع أبوك البقاء في بيته؟ لماذا يجلس في شرفتهم، لكي يستعرض أمام كل من في المنطقة حتى الغربان والدجاج؟»

كان الأطفال - ديفو، وسوميترا، وأوني نامبوديري - يلعبون دائماً في فناء العمة. وكان زوج الخالة يحب أن يجلس في هدوء ويشاهدهم يلعبون.

وفي غسق أحد الأيام، حدث أن رأى سيتو الموت. كان زوج الخالة مريضاً منذ شهر. وسمع سيتو صرخة وجرى نازلاً السلم.

رأى العينين الخاليتين من الحياة مفتوحتين على اتساعهما. وبدا الوجه وقد تغير شكله.

طلبت الأم منه أن يأخذ بادمو بعيداً إلى مجمع إلّام أو إلى فاداكيتو. لكنه تلكأ، محملقاً في حدقتي زوج الخالة المتمددتين، مستمعاً إلى تنفسه بجهد جهيد.

«قلت لك اخرج». جذب سيتو بادمو وهي واقفة لا تفهم ما يحدث، وابتعد بها. وحتى قبل أن يصل إلى بستان نخيل الأريكا، سمع عويل الخالة الصغرى. أمسك بادمو وضمها إليه، مرتعشاً، وفجأة بدأت الطفلة الصغيرة تبكي.

أرسلوا كلمة إلى أهل زوج الخالة، لكن أحداً لم يأت. انتظروا حتى منتصف الليل، وحينئذ قال الخال مادهافا إنهم سوف يقومون بإجراءات حرق الجثة. كانت التقاليد تقضي بأن يُحرق الشخص كبير السن بخشب شجرة مانجو، لكن شجرة المانجو الوحيدة لديهم كانت لا تزال تثمر، ولم يكن أحد يريد قطعها.

نام سيتو في بيت العمة في تلك الليلة. قامت سوميترا بإطعام بادمو، ووضعتها في الفراش لتنام، ثم قدمت الطعام لسيتو.

قالت: «أتساءل ماذا تفعل أختي الكبرى في بيتكم؟» كانت ديفو والعمة لا تزالان في بيت سيتو.

راحت سوميترا تعبث بالخصلات المتشابكة في شعرها تحت ضوء المصباح الزيتي وجمعته في عقدة فوق رأسها. وضعت بادمو في الفراش مع كارتياياني، التي كانت أكبر من بادمو بعام واحد، وقالت لسيتو أن ينام أيضاً.

كانت سوميترا وسيتو في العمر نفسه، لكنها فجأة بدت امرأة بالغة ومسؤولة.

نام سيتو على حصيرة في القاعة. لم يعد يفكر في عيني زوج الخالة البيضاوين تتسعان بشكل مخيف. وبدلاً من ذلك، عاد بعقله إلى لحظة كان يسير هو وسوميترا فوق التل ذاهبين إلى المدرسة، ترافقهما ديفو. حتى عندما كانت في الصف الخامس، لم تكن سوميترا ترتدي بلوزة. في ذلك العام، توقفت عن المجيء إلى المدرسة.

كانا يقفان عند سور مجمع إلّام في طريق العودة من المدرسة، ويتركان كتبهما ولوحي الكتابة تحت شجرة ويشقان طريقهما من خلال الفتحة في السياج ليبحثا عن ثمار المانجو التي وقعت على الأرض داخل مجمع إلّام. كانت أجمات البامبو والأشجار الكبيرة تتجمع هناك بوفرة بالغة فكان المكان مظلماً حتى في فترة الظهر.

لم يكن يجرؤ على الدخول مسافة كافية للحصول على ثمار المانجو الساقطة على الأرض سوى أوني نامبوديري. في بعض الأيام، عندما

كان يجد كمية كبيرة، كان يعطي سوميترا وسيتو بعضها. كانوا يزحفون عائدين من خلال بستان نخيل الأريكا، محاذرين أن يراهم كونجو نامبوديري. وعندما يصلون إلى السياج عند البوابة الموجودة على الناحية الجنوبية، كانوا يجدون ديفو منتظرة وعلى وجهها نظرة مقطبة.

ما أن أصبح في الصف التاسع، وانتقل إلى المدرسة العليا على بعد أربعة أميال، لم يعد سيتو يذهب بحثا عن المانجو، برغم أنه كان يذهب أحياناً إلى أماكن ترددهم القديمة. والآن، لا يذهب الأطفال هناك أبداً. فهم يتجنبون المكان لأن كونجو نامبوديري أُحرق بالقرب منه. ونمت الشجيرات حتى ملأت المكان.

مرت ليال كثيرة على سيتو، يحلم فيها بإحراق كونجو نامبوديري ويستيقظ مذعوراً. حتى عندما كان يسير تحت أشجار الممبوزيا في وضح النهار، كان يشعر بالقلق رغم أنه كان قد نسي عيني زوج الخالة بسرعة. كانت سوميترا هي التي حثته على الذهاب ومشاهدة كونجو نامبوديري أثناء إحراق جثته. كانوا قد وجدوا مكاناً على الصخور، تحت شجرة ممبوزيا، في البداية أخفى الدخان والزحام كل شيء. وعندما انقشع الدخان أمام هبات النسيم، رأوا أوني نامبوديري وهو يحمل أبريق ماء في يده، وقد جمع نهاية دثار الموندو بين رجليه، وتركه مطويا من الخلف بالطريقة المناسبة للطقوس.

سألت سوميترا: «هل تعتقد أن أوني نامبوديري كان ينبغي أن يبكي؟»

كيف يمكن لطفل ألا يبكي عندما يموت والده؟

لكن سوميترا كانت متأكدة من أنه لم يبكِ. كان كونجو نامبوديري يضرب ابنه كل يوم وهو يعلم الولد إنشاد نصوص الفيدا في ظليلة الحمام بالقرب من صهريج المياه. كان صوت ضرباته يسمع في البيت. وبعد ذلك كان أوني نامبوديري يسير مبتعداً، يرتعش لحم جسمه الكبير، ولا يظهر على وجهه أثر للدموع.

كان الخال مادهافا يقول: «ها هو عزيزنا الشجاع،... كم قصيدة ألقيتها اليوم؟»

وبرغم الكدمات التي تغطي جسده، كان أوني نامبوديري يكشف عن أسنانه الأمامية الكبيرة في ابتسامة. ويعابثه الخال مادهافا: «عليك أن تأكل قطاً أسود، يا تيرومبيني، وبعدها لن تؤثر بك اللطمات».

لا، لن يبكي أوني نامبوديري لأن أباه مات.

عندما كان نخيل الأريكا في مجمع إلّام ينحني، كان الأطفال يتأرجحون عليه. ذات مرة وقعت نخلة فوق يد أوني نامبوديري فانحشرت تحتها. جذب يده ليخرجها فجُرحت، ورأى الجميع ظفرين يتأرجحان على إصبعين مسحوقين. حتى حينها، افتر ثغره عن أسنانه الكبيرة في ابتسامة كالمعتاد.

كان أوني نامبوديري يرش الماء، في دائرة وهو يطوف حول النار.

كان الجمع يمد النار بعصي طويلة من الخشب وبراندي البالميرا. فجأة تذكر سيتو وصفاً للجحيم كان قد سمعه في طفولته، وكيف أن رُسل ياما، إله الموت، يلقون بكتل من اللحم في النار، ويشوونها ويقلونها.

أمسكت سوميترا بكتفه، وأشارت: «انظر يا سيتو، انظر». كان

شيء ضخم أشبه بقرد أسود معلَّق بأحد الفروع الموضوعة لإشعال النار. رآه سيتو للحظة واحدة.

«إنها أمعاؤه».

صرخ سيتو وفر من المكان تاركا سوميترا خلفه. وظلت تعابثه أياماً بعدها، وتدعوه بالجبان. وكثيراً ما كان، عندما ينام، يأتي هذا الشيء الأشبه بالقرد الأسود إلى عقله، فيستيقظ مرعوباً.

***

كان قطار البريد على الجسر. شعر سيتو بالخلاص، ورحب بنهاية يوم طويل حار آخر من الانتظار. تظاهر بأنه ذاهب ليأخذ غمسة من صهريج مجمع إلّام. وإذا كان محظوظاً فسوف يصادف أوني نامبوديري، ويمكن أن يطلب منه قطعتي آنّة، ولكن هذا هو موسم مهرجانات المعبد، ومن المحتمل أن يكون أوني نامبوديري في أحدها. كان يحب ركوب أفيال المعبد. وكانوا يدفعون لنامبوديري ثماني آنّات ليفعل ذلك. ولكن، كان أوني نامبوديري يستمتع أكثر بقدرته على الجلوس على ظهر الفيل وقتاً طويلاً كما يشاء.

إذا استطاع أن يتعامل جيداً مع أوني نامبوديري، يمكن أن يستخلص منه آنّتين، وهذا يعني أنه يستطيع شراء ثلاث بطاقات بريدية، والنشوق للخالة الصغرى.

كانت ديفو عند الصهريج، تغسل رواسب الزيت عن القروانة البرونز الكبيرة المسطحة، وأخبرته أن أوني نامبوديري في مجمع إلّام. لا أحد يعرف متى سيعود. فقد كان يأتي ويذهب كما يشاء.

«لقد جئت أبحث عن العنزة ورأيت كونهاتول تصنع زيتاً طازجاً.

كيف أرفض عندما طلبت مني أن أساعدها؟»

تحدثت ديفو كامرأة عجوز. منذ صُرفت الخادمة في إلّام من الخدمة، بسبب اتهامها بسرقة أرز، كانت ديفو تذهب بانتظام إلى مجمع إلّام للعناية بالبقرة، وغسل الأواني، ومسح الأرض. لم تكن هي أو أمها تعترفان بأنها تعمل هنا. كانتا تتظاهران بأنها ذهبت لمساعدة كونهاتول لأن الأخيرة تقدمت في السن.

سمع سيتو صوت صرير الحبل والدلو وهو يمر بالبئر، ورأى كونهاتول هناك. كانت تذكره بصورة في أسطورة رامايانا، صورة الأنثى الشيطانية، راكشاسي، التي كانت تحرس الأسيرة سيتا، وقرطاها يتدليان في ثقبي الأذن المستطيلين، وصوتها الأجش، والظلال السوداء تحت عينيها. كانت بيضاء البشرة ونحيفة، وذات وجه يبعث في نفسه الخوف.

«سيتو، أين ذهب مادهافا؟»

«لا أعرف».

«لم يأت إلى هذه الناحية بالأمس».

يُقال إن نساء النامبوديري متى بلغن العاشرة من العمر لا ينظرن أبداً إلى الصبيان في وجوههم. لكن كونهاتول كانت مختلفة. كانت تتحدث مباشرة حتى إلى الخال مادهافا.

«هل تخطيت امتحاناتك بنجاح؟»

توقف سيتو. «لا أعرف بعد».

عندما قامت كونهاتول بإرسال أوني نامبوديري ليعود إلى الصف الرابع لثالث سنة على التوالي، طلبت من سيتو أن يلاحظه. كانت

عادة تسأله كيف تمضي الأمور بعد كل امتحان يمران به. توقف أوني نامبوديري عن القدوم إلى المدرسة بعد ثلاثة أشهر. لكن كونهاتول كانت تقول دائماً: «سيتو ابن لاكشمي ذكي جداً، سوف يؤدي أداء حسنا».

وفي هذه اللحظة، قالت كونهاتول: «كنت أعني أن أطلب منك أن تحضر صندوق الموسيقى، يا سيتو».

«إنه معطل. سوف أحضره بمجرد إصلاحه».

كان الخال مادهافا قد كسب الجرامافون في اليانصيب. واستطاع أن يحصل على بعض الأسطوانات القديمة. في البداية، لم يكن يسمح لأحد غيره باستخدام الجهاز أو الأسطوانات. كانت كونهاتول دائماً تطلب أغنية «كالايامي سومات بهوسورامول». كما كانت تحب أيضاً «لاكشمي ثايبي موراري». وعندما يذهب سيتو لتشغيل الأغنيتين لها، كانت دائماً تعطيه كوباً من الشاي وشرائح من ثمرة الجاكايا. لم تكن تسمح له أبداً بغسل كوبه ووضعه مقلوباً كما هي العادة. «الفتاة سوف تغسله عندما تأتي».

ذات مرة التفت خلفه أثناء مغادرته، ورأى كونهاتول تأخذ الكوب بنفسها.

كان أوني نامبوديري هو الطفل الوحيد الذي عاش لها بعد أن فقدت خمسة أطفال متعاقبين. كان الناس عادة يعلقون بحزن: «أمه لم تكن تستحق مثل هذا المصير القاسي». كانت كونهاتول كريمة جداً مع كل من يطلب منها نقوداً أو طعاماً، مع ذلك، لم يكن القدر رفيقاً بها.

كان الناس يقولون إن أوني نامبوديري متخلف عقلياً، لكن سيتو لم

يكن يصدق ذلك. فقد كان عليه أن يستخدم كل ذكائه لكي يستطيع أن ينال آنّة واحدة من أوني نامبوديري.

لم يكن الشاي يصنع أبداً في مجمع إلّام أثناء حياة كونجو نامبوديري. كان معتاداً على المجيء سراً إلى بيت سيتو ليتناول كوباً من الشاي. وكان يحضر معه علبة من ثمار التنبول ويعطيها سراً للخالة الصغرى؛ وكان الشاي مقابل ذلك. كانت الخالة تطلب من المزارع أن يبيع ثمار التنبول ويشتري لها نشوقاً بالنقود.

ارتدى سيتو قميصاً، ومشط شعره، ومسح وجهه بيده، وطلب من الأم متردداً:

«هل معك آنّتان يمكن الاستغناء عنهما، يا أمي؟»

«لأي شيء؟»

«أريد أن أرسل رسالة».

«لمن؟»

لعن نفسه لأنه طلب منها.

«كم لديك من الأشخاص الذين تراسلهم؟ اخرج الآن».

شعر بغصة في حلقه. ابتلع ريقه بصعوبة، وخرج.

3

لم تكن هناك رسائل في مكتب البريد له. انتظر حتى تم تصنيف جميع الرسائل وختمها بأمل أن يسمع نداء اسمه. خرج ساعي البريد أخيراً وبدأ يقرأ قائمة بالأسماء، وهو يحدق فيها من خلال نظارته ذات الإطار المعدني. كانت معظم الرسائل من الجيش.

لم يسأل إن كانت هناك حوالة بالنقود. ظل يتسكع في المكان بعد أن غادر الجميع، ليتأكد من أن ساعي البريد قد رآه. لا، لم يكن ثمة شيء له.

كان يشعر بالخجل عندما يسير عائداً خاوي اليدين، يوماً بعد الآخر. ذات مرة صادف إعلاناً يدعو لطلب كتالوجات مجانية في مجلة كان باراميسوارا إيتان قد تركها. أخذ أربع آنّات من صندوق نقود مجمع إلّام وكتب لهم. وكان سعيداً لمدة أسبوع. كانت الكتالوجات معنونة إلى: «بي. كيه. سيتومادهافان، بيت بادينجاراباتو» وكانت تصل كل يوم من محلات المجوهرات والصيدليات. كان فرحاً بالأغلفة التي تحمل اسمه وعنوانه عليها، واحتفظ بها كما لو كانت كنزاً.

أمامه ميل من السير عائداً إلى البيت. كانت الرمال لا تزال ساخنة تحت قدميه. وظل يسير في ظل شجيرات البندانوس أو الصنوبر الكذاب. وبينما يستدير من الطريق إلى الحقل الكبير، رأى أوني نامبوديري جالساً القرفصاء عند بوابة العمة، وهو يبتسم بلا سبب، يمسك بمصباح صغير يفتحه ويغلقه.

كان رد الفعل الأول لديه هو الصدمة. هل أصبح أوني نامبوديري خفيف العقل حقاً لأن كل الناس كانوا يقولون إنه كذلك؟ وفكر في كونهاتول وهي تقدم القرابين في معبد تريبرانجوت لكي يصبح ابنها صحيح العقل.

سمع ضحكة. كانت سوميترا، تجمع حشائش الكاروكا بالقرب من السياج. «هل انتهى المهرجان يا أوني نامبوديري؟ هل كسبت نقوداً كثيرة بركوب الفيل؟»

ابتسم أوني نامبوديري وأمسك بالمصباح الذي اشتراه في المهرجان. «ست روبيات! يمكنك الرؤية إلى مسافة كبيرة بفتحه».

تحدث أوني نامبوديري بطريقة حمقاء. وقالت سوميترا لسيتو إن أوني نامبوديري دُعي لمهرجان تالابولي في كالاداتور. وابتسم أوني نامبوديري خجلاً، ووضع المصباح تحت ذراعه وسار بعيداً.

قال سيتو: «المسكين!»

«لا تضيع شفقتك هباء عليه. فيمكنه أن يكون ذكياً بدرجة كافية عندما يريد».

لم يعرف سيتو ماذا تقصد سوميترا بهذا القول.

«لماذا في ظنك أنهت كونهاتول عمل الخادمة؟»

«لأنها سرقت أرزاً».

ضحكت سوميترا، وأزاحت الأتربة من فوق حزمة من حشائش الكاروكا.

«أوني نامبوديري ليس طفلاً صغيراً بريئاً!»

سار سيتو إلى البيت تملؤه مشاعر بشكوك غامضة. كانت الأم جالسة في الشرفة وقد مدت ساقيها، تمضغ التنبول، وتراقب ديفو وهي تكنس الفناء الأمامي.

«لا رسائل؟»

«لا».

«همم». راحت الأم تمضغ في صمت. «مر شهران الآن على إرساله النقود. كيف يمكنني المضي؟ وباراميسوارا مثل أبيه، لا يهتم البتة».

سألت ديفو: «ألن يأتي باراميسوارا إيتان وزوجته؟»

«لماذا ندع الأغراب يعرفون كيف تسير أمورنا؟»

صعد سيتو، وخلع قميصه ورقد. كانت السماء بلون النحاس. وسقط ألق أصفر ناعم فملأ الفناء. والآن دمدم الرعد، ثم هب نسيم خفيف من التلال الغربية.

إنه العشرون من إبريل. بعد شهرين آخرين سيتمكن من الهروب.

عندما عاد باراميسوارا إيتان من الكلية، كان شخصاً مختلفاً. ودهش سيتو عندما فتح صندوقه. كانت هناك قمصان كثيرة جداً، كلها مكوية ومعطرة عطراً خفيفاً. لم يسبق لسيتو أبداً أن ارتدى قميصاً مكوياً. كان أحد أبناء طائفة مابيلا، الذي انتقل إلى الغرفة المجاورة للترزي، لديه مكواة. كان يكوي القميص المنشى بنصف أنّة. عندما اقترح سيتو الأمر على الأم، قالت: «لا حاجة بك لأن تكون بهذه الشياكة».

سمع ديفو تغادر. قالت الأم لها: «قولي لأمك أن تأتي وتنام هنا الليلة».

كانت العمة وأطفالها كثيراً ما ينامون في بيت سيتو، فالأم تظل ساهرة لوقت متأخر، وتحب أن يكون هناك من تتحدث إليه.

سمع صوت خطوات في الطرقة. الخالة الصغرى. سألت وهي عند الباب: «أين أنت، أيها الطفل؟ عندي صداع».

«لقد خلا دكان موساليار من النشوق».

نظرت الخالة إليه غاضبة، غير مصدقة لما قال.

«سوف يجلبون بعضه غداً. هز وعاء القدر ليريني أنه خالٍ».

تحركت الخالة مبتعدة.

سمع بادمو ترتل صلواتها، واكتشف أنه الغسق. نزل لأسفل وراح يقطع الفناء جيئة وذهاباً.

«ألن تستحمَّ، يا سيتو؟»

«لا».

«كيف ستنام في هذه الحرارة إن لم تأخذ حماما؟» في الصيف، كان سيتو ينام على الأرض في الشرفة الأمامية، وكان الخال مادهافا ينام على الحافة الخشبية.

عاد الخال مادهافا إلى البيت متأخراً. وكان يتمتم بأن جوفيندان وصل إلى درجة مستحيلة من العجرفة.

كان أبناء جوفيندان في الجيش. وكان قد استولى على عدد من حيازات الأراضي. ويمكنك أن تشتري قطعة أرز من جوفيندان فقط إذا أراد أن يبيع. كان من غير المجدي أن تهدده، النقود في جانبه، ومعه أبناء شباب أقوياء.

كانت الأم والخالة الصغرى والعمة من فاداكيتو يثرثرن بضوضاء حتى جاء الخال مادهافا. لم يكن أحد يظن بالنظر إليهن في ذلك الوقت أنهن قضين اليوم كله يتشاجرن معاً. ومهما كانت بادمو تشعر بالنعاس، كانت تجلس بالقرب من المصباح الزيتي، تستمع إليهن.

وعندما يخرج الخال مادهافا بعد الغداء وقد وضع فوطة مبللة حوله، ويشعل سيجارة بيديه، كن يخفضن أصواتهن.

«بادمو، ناوليني بعض الماء». كانت ديفو دائماً هي التي تجري لإحضار الماء للخال مادهافا.

خرجت سوميترا ومعها مصباح، كان شعرها مربوطا فوق رأسها

وجلست بالقرب من الأم. جلس سيتو في الظلام، مستنداً إلى العمود. ورثت سوميترا عن أمها بشرتها البيضاء، وقيل إن ديفو صورة من والدها المتوفى. كانت ديفو تبدو مضحكة. لها أذنان كبيرتان يخيل للناظر أنهما تتحركان وهي تتكلم. كانت طويلة وداكنة البشرة، وكان الشعر يغطي ذراعيها، كانت ديفو تذكّر سيتو بالبقرة السوداء التي وقعت في القناة وماتت أثناء هبوب الرياح الموسمية في العام الماضي.

كانت الخالة الصغرى تؤكد أن ديفو أكثر ذكاء بكثير من سوميترا، وأنها كانت بارعة في مسائل الخضر والخشب.

وكانت الأم تفتخر بحقيقة أن نساء فاداكيتو يستشرنها في كل أمورهن. وهي التي اقترحت عمل فتحة في السياج بين البيتين.

طلبت الأم من إحدى الطفلتين أن تفرش بساط سيتو له. أحضرت ديفو واحداً وسألت الخال مادهافا الذي كان جالساً على الدرجات، يدخن.

«ألن تذهب للنوم، يا مادهافيتا؟»

دمدم الخال مادهافا بشيء قد يعني نعم أو لا.

أضاء برق صامت الحقول والشرفة.

وقال الخال مادهافا: «أنا خارج، يا أختي. احضري لي مظلتي».

«إلى أين، في هذه الساعة؟»

«سوف تمطر، إذا بذرنا الحب غداً صباحاً، سوف نحتاج إلى عجل مايموني، والأفضل أن أرتب الأمر الآن، سوف يكون الجميع بحاجة إليه».

بدأت الأم تمتدح كفاءته وإخلاصه للعائلة، بينما اختفى هو في

الظلام. كان الخال مادهافا في الأربعين، يعمل بلا كلل. ولم يكن يمضغ أو يشرب. وكانت له سمعة طيبة للغاية. وعندما جاء الأب آخر مرة إلى البيت، تحدثت الأم في موضوع زواج الخال مادهافا. لكن الخال مادهافا قال: «يا أختي، لا أستطيع الزواج الآن».

كانت الأم تقول للجميع: «لقد بلغ الأربعين، لكنه لا يستمع لنا». لكن معظم الناس اكتشفوا أن الأم كانت في قرارة نفسها سعيدة بهذا، لأنها كانت تضيف دائماً: «سوف يستمر إخلاصه للعائلة فقط حتى تصبح له عائلته الخاصة».

هبت دفقة من الريح حاملة رمالاً إلى الشرفة. ورأى سيتو، وهو راقد على بساطه، السماء من خلال نخيل الأريكا وقد امتلأت بالسحب وتلمع بضوء البرق من حين لآخر. لقد كانت على وشك أن تمطر.

حينئذ، سمع الحفيف الضعيف للمطر وهو يضيع في زئير الرياح التي اقتحمت طريقها من خلال بستان نخيل الأريكا. وخرجت سوميترا بمصباح بترولي. «سيتو، هل أنت نائم؟»

نهض جالساً في الحال.

«سوف يشتد المطر. أمك تسأل إن كنت ترغب في النوم بالداخل».

لا. كان يحب أن ينام هنا والمطر يهطل بضوضائه بين قطع القش المعلقة بدون ترتيب على السقف، ودمدمة الرعد.

ابتسمت سوميترا وهي تنظر إلى لهب المصباح الذي ينبعث منه الدخان، وفجأة فكر سيتو، كم هي جميلة! لم يكن قد تحقق من ذلك حتى الآن.

وضعت سوميترا المصباح على العتبة، وتشممت يديها الملوثتين بالكيروسين، ومسحتهما على شعرها، وجلست. وبقلق غامض، راقبها سيتو وهي جالسة في الظل. تلمع أساورها الزجاجية الحمراء.

«لابد أن أذهب وأحضر شهادتي». تسارعت دقات قلبه وهو يقول هذا. كيف كان بهذا الغرور ويفترض أنه قد نجح؟ أيتها الإلهة بهاجافاتي، سامحيني!

«هل يمكن أن تشتري لي تشاندو بأربع أنّات؟»

«لا أعرف».

داخل البيت، ضحكت ديفو بصوت مرتفع، ونهرتها العمة.

جاءت هبة من الريح فأطفأت المصباح. تحرك سيتو مقترباً من سوميترا في الظلام. كان يتوق للمس معصمها، المحاط بالأساور الزجاجية. انبعثت من ثيابها رائحة خفيفة لصابون الغسيل. لم يسمع ما قالته سوميترا. شعر بالقلق والخوف. وبدت سوميترا بعيدة للغاية! لقد ذهبا إلى المدرسة معاً، وكانا في فصل واحد، لكنها فجأة بدت أكبر. وأخيراً استجمع شجاعته ولمس أطراف أصابعها. كان يخشى أن تجذب يدها بعيداً عنه، لكنها ابتسمت فقط، وقالت: «هذا خاتم من الحديد، أيها الطفل. اشتريته من التشتيتشي».

أمسك بأطراف أصابعها بقوة، وحاول أن يبتسم أيضاً.

«الناس من أمثالنا لا يستطيعون شراء خواتم ذهبية، أليس كذلك يا سيتو؟» أخذت المصباح، ودخلت. جلس سيتو ورأسه خفيض، يتنفس بقوة، وتتسارع دقات قلبه.

وأصبح أكثر هدوءاً بمجرد أن بدأ أزيز زخات الأمطار الموسمية

الأولى. سقطت قطرات كبيرة من المطر على السقف القش. واندمج ألف صوت منفرد داخل سيمفونية سريعة الإيقاع. كانت أفرع الأشجار تنفصل عن بعضها وتتكسر بصوت ناعم. وارتعشت الجدران القديمة عند مرور زئير الرعد فوقها على البعد.

ماذا ستقول الأم لو انهارت الجدران الطينية تحت قوة الأمطار؟ هذا البيت العظيم!

هذا الكوخ الحقير المهدم، بسقفه القش المدعوم بالعوارض، وغرفته العلوية المليئة بالأشباح، وغرفه المظلمة حتى وقت الظهيرة

- يا له من بيت!

أغلق عينيه، محاولاً استعادة صورة وجه سوميترا وقد انعكس عليه الإشعاع النحاسي للمصباح المدخن.

4

اشترك كوياسان مابيلا الذي يعمل في دكان التموين في إحدى الصحف. كان صبي من أناكارا يجلب الصابون يأتيه بها على دراجته كل يوم.

ذهب سيتو إلى الدكان في الموعد في اليوم الذي كانت النتيجة منتظرة فيه. تأخر الصبي على غير العادة. واستطاع أن يمسك بالصحيفة قبل أن يبعدها البائع في الدكان. كان هناك بحر هائل من الأرقام. وأخيراً وقعت عيناه على الرقم، 51931. تحقق مرة أخرى، ليتأكد. نعم، كان الرقم هناك بالفعل 51931. كان قد كتب عددا كبيراً من الأرقام، لكنه يتذكر رقم هاريداس فقط، لقد رسب هاريداس.

راح يصفر بفمه وهو يسير عائداً إلى البيت، شاعراً بأنه هزم العالم. لو فقط أوقفه أحد في الطريق وسأله؛ لقال الأخبار لكل من يسأل. عندما وصل إلى البيت، كان أخوه الأكبر، باراميسوارا، هناك. وكانت الأم في الشرفة تتحدث مع أبّان ناير الذي اشترى البيت فوق التل من التشيتس الذين يصنعون حلوى رقائق البابادامس. كان يحاول أن يقنع الأم بأن الحظ وحسن الطالع أهم كثيراً من التعليم. «لقد رسب ابن سيفايي بانكوني ناير في الصف العاشر، ألم يرسب؟ وهو غني جداً الآن. لو كان مكتوباً على جبينك حظ طيب، فلن تحتاجي النجاح في امتحان واحد».

كان باراميسوارا إيتان قد رسب في امتحان المدرسة المتوسطة ثلاث مرات، وعمل في البنك بالقرب من مكان زوجته الحالية، انتقل إيتان بعيداً إلى ركن الفناء، وكأنه لم يكن مهتما بحجج أبان ناير.

كانت الأم والخالة الصغرى تعرفان أن سيتو ذهب لمعرفة نتيجته. كان يتوقع أن تسرعا بسؤاله عندما يعود.

«أين كنت في هذا الوقت المبكر من الصباح؟» على الأقل فكر أبان ناير أن يسأله.

«ذهبت لأعرف نتيجة امتحاني».

«هل نجحت؟»

غمغم، متوترا: «نعم».

«هل حصلت على المركز الأول؟»

«لا أعرف. لم تأت قوائم الدرجات بعد».

جاء باراميسوارا إيتان إليهما ببطء، وهو يمزق ورقة مانجو إلى قطع

صغيرة. «هل أرسلت طلب التقديم لدخول الكلية؟»

أومأ برأسه، دون أن ينظر إلى باراميسوارا إيتان. في كل مرة كان يرسب فيها إيتان، كان يحدث مشهد في البيت. تدافع الأم عنه: «الموضوع لا يعني أنه غبي. أو أنه لم يجتهد بما يكفي. لكن طالعه يقول إن الوقت غير مناسب الآن».

دبّ سيتو بقدمه على الدرجات وهو يصعد السلم، وألقى قميصه، ثم نزل. وجرى إلى الخارج، صاعداً التل. من الواضح أن عائلته لم تكن تفكر في حقيقة أنه، سيتو مادهافان، قد نجح في الامتحان وأن ذلك يعتبر حدثا مهما.

عندما نزل من فوق التل، رأى أطفال الشيرومان يصطادون السرطانات عند القناة. كانت شجرة المانجو القديمة الخاصة بمجمع إلّام على وشك أن تقع في الحقل، فقد انحسرت الأرض عند جذورها بسبب الأمطار. عندما كانوا أطفالاً، أوني نامبوديري وسوميترا وسيتو، اعتادوا أن يأخذ كل منهم دوراً في الجلوس تحت الشجرة للإمساك بالمانجو عندما تقع، قبل أن يصل إليها الأولاد رعاة البقر. كان على الأطفال أن يعبروا من فوق السياج، ويقتنصوا الفاكهة، ثم يعودوا جرياً. فلو رآهم راغافا كوروب، صاحب الحقول، أو أحد عماله، فسوف ينالون توبيخاً عنيفاً.

«ماذا تفعل هنا يا سيتو؟»

سوميترا. كانت ترتدي بلوزة حريرية حمراء وموندو جديداً غير مبيض. وعندما رأت أن سيتو لاحظ ثيابها الجديدة، قالت: «ذهبت إلى المعبد هذا الصباح». كان معجون خشب الصندل الذي وضعته على

جبينها قد ذاب تقريباً في العرق.

سألها: «أين أنت ذاهبة؟»

«ذهبت لاقتراض فأس من رامان النجار، لكنه لم يكن هناك. والتعس الآخر رفض أن يعطيه لي».

بدت أطول، ربما لأن الموندو كان طويلاً، يغطي كعبيها. قالت له سوميترا إن المعبد كان شديد الازدحام، وكم آلمتاها عيناها بسبب النفخ على خشب النار أثناء طبخ أرز الجاجري.

«باراميسوارا إيتان هنا، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل سيعود اليوم؟»

لابد أن باراميسوارا إيتان والأم يناقشان مستقبله الآن.

«نعم». منذ تزوج باراميسوارا إيتان، نادراً ما كان يعود إلى البيت. ولم يمكث طوال الليل أبداً.

كان لون ذراعي سوميترا ورقبتها جميلاً للغاية. نظر إلى ذراعيه هو نفسه، كانا داكنين، تقريباً أسودين. وشعر بخجل شديد حتى لم يستطع الابتسام لسوميترا. كان يشعر بالحرج كلما رأى أسنانه الكبيرة والفراغات بينها في المرآة. ولم يكن يستطيع أن يحتفظ بشعره الشائك ممشطاً جيداً.

سارت سوميترا في طريقها كيفما اتفق، تمد ذراعها لقطف البذور من شجيرات الكونجيني على جانب الطريق. كان متأكداً أنها لم تكن مدركة لوجوده. لن يخرج مرة أخرى وقد ربط الموندو الذي يرتديه لأعلى كصبي صغير. من الواضح أنها لم تكن تراه شخصاً قد نجح

وتخطى الصف العاشر. لم يكن أحد يراه كذلك.

«سوف أغادر البلدة قريباً إلى مدينة بالغات، إلى الكلية».

عند منعطف الطريق، قالت سوميترا: «إنني ذاهبة للبحث عن عنزاتي». تسلقت الشجيرات متمسكة بها، واختفت داخل بستان المبوزيا. وقف في مكانه، غير واثق بالسبب الذي جعلها لا تنتبه عندما أخبرها أنه راحل. تبعها. وآلمته ساقاه حيث خدشتهما الأشواك. أسرع في سيره، محاولاً أن يصل إليها ولاحظ أثراً طويلاً لوخزة على ساقه.

وراء بستان المبوزيا يقف تل مغطى بالصخور. كان تلاً كبيراً ويمكن من فوق قمته رؤية ريف المنطقة بكامله. لم تكن سوميترا ظاهرة في أي مكان. نزل مرة أخرى وسمعها تنادي على العنزات.

بدأت الأمطار تتساقط رذاذاً خفيفاً. ثم استجمعت قوتها بينما نزل من على التل. جرى على الطريق واحتمى تحت دغل البامبو. لكن المطر كان ثقيلاً للغاية. احتمى تحت شجرة الساج الكبيرة، بدأت الأمطار تهطل بغزارة. سمع صوت أقدام تطرطش في المياه الموحلة وتتحرك نازلة التل. كانت هناك منطقة صغيرة محمية تحت كتلة من الأفرع الواقفة واضحة بعيدة عن النهر. جرت سوميترا نحوها، وهي تلعن المطر.

مسحت شعرها المبلل ووجهها، وقالت: «يا لها من فوضى. صار الموندو الذي أرتديه متسخا تماماً».

أغرقتها المياه، والتصقت بلوزتها المبللة بجلدها. وتظاهر بأنه لم يفطن عندما تمسّح ذراعاها المبللان بضلوعه.

وتسببت دفقة من الريح في تحريك أوراق الشجرة فوقهما، فأزاحت كمية من المياه كما لو صُب عليهما ملء قدر.

وازدادت الأمطار غزارة. نادته سوميترا ليتبعها وجرت نحو كهف صغير ظهر عندما حفروا هذا الجانب من التل لعمل طوب لإصلاح الطريق، وكانت العنزات قد لجأت إليه. دفعت العنزات خارجاً وزحفت هي داخله. تبعها سيتو، محاولاً أن يتجنب الخطو على روث الماعز. كان يمكن لو وقفا أن يصطدم رأساهما بسقف الكهف، كانت المياه مختلطة بالطين وقد اتخذت طريقاً على المنحدر فوق الكهف.

كان يمكنهما رؤية قطعة الأرض المزروعة بالفول في بستان المطبخ الخاص بمجمع إلّام، والحجر الضخم من هنا.

وقف بهدوء، وقلبه يخفق بسرعة.

قالت: «هل تتذكر أنك كنت خائفاً وتجري بعيداً عندما رأيت كونجان نامبوديري أثناء حرقه؟»

ابتسم. لماذا فكرت في هذا الآن؟

نظر إلى سوميترا من ركن عينه وهي مقعية على الأرض، تخربش على الطمي المبلل بغصن صغير. حاول أن يقترب منها، لكنها تحركت مبتعدة، وسألت: «لماذا تدفعني؟»

لم يجب، قال بنعومة شديدة: «إنك مبللة للغاية يا سوميترا». سحب إصبعه برقة على ظهر بلوزتها المبللة. لم تتحرك. وضع يده على كتفها، وخطر له أنه يشعر بها ترتعش. انزلق بيده اليسرى حول رقبتها، محاولاً أن يحتضنها، لكنها انتفضت واقفة. كانت عيناها واسعتين كالسماء، وكادتا أن تعميا عينيه.

«ماذا تفعل يا سيتو؟»

نهض واقفاً، وهو لا يزال ممسكا بها بعناد، مغمغماً بشيء مبهم. لم يجرؤ على النظر إليها. لمس رأسه الأرض المبللة فوقه. كانت رائحة العرق ممتزجة بخشب الصندل قوية في أنفه.

كانت تلك لحظة انتصاره. أصبح جسدها المقاوم يرقد هادئاً بين ذراعيه، اللذين اكتسبا قوة فجأة. وارتاح وجهها ملتصقاً برقبته. وتعاقبت موجات من الحرارة والبرودة مخترقة جسده وهو يبتعد عنها.

سيتو القديم مرة أخرى، نظر جيداً إلى وجهها ولم يصدق ما رآه. كانت هناك ابتسامة ناعمة ندية في عينيها اللتين كانتا منذ قليل تقدحانِ نارا، وبدلاً من الارتعاد غضباً، كانت شفتاها ترتعشان خجلاً.

وقفا هنا يستمعان إلى صوت المطر يتناقص.

«توقف المطر». عبرت إلى الطريق وجرت مبتعدة. تلكأ سيتو، محاولاً أن يحتفظ بعبق خشب الصندل.

عندما سار إلى البيت تحت رذاذ خفيف، كان يشعر أن قلبه يكاد يطفر بالفرحة مثل حقل فاض من أمطار شهر تولام.

سألت الأم: «أين كنت؟»

لم يجب. أراد أن يقول للعالم كله، أنا، سيتو، احتضنت سوميترا اليوم.

لم تكن حقيبة باراميسوارا إيتان موجودة بالطابق العلوي. لابد أنه ذهب.

لم يجد صعوبة في قضاء الأيام الحارة الطويلة وهو ينتظر وصول بطاقة المقابلة لدخول الكلية. بدأ يرهف أذنيه ليسمع صوت سوميترا.

كان يجلس بجوار السياج في الطابق العلوي، وينادي بصوت ناعم عندما يراها عابرة. كانت تقف في الفناء، وترفع رأسها لتنظر إليه.

كان يشعر بخجل شديد إذا حادثها أمام الآخرين.

والآن، هو على وشك الرحيل.

تم تنظيف صندوق الصفيح القديم بقطعة قماش مضمخة بالكيروسين، ووضع فيه أربعة قمصان، وأربعة أردية موندو. كان اثنان من القمصان فُصلا له وهو في الصف الثامن، مصنوعين من قماش خشن وسميك، مخطط، يذكره بأكياس المخدات، كانا يبدوان وكأنهما لن يصيبهما البلى أبداً.

في اليوم السابق جاء باراميسوارا إيتان. لن يستطيع الذهاب مع سيتو، فلم يستطع الحصول على إجازة. سوف يأخذه الخال مادهافا. وفكر سيتو في نفسه أن باراميسوارا إيتان كان قد ذهب وحده إلى الكلية.

أرسل الأب مئة روبية. وكان باراميسوارا إيتان قد حسب أنهم سوف يحتاجون خمسين روبية أخرى. واقترح الخال مادهافا أن يطلبوا من كونهاتول. كانوا قد باعوا لتوهم بعض الأرز وربما يكون لديها نقود. ولن ترفض إذا طلبوا.

سمع صوت سوميترا في الخارج. أغلق صندوقه وتطلع من النافذة. دارت حول ركن البيت واختفت عن نظره. انتظر حتى عادت وهمس: «شش».

ظللت بيدها على وجهها من الشمس، وبدت مائلة وهي تنظر إليه. «تعالي هنا».

«لماذا؟» كان صوتها ناعماً، ولكنه فكر أنها بدت متوترة.

«تعالي».

نظرت حولها متشككة.

نادى بصوت مرتفع: «سوميترا، نشرت فوطتي على ذلك الحائط. انظري إن كانت قد جفت».

«نعم، جفت». ارتعش صوتها.

«هاتيها هنا».

صوت وقع أقدامها على السلم أرسل رعشة سرت في أوصاله. وتتابعت دقات قلبه بسرعة وهي تدخل إلى الغرفة.

«متى سترحل، يا سيتو؟»

«في قطار الصباح الباكر». وضع يده على كتفها وقال: «اجلسي».

«لا، سأقف».

«اجلسي، من فضلك». أمسك بيديها، وأجلسها. ارتعشت بشدة. وشعر بعقله يرتج كأنما يمزقه إعصار.

«لا، لا».

لم يعرها أي انتباه.

«سيتو!»

لأول مرة في حياته، نسي أن يكون خجولا. كانت سوميترا تتلوى في قبضته بينما كانت أصابعه المشتعلة تجري على لحمها عند وسطها، بنعومة كساق شجرة الموز.

استمع إليها تنزل على السلم، وسمع صوتها خارج المطبخ، ونهض ببطء. آثار الزيت الذي تضمخ به شعرها ظاهرة في أشكال باهتة

على الأرضية ذات اللون الأصفر الغامق. كتب حروف اسمه الأولى بإصبعه وسطها: بي، كيه، إس.

ذهب إلى النافذة بينما كان صوت خطوها يخفت تدريجياً.

ليس لأحد الحق في أن يلمس سوميترا الآن.

أنا فقط أستطيع أن ألمسها.

أنا، سيتو.

القسم الثاني

1

كان البيت الصغير مكوناً من طابقين، وست عشرة غرفة، ولم يتحول إلى سكن للطلبة إلا مؤخراً. كان المبنى الرئيس مقصوراً على الطلبة الكبار. وكان هناك مبنيان آخران على مسافة بعيدة من الكلية. شعر سيتو بالسرور عندما قال العميد إنه سيعطيه غرفة في بيت للطلبة يُسمى «بريماكومار». كان مكاناً متداعياً، وكانت الأرضية دائماً مغطاة بأتربة تنثرها عجلات السيارات المارة مزمجرة في كلا الاتجاهين. مع ذلك، أثار الاسم خياله وحرك في عقله عبقاً كان مستكيناً داخله طويلاً.

من كان بريماكومار؟ لا أحد يعرف، ولا حتى الحارس العجوز ناجو. كان أصحاب البيت يعيشون في مكان بعيد.

عندما تلف سيارات نقل الخشب القادمة من مانارغات حول الناصية، كانت الضوضاء الناتجة عن انزلاق العجلات وخشخشة الفرامل توقظ سيتو من النوم فجأة. كان هذا المكان يوماً بيت شخص ما، ولابد أن بريماكومار كان ابن العائلة. فهل كان يستيقظ بهذه الطريقة أيضاً عندما تزأر الشاحنات وهي مارة، وحاول أن يستدعي صورة فتاة صغيرة، وقد تلألأت في وجهها حبات العرق؟

في الغسق، كان الطلبة يقفون في الشرفة وينظرون إلى الشارع،

الوريد النابض للمدينة. سأل سيتو نفسه، هل هذه حقاً المدينة التي كان يحلم بها، وهو راقد على حافة النافذة في البيت؟ في الليل، عندما كان الشارع خالياً وتظل دوائر صفراء من الضوء تحيط بأعمدة النور، كان سيتو يحب أن يحدق إلى مفارق الطرق، وقد التفت بضباب أشبه بالحلم.

في المساء، بعد الدراسة، لم يكن يُسمح للطلاب بالخروج إلى الشرفة. وعلى رغم ذلك، كانوا يتجمعون هناك لمراقبة البنات أثناء مرورهن في الطريق. كانت الدراجات والعربات التي تجرها الجياد تمر، تملأ الطريق بالألوان. ويقف الشبان يدخنون خلف الأعمدة الدائرية، في رجاء أن تنظر فتاة إلى الأعلى ولو للحظة واحدة.

لم يكن سيتو يذهب أبداً إلى الشرفة إلا إن كانت خالية. كان يشعر بالحرج من لقاء طلبة يمكن أن يعرفوه.

وعندما وصل منذ شهرين، أُطلق عليه اسم «الحَلَق»، لأنه كان الصبي الوحيد الذي يضع قرطاً في أذنيه. كان يضع هذا القرط الصغير بحجريه الأحمرين منذ نعومة أظفاره حتى أنه لا يذكر متى وضع له، ولم يتخيل أبداً أنه سيكون ضده. في أحد أيام الآحاد، اندفعت مجموعة من الأولاد داخلين من مبنى السكن الرئيسي حاملين أقداحا من الماء المخلوط بالسناج. حذره أحدهم: «الطلبة في السنوات العليا سوف يجعلون منا حمقى». سحبوا بعض الأولاد إلى الحائط. وراحوا يفتحون الأبواب المغلقة بركلات أقدامهم. لم يفهم سيتو لماذا كل هذا. وأصيب بالهلع وجرى إلى بيت العميد. كانت أنفاسه متلاحقة وهو يقول: «الطلبة الكبار يهاجمون سكننا». عندما سأله العميد عن أسماء، أعطاه

أسماءهم. وحاول ألا يبدو عليه الشعور بالألم عندما قال له العميد ببرود إنه سينظر في الأمر.

أطال مكوثه بالخارج أطول وقت ممكن. وعندما وصل إلى السكن أخيراً، كان كل شيء يبدو هادئاً في الظاهر. لكن زميله في الغرفة قال: «إنهم يعرفون». لقد خانهم الصبي الذي يضع قرطاً بحجرين أحمرين. خلع القرط وأخفاه بمساعدة سوامي في قاع صندوقه. حاول أن يقنع نفسه بأن لا أحد سوف يعرفه، لكنهم جاؤوا يطلبونه في الليل. خلعوا عنه ثيابه، وعلقوا حبلا من «الشباشب» حول رقبته وحملوه في موكب حول الغرف. لم يبك أو يصرخ حتى تركوه. كان الألم في حلقه يزداد حتى أصبح ورماً يخنقه.

ربما نسيه الأولاد الواقفون في الشرفة الآن. لكنه كان متردداً في مواجهتهم على أية حال.

يبعد سكن البنات قرابة مائتي متر. ويمكن رؤية اثنتين من نوافذ طابقه الأعلى بالقرب من الأعمدة الدائرية الثلاثة في الشرفة. كانت الظلال تتحرك خلف الستائر الصفراء في الليل. وما أن ينهي العميد جولاته المسائية، حتى يتجمع الأولاد خارج غرفة سيتو لينظروا إليها.

ظل امرأة.

ماليني؟ لا، إنها ليلافاتي.

تراهن؟

من يمكن أن يكتشف؟

وخطرت فكرة لبالاكريشنان الذي من بايانور. كان يستنفد كل ليلة صندوقاً كاملاً من الألعاب النارية البنغالية حتى يمكن رؤية وجه

ماليني، الظل خلف الستارة الصفراء، في أضوائها.

بالاكريشنان، وجاناباثي، وسيفاسانكاران، شكل الثلاثة مجموعة صغيرة. كانوا يرتقون الأسوار ليلا للذهاب إلى السينما، ويطاردون الفتيات على الدراجات، ويدخنون. لم يكن سيتو يتحمل تكلفة هذا الترف، ومن ثم ظل متحفظاً وقرر أن يكون طيباً.

زميله في الغرفة، سوامي، كان ابن تاجر ثري. لكن سوامي كان حريصاً للغاية في إنفاق النقود، وكان يكتب حسابات دقيقة عن إنفاقه في مذكرة جيب صغيرة. حاول سيفاسانكاران طوال أسبوع كامل أن يدفع سوامي لدعوته على كوب من الشاي. ونجح في النهاية، وكتب سوامي في مذكرته، وهو يغمغم غاضباً لنفسه، أنّة واحدة.... صدقة.

كان سيتو يتلقى في اليوم الثاني من كل شهر ستين روبية. وبعد أن يدفع أجرة السكن والغسيل، كان ما يتبقى معه لا يكاد يصل إلى عشر روبيات ليعيش عليها طوال الشهر. كان يكتب لأقاربه دون أن يشير إلى النقود إشارة فعلية. العزيز سانكارانكوتي إيتان، أرجو أن تكون بخير حال. التحقت بالكلية في يونيو، وأسكن في بيت الطلبة. لو فقط يرسل أي منهم بعض النقود له. عبروا جميعاً عن سعادتهم لمعرفة أنه بالكلية، وبعضهم كتب إليه يقول ذلك فعلاً. ولكن هذا كل شيء.

في أحد أيام السبت، بينما كان نازلاً، سمع صوت خادم المسكن، راماكريشنان، يتبادل الحديث مع شخص ما. واحتشدت مجموعة من الطلبة بالقرب من البوابة حول امرأة ذابلة ترتدي أسمالا. كانت تحمل طفلاً قذرا، داكن البشرة، على صدرها. راح الأولاد يتغامزون بإيماءات ذات مغزى وهي ترضع الطفل دون خجل، تحتضنه وهو

يمتص حلمتها الذابلة وتتحدث طوال الوقت مع راماكريشنان.

كانت من كوزينجامبارا، وكانت لغتها المالايالامية بها لكنة التاميل. كانت قد سارت بالفعل تسعة أميال بحثاً عن والد طفلها. ذهبت إلى الورشة التي ذكرها لها، أخبروها أنه لا يوجد شخص بهذا الاسم يعمل هناك.

فجأة فكر في بطلات القصص التي كان يستعيرها من هاريداسان.

يا إلهي، سوميترا!

قولي لنا، يا تعسة، سوف نجعلك تخبرينا.

ألن تعترفي؟ أيتها الساقطة! لن تفعلي؟

ماذا لو ربطتها العمة في العمود وجلدتها، لتجعلها تخبرهم؟ سرت في جسده قشعريرة. وراح عقله يشرد بينما يحاول الدراسة.

تمتع رجال عائلة بادينجارا كالاتيل دائماً بسمعة ممتازة. وكان سيتو شديد الهدوء، شديد الذكاء. مع ذلك، فقد فعل هذا!

كان سوامي يدرس كل ليلة ساعتين، من الثامنة إلى العاشرة. ثم يدفع المنضدتين الصغيرتين اللتين يدرسان عليهما معاً، ويعلق ناموسية عليهما، ويربط أطرافها إلى مسامير في الحائط، ويؤدي صلواته، ثم يرقد على هذا السرير المرتجل. وعادة يستيقظ في الخامسة. أما سيتو فكان ينام متأخرا، ولم يكن يستيقظ أبداً قبل السابعة.

استطاع الأولاد في السكن أن يجمعوا روبية كاملة للمرأة من كوزينجامبارا، ساهم فيها سوامي بأنّة واحدة. وبينما يكتب الحساب في الليل، قال: «تبحث عنه في الورشة، حقاً! هذه كذبة. كان ينبغي أن تعاقب على سفاهتها».

لم يقل سيتو شيئاً. وبمجرد أن ذهب سوامي في النوم، فرد فرشته على الأرض، وأطفأ النور. حاول ألا يفكر في سوميترا. سمع زئير الشاحنات على الطريق وهي تقترب ثم وهي تبتعد وينحسر الصوت تدريجياً.

فكر في تلك المرة، عندما تجمع القرويون حول الصهريج حيث كانت جثة امرأة من طائفة الشيرومي قد وجدت طافية. كان في الصف الرابع في ذلك الوقت. وعندما استغرق في النوم رأى في الحلم الصهريج المتهدم وقد أحاطت به شجيرات البندانوس، على حافة الحقل، والجثة طافية فيه. استيقظ مفزوعاً وتساءل كم كانت الساعة. كان جسده غارقاً في عرق غزير، وكان يسمع وجيب قلبه يتسارع بعنف. وكانت أضواء الشارع تومض من خلال قضبان النافذة الحديدية.

حاول أن يمحو سوميترا من عقله وأن يفكر في كل الفتيات في صفه. كانت معظمهن بالغات. وكانت أصغرهن شيامالا ناير، لا تزال ترتدي تنورة. لاحظها في اليوم الأول، عندما نوديت الأسماء لتسجيل الحضور.

ثلاثمئة وستين – سيتو مادهافان.

سافيتري، إم.

سافيتري، بي آر.

سوماسوندارام

شيامالا ناير. عينان لامعتان كبيرتان تهيمنان على الوجه الصغير.

كان الأولاد يتحدثون بحيوية عند عودتهم من الحصة. وحدقت ماليني في كونهي كريشنان طوال الوقت. أما ناليني فكانت تبتسم

دائماً لتشاندران. وكانت أتشاما تضحك عندما يقول راجان شيئاً يثير الضحك. لم يذكر أحد شيامالا. دعا سيتو في داخله. الرغبات المخبوءة يمكن أن تتحول إلى دعوات. لو حدث أن لاحظني أي شخص، فلتكن شيامالا. أراد أن تنظر عيناها الكبيرتان ناحيته مرة، ولو مرة.

في اليوم الذي جاءت فيه حوالة النقود لسيفاسانكاران، دعا سيتو إلى قهوة. رفض سوامي أن يذهب معهما، ومن ثم لم يكن هناك سوى ثلاثة، سيفاسانكاران، وبرابهاكاران، وسيتو. كان سيفاسانكاران يحب أن يأكل برياني مرة كل أسبوع. كان لاعب كرة قدم، ويعتقد في أهمية بناء الجسد.

ذهبوا إلى مقهى مدراس. قال سيتو إنه لا يريد برياني أو لحماً.

«هل أنت نباتي؟»

«نعم». كان كاذباً. سوف يدفع سيفاسانكاران اليوم، لكن سيتو لابد أن يدفع الحساب في الأسبوع التالي.

عندما كان في المدرسة العليا، كان ريقه يجري عندما يرى اللحم يقدم في فندق بالان ناير. كان طبق من لحم الضأن مع الوجبة يكلف أربع آنّات زيادة على الحساب. كان الرجل العجوز البدين الذي يبيع الحصير في السوق المحلية في أيام الأربعاء يطلب طبقين لنفسه. وكان سيتو يراقب العجوز بحسد. يسيل اللعاب في فمه كل مرة يفكر في طعم جوز الهند المقلي ورائحته في الزيت المستخدم لطبخ الدجاج المذبوح قرباناً لبهافانسواري.

سيطر على نفسه، قائلاً: «شاي فقط لي».

جلسوا في إحدى المقصورات المحاطة بألواح زجاجية باهتة.

أعطى سيفاسانكاران طلب الطعام، وذهب ليغسل يديه. جاء وهمس، «شيامالا ناير في المقصورة المجاورة».

«من أيضاً؟»

«أناس آخرون كثيرون».

قال برابهاكاران: «أبوها محام».

لعن سيتو سيفاسانكاران لأنه يأكل بهذا البطء وبمثل هذا الاستمتاع. كان يريد أن يكون بالخارج عندما تغادر شيامالا، أرادها أن تراه وهو يغادر مقهى مدراس.

سمعوا أصوات الأولاد في المقصورة المجاورة.

دفع سيفاسانكاران الحساب، واشترى لنفسه سيجارة وسأل برابهاكاران إن كان يريد واحدة. تردد برابهاكاران، ثم اشترى واحدة أيضاً.

«لا داعي لسؤال سيتو».

«لكني أريد واحدة». تحدث سيتو بثقة، ولكنه شعر أن سيفاسانكاران لم يصدقه. ذهب سيتو إلى الشارع، يبصق دخان السيجارة الذي لم يستطع أن يبتلعه، ورأى شيامالا تغادر مع رفاقها. ربما كانوا أقاربها. دخلوا في سيارة واقفة بالقرب من مصباح الشارع. وقاد السيارة رجل بدين يضع نظارة. ولم ينظر أحد منهم إلى الأولاد.

راح سيتو يسعل ويغمغم، ولكنه لم يلق سيجارته. في السكن، سأل أحدهم أين كانوا.

«في المدينة».

«للتسوق؟»

قال سيفاسانكاران «لا. ذهبنا إلى مقهى مدراس». وكان سيتو فخوراً بأن يكون جزءاً من المجموعة.

سأله سوامي في الليل: «إذن فأنت تدخن؟»

«لا».

«كاذب. رائحة السجائر تنبعث منك».

اعترف، شاعراً بالحرج: «لقد دخنت واحدة. ولكني لن أجعل منها عادة».

كان سوامي يرى سيتو شخصاً جاداً لأنه يقضي وقت فراغه في المكتبة ولم يكن له أصدقاء سوء ولا يستخدم لغة سيئة. ولكن ماذا قد يقول سوامي والآخرون إذا عرفوا ماذا يمكن أن يحدث عندما يعود إلى البيت؟

رقد مستيقظاً في الليل، لاعناً نفسه. لم يفكر في أي شيء مثل هذا عندما صعدت سوميترا إلى غرفته. كيف يستطيع أن يعرف هل يمكن لمن في السادسة عشرة من عمره أن يكون أباً لطفل؟ من يستطيع أن يسأل؟

بعد أسبوع، جاءته رسالة من باراميسوارا إيتان. في ظرف. من النادر أن يكتب باراميسوارا إيتان رسائل. هل كتبت له الأم، و...؟ ذهب إلى الركن المهجور من الشرفة وفتح الرسالة بيدين مرتعشتين. آه، يا إلهي، سامحني هذه المرة الوحيدة. لن أفعل ذلك مرة أخرى. سامحني على هذا الإثم الذي ارتكبته!

تنفس الصعداء عندما انتهى من القراءة. وهدأ قلبه، ذلك الهدوء الذي يعقب إعصاراً عنيفاً. كانت الرسالة حول نقود الشهر التالي. لم

يكن الأب يستطيع أن يدفع سوى ستين روبية. فهل يمكنه أن يسأل في المكتب إن كان يستطيع أن يدفع النقود في قسطين؟ أتمنى أن أراك في عيد القديس مايكل.

بالطبع كانوا يعرفون. وكانوا ينتظرون الوصول إليه عندما يعود إلى البيت في عيد القديس مايكل.

شعر بالأسف لأنه كان بهذا الغباء. ما أسخف أن يفكر أن كل الجمال في العالم يتمثل في سوميترا. لقد اكتشف الآن كم كان مخطئاً عندما رأى فتنة الألوان التي انتشرت على شرفة قاعة المبنى الكبير.

2

في هذا العام توافق عيد الأونام مع يوم القديس مايكل. وقرر سوامي أن يأخذ صندوقه في سفره إلى بلدته، ومن ثم استطاع سيتو أن يقترض حقيبته الجلدية. ووضع فيها قمصاناً مغسولة حديثاً، وأردية الموندو، وكتباً قليلة. وغادر في يوم الجمعة ليلاً بينما كان الآخرون لا يزالون يحتفلون ببداية إجازة الأسبوعين. كانت أول مرة يعودون إلى بيوتهم بعد التحاقهم بالكلية.

تظاهر سيتو بالضحك والمرح مع أصدقائه. ولعب معهم لعبة الكيرم، ودخن سجائر كانت تعطى لهم بعد الاحتفال. وطوال الوقت، كان يتساءل في نفسه: ماذا سوف يحدث عندما يصل إلى البيت في الصباح. جلس مع الآخرين ليخفي قلقه، خائفاً من أن يكون وحده.

ربما لن أعود.

سوف يذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد. لقد تعب من الهرب من الوجوه المألوفة.

عندما ارتكب الإنسان الخطيئة أول مرة، كان مدفوعاً إليها بسبب الأفعى. عندما نظر إلى الخارج من خلال السور وهو في الطابق العلوي، كانت الأفعى ناشرة مروحتها في فضاء عقله. وبينما وقف على رصيف المحطة غير المغطى، والمفتوح أمام الرياح الثلجية التي اندفعت من طريق الجبال الغربية، لم يستطع الهروب من التفكير في قصة الإنجيل.

وتخيل نفسه يقوم بدور بطولي. لا تلمسيها. إنه خطئي، يا عمة.

أنت!

نعم، أنا. سوف يذهب إليها وهي واقفة ورأسها محني، والدموع تجري على وجنتيها. سوف يمسك يدها ويقودها إلى العالم العظيم الواسع. سوف يقول لها في قلبه، حتى تسمعه هي وحدها، سوف أكون دائماً معك.

ولكنه لابد أن يفكر في أخيه الأكبر، باراميسوارا، أو أبيه، في وجه كل منهما، وكان هذا كافياً لجعل الصورة البراقة تذوب في الظلام كطريق لا تستطيع أن تراه إلا أثناء ومضة من البرق.

رن جرس. وفجأة أصبح الرصيف في حالة حيوية. كان بعض الطلبة ذاهبين إلى أماكن بعيدة للغاية، مثل كاساراجود. كانوا يصفرون، ويدخنون، ويتحدثون بصوت عال بلغة خليط من الإنجليزية والمالايالامية، وهي التي تدل على أنهم طلبة.

شعر سيتو بالانقباض من الازدحام والتدافع والاحتكاك في

القطار. كان الراكبون يزعقون في المتأخرين في القدوم، كان أولئك الذين جاؤوا مبكراً وضمنوا لأنفسهم مقاعد جيدة مسرورين من أنفسهم. راح الناس يلعنون وهم يتدافعون ويتعثرون بصناديق الحديد الموضوعة بينهم وفي طريقهم.

تمكن راغافان نامبيار القادم من كانانور أن يضمن بضعة مقاعد عن طريق نشر فوطة كبيرة عليها. ودعا سيتو لمشاركته في أحدها. وأقعى عجوز بالقرب من باب الحمام. تظاهر سيتو بأنه لا يرى المرأة الواقفة بجواره، وهو ينحني على النافذة، وأمل ألا يكون قريباً من المكان أحد ممن درس قصيدة «الفروسية» في فصله.

ظلت صور غريبة تسير مع إيقاع القطار. كان الهواء مليئاً برائحة قديمة من العرق الممتزج بدخان السجائر البيدي وأنفاس البشر. استطاع بالاكريشنان القادم من بايانور أن ينحشر بين الأقفاص المصنوعة من القش والصناديق المعدنية على الرف المعدني فوق سيتو. وظل يتحدث مع نامبيار حتى وقت متأخر من الليل.

ظل القطار يخفق ويلهث طوال طريقه في الظلام مثل حيوان زاحف عملاق. راقب سيتو شرارات تطير عبر النافذة وتذوب في ظلمة الليل. المرأة التي رآها قبلاً كانت نائمة على الأرض المبللة القذرة التي بُعثر عليها قشر البرتقال. وتأرجح الظل الزجاجي لمصباح مرتعش. وراح يراقب فراشات العثة التي تطير حول المصباح.

سوف يصل القطار إلى المحطة في الخامسة والنصف. حاول أن يرى نفسه رجلاً شاباً يعود إلى قريته من المدينة التي تبعد خمسة وأربعين ميلاً.

كان رصيف المحطة مهجوراً، تحت الضوء المغبش لمصابيح الكيروسين الغائمة الزجاج. كان من حسن حظه أن لا أحد من أصدقائه قد استيقظ. فربما سألوه عن عنوانه. لم يكن يحتمل فكرة أن يمر أحدهم به. فهو لا يزال يذكر التجربة المخجلة لزيارة هاريداسان منذ وقت طويل.

انتظر على الدكة الإسمنتية حتى تراجع الظلام أمام ضوء النهار، وهو يشعر برغبة شديدة في النوم.

عرفه مراكبي العبارة. «عائد في إجازة من المدرسة؟»

لم يتجشم مشقة شرح الفرق بين الكلية والمدرسة.

كان القارب الأول في اليوم، وكان مليئاً بالباعة الذين جاؤوا لبيع بضائعهم في السوق المحلي. وشعر بالارتياح لأن أحداً لا يعرفه. عند رحلة العودة كان هو الراكب الوحيد. وشعر بالنسيم بارداً. والحقول ممتدة بانتظار الحصاد الوشيك.

بدأت دقات قلبه تتسارع عندما اقترب من البيت. استجمع كل ما لديه من الشجاعة لكي يدخل. كانت الشيرومي العجوز تكنس الفناء. وكانت الأم جالسة في الشرفة، تمشط خصلات شعرها وتضفره، وإلى جوارها صندوق التنبول الخاص بها. وجلس الخال مادهافا على الدرجات، ينظف أسنانه. كانت سجادة الزهور التي فُرشت في اليوم السابق بمناسبة عيد أونام قد ذابت في روث البقر وبقِيَت الزهور مبعثرة في قذارة تبعث على الغثيان.

وضع حقيبته، خائفاً من النظر إلى أمه. كان متأكداً أنها سوف تنفجر. هل هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة؟

«كم يوماً إجازتك؟»

ساعد النسيم العليل الذي يهب على الحقول أيضاً على تهدئة أفكاره. جلس على إفريز الشرفة، وتنفس بشكل طبيعي، وقال: «أسبوعان».

سمع صوت حوافر الماعز. «من هنا، أيها الصغير، وإلا..». صوت سوميترا. كانت ترعى الماعز وتسوقها عبر الفناء الغربي، ولم تلحظ سيتو إلا بعد أن أصبحت خارج المنزل. جاءت وهي تبتسم.

شدت سوميترا النهاية المقلوبة لثوب الموندو من وسطها، وسألت: «هل وصلت لتوك يا سيتو؟» لم تكن تبدو تلك البطلة النادمة التي تخيلها. بل كانت هي نفس سوميترا التي رآها في يونيو. لكنها بدت مترددة بشكل غير معتاد في أن تلتقي نظراتهما. وقالت للأم:

«ألم تزد قامة سيتو طولاً؟»

ابتسم سيتو. كان متأكداً أنها لاحظت ياقته، التي لا تزال منشاة بعد رحلة الليل، وأساور قميصه، المثنية حتى مرفقيه. ولكي يقول شيئاً، سأل متى حصل عيد أونام.

قالت الأم: «يوم الجمعة. كتب لنا باراميسواران قائلاً إنه سيذهب إلى الجنوب». إلى بلدة زوجته، بالطبع.

«لم نحصد بعد. لا أعرف كيف سنجد النقود للاحتفال بأونام. نحن أنفسنا يمكن أن نعيش بدون عيد، ولكن علينا أن نطعم العمال من طائفة الشيرومان وعائلاتهم في اليوم التالي لأونام. كيف نستطيع أن نتخلى عن عادات كهذه؟ يا مادهافان». التفتت الأم إلى الخال مادهافا الذي كان يثير جلبة وهو ينظف أسنانه على الجانب الآخر من الشرفة. شعر سيتو بالاشمئزاز، فأخذ حقيبته وصعد للطابق الأعلى.

عند الباب، نظر خلفه. كانت عينا سوميترا تتابعانه.

3

غادر باراميسوارا إيتان بعد غداء عيد أونام على الفور. كان قد جاء في حافلة الصباح. قالت الأم غاضبة: «الأبله، لا يستطيع البقاء بعيداً عنها دقيقة واحدة».

كان يستطيع وهو راقد بالطابق العلوي أن يسمع أغنيات أوناكالي[1] تنبعث من مجمع إلّام. لم يكن قد خلع قميصه بعد الغداء برغم أنه كان يتصبب عرقاً. في اليوم التالي لقدومه، نهرته الأم لارتداء القميص في البيت، لكنه لم يعرها انتباها. ولم تعدِ للإشارة إلى ذلك بعدها.

حاول أن يصفر نغمة بفمه،

«تشالي جانا نهي نابنا ميلاكي».

كان قد شاهد فيلما واحداً في الأشهر الثلاثة التي قضاها في الكلية. «بادي باهن». اعتاد كونهي كريشنان أن يصفر بعض أغنيات هذا الفيلم. وكان كونهي كريشنان قد رأى فيلم «فازجاي» تسع مرات. وسرق ملصقا ورقيا للممثلة «فيجاي أنثيمالا»[2] من مكان ما في البلدة، وعلقه في غرفته. كان يريد أن ينظر إلى وجهها أول شيء في الصباح وآخر شيء في المساء.

رأى سيتو العمة وديفو تذهبان إلى مجمع إلّام قبل ذلك في المساء.

---

(1) «أونام»، مهرجان قومي يُحتفل به في كيرالا على مدى 10 أيام، وتعتبر أغنيات ورقصات «أوناكالي» بعض المظاهر التقليدية لهذا المهرجان. [المترجمة]

(2) فيجاي أنتيمالا Vyjayanthimala: ممثلة هندية من الجنوب، برعت أيضاً كراقصة وممثلة، ومن أشهر أفلامها سانجام وديفداس، كانت أيضاً نائبة برلمانية. [المترجمة]

في الأيام الخوالي، كانت كونهاتول تعلم النساء أغنيات ورقصات أوناكالي. الأم، والخالة الصغرى، والعمة، كلهن كن يذهبن إليها وهن صغيرات. ولا تزال كونهاتول تدعو الأطفال في الحي للرقص في عيد أونام وفي مهرجان تيروفاتيرا. كانت تعطي البالغات أوراق التنبول ولبناً رائباً. وفي الماضي، كان كل من يذهب إلى مجمع إلّام أثناء فصل أونام يبقى حتى المأدبة، وكان الناس يأتون من أماكن على مبعدة تصل إلى خمسة أميال. قال الخال مادهافا إنه ما دامت كونهاتول تعتمد الآن على طيبة المستأجر، جوفيندان، للحصول على معاشها السنوي، لم يعد الناس يهتمون بالحضور من مسافة طويلة ليحصلوا فقط على أوراق التنبول واللبن الرائب. لكن كلما اقترب أونام، كانت كونهاتول لا تزال تطلب من كل من تقابلهم أن يحضروا إلى مجمع إلّام.

رأى سيتو بريقاً أبيض يتحرك حول الركن، بالقرب من الطريق إلى مجمع إلّام. نعم، كانت سوميترا.

أسرع ينزل، وسار بلا هدف حول الفناء تحت الشمس الحارة. زعم لنفسه أنه لم يكن يريد سوميترا أن تراه.

مال الخال مادهافا على العمود، يدخن سيجارة بيدي الرخيصة. خرجت الخالة الصغرى. «أين أنت أيتها الفتاة التعسة؟ سوف تصاب بالحمى الآن، وهي تجري هكذا في الشمس بعد أن أخذت حمام زيت». كان سيتو قد رأى بادمو تجري نحو مجمّع إلّام، لكنه لم يقل شيئاً.

صعد إلى الطابق الأعلى، ورأى سوميترا مارة. ربما كانت في طريقها إلى مجمّع إلّام. توقفت تحت شجرة النيم ونظرت إلى الأعلى. كانت ترتدي موندو غير مبيض بحاشية سوداء. وكان وجهها متورداً. وبدت

بلوزتها ذات الزهور الزرقاء ضيقة جداً عليها. هل ازداد جسدها طولاً منذ الأمس؟

كان الخال مادهافا يقدم الطعام للمراكبي العجوز من طائفة المابيلا. ويمكن أن تكون الأم هناك أيضاً. وبرغم ذلك، أشار ببرود إلى سوميترا. ابتسمت في ضوء الشمس، وسارت نحو سياج مجمع إلّام.

شعر بالنعاس. ولكن ماذا لو فاته أن يرى سوميترا عندما تعود؟

من كان ذلك القادم من خلال بستان الموز نحو السياج؟ نعم، إنها سوميترا. نظرت مباشرة إلى سور الشرفة، ابتسمت وسارت في طريقها بسرعة. سألها الخال مادهافا، «لماذا عدت يا سوميترا؟»

«القرع المُرّ متروك بالخارج ليجف في الفناء، وليس هناك أحد بالبيت».

في الحال طار النوم من عيني سيتو. لم يكن هناك أحد في فاداكيتو. انطلق إلى بستان نخيل الأريكا وكأنه كان ذاهباً في نزهة ليتمشى في الحي. عندما وصل إلى السياج المكسور خارج فاداكيتو، نظر حوله ليتأكد من أن أحداً لا يراه. كان الفناء مهجوراً، تنحنح ودخل. كانت سوميترا بالقرب من حوض الفول، شعرها منثور على كتفيها.

«أين العمة يا سوميترا؟» كان صوته خشناً.

«إنهم جميعاً في مجمّع إلّام. لقد عدت لأن القرع المر متروك بالخارج ليجف».

صعد إلى الشرفة.

«هل أحضر لك موزاً وشيبس يا سيتو؟»

«لا». دخلت إلى البيت، وتبعها. كان الظلام شديداً. لم يستطع أن

يرى شيئاً، وهو يدخل من ضوء الشمس الساطع. انتظر، محاولاً أن يعتاد الظلام. فتحت سوميترا باب الغرفة الجنوبية، وفاجأه صوت خشخشة المزلاج وهو يتحرك.

كان يرجو أن لا يراه أحد الآن، ذلك أن سيتو، في نظر الجميع، شخص طيب جداً، لم يدخن البيدي أبداً، ولم يذهب إلى المقاهي.

دخل الضوء إلى الغرفة الصغيرة مرشحاً من خلال القضبان الدائرية على إفريز النافذة. كومت أفرشة قديمة على السرير الخفيف. وكان هناك صندوق كبير على الأرض. وتدلى من السقف قدر فخاري. وامتلأت الغرفة بعبق البخور الممتزج برائحة الملابس البالية، المتسخة بالزيت.

وقفا متقاربين، لا يتكلمان. عندما أغلقت النافذة، أصبح المكان غارقا في ظلام معتم. أصدرت الثياب المنشاة خشخشة أثناء خلعها. وشعر بأن وعيه يتداعى تحت خليط من روائح العرق، وخشب الصندل، والكافور المذاب.

«من ذاك؟» فاجأه صوت سوميترا المذعور. كان شخص يتنحنح بالخارج. ضغطت بأصابعها على ذراعيه المرتعشين، وقامت. رقد نصف غائب عن الوعي، عيناه مغلقتان. وملأت أذنيه أصوات أزيز، كطنين النحل.

عادت سوميترا باسمة.

«لقد كان مادهافاتان. أراد الدلو».

«هل ذهب؟»

«نعم».

ابتسم برعونة وهو يخرج إلى ضوء الشمس الأصفر المتوهج. ابتسمت له ابتسامة تحمل طيفاً من التهكم.

«سوف يستمر هذا حتى تذهب، أليس كذلك؟ بعد ذلك، سوف تنسى».

قال: «يا لها من فكرة!» دون أن يقابل عينيها. لم يستطع أن يدفع نفسه لأن يقول: «لن أنسى». وصل إلى بستان نخيل الأريكا وقد ملأه شعور بالارتياح. لقد جعلته عيناها الكبيرتان المرسومتان بالكحل يشعر بأنه شخص هزيل.

نادته: «انتظر».

توقف. ماذا ستقول له؟

«لا تقلق، أريد فقط أن أتأكد من عدم وجود أثر للكحل في وجهك». انتظر، وكأنه بحاجة لإذن منها لكي يذهب.

«هيا، اذهب».

عندما سار إلى البيت من خلال الحديقة الظليلة الباردة، لم يكن يشعر بالانتصار. كان عقله لا يزال مليئاً بالتشوش الذي سيطر عليه عندما نظر إلى عيني سوميترا اللامعتين.

4

كان الناس جالسين في كل مكان من الميدان، على الدكك الإسمنتية وعلى الحشائش. في الرابعة، سوف يبدأ عرض أغاني الأفلام من الميكروفون. كان سيتو يحب اللحظات القليلة قبل أن تشعل المصابيح الزئبقية، عندما تصبح الأشكال الآدمية التي تتحرك في ظلال القلعة

هياكل غير محددة الملامح في ضوء الشمس المتلاشي. كانت تلك اللحظات التي يستطيع فيها سماع اللغط المبهم لقلبه نفسه.

وخلفه، كانت مقبرة تنتمي إلى التاريخ.

وجدوا مكاناً بعيداً عن الزحام، على الجانب الجنوبي للقلعة، حيث يمكنهم رؤية العلامات التي صنعتها طلقات المدافع. كان سيتو قد دخل القلعة مرة واحدة. كان أول ما لفت انتباهه هو الأشجار العجوز وفروعها المتعبة التي تستند إلى الأرض. عندما سار حول السجن المطلي باللون الأحمر، سمع أصوات أقدام السجناء من خلال فتحات التهوية المغطاة بالشباك. وفيما بعد، سمع الضربات وأصوات صرخات. خرج بسرعة، يرتعد خوفا.

ألقى برابهاكاران حجارة في الخندق، وسأل:

«ما الذي تفكر فيه؟»

«ممم..».

سوف تفتح الكلية غداً مرة أخرى. كثير من الطلبة لم يعودوا بعد. عندما ذهب سيتو ليتمشى في فترة العصر، رأى رسالة موجهة إليه، بي. كيه. سيتومادهافان، في صندوق الرسائل أمام مكتب البناية المغطى بقراميد قديمة الطراز.

وصلت هذه الرسالة منذ أربعة أسابيع، وكانت من هاريداسان. من فيشاكاباتنام، حيث كان يعمل على سفينة، السفينة إنس جالاجا. كان طعامه والزي الذي يرتديه مجاناً ويكسب ستين روبية في الشهر. بعد سنة سوف يزيدون راتبه. وصف هاريداسان أول رحلة له، من بومباي إلى فيشاكاباتنام. كانت هناك حاشية تحت الرسالة الطويلة.

«صديقتنا تي كيه بي تزوجت»، من وكيل يتعامل في أنسجة الذهب المطروق. لقد رأيته. مخلوق مريع.. يعرج مثل جاموسة مصابة بالروماتيزم.

حدث سيتو أصدقاءه عن هاريداسان. كانت أحداث حياته في المدرسة الثانوية تبدو كأنها جرت في الماضي البعيد. حتى العام الماضي بدا كأنه مر منذ زمن طويل!

كان سيفاسانكاران يتشدق حول عمل جريء قام به أثناء أجازة أونام. كانت فتاة مسلمة تعيش في كوخ مسقوف بالقش بجوار بيته. ذات ليلة قطع الحبال التي تمسك بالسقف في مكانه بشفرة، ودخل الكوخ. كان مظلماً ومعتماً للغاية. لم يكن يعرف أن الفتاة تنام إلى جوار أمها. تحسس في الظلام، ووجد قدم الأم! صاحت الأم في نومها تلعن القطة. وضحك الجميع. حاول سيتو أن يضحك أيضاً.

أراد راجان من تشيربولاسيري أن يصبح طبيباً. كان عمه مديراً له نفوذه في مدراس. أما برابهاكاران، فكل ما يحتاجه هو شهادة في العلوم بعدها سوف يدرس تكنولوجيا النسيج في بيناراس. نصحه عمه، الذي كان معلم صباغة في إحدى مصابغ أحمد أباد، بأن يأخذ برنامجاً دراسياً في تكنولوجيا النسيج.

وسألوه: «ماذا فعلت في الإجازة، يا سيتو؟»

كان أبوه قد جاء في اليوم السابق على أونام، وبقي أربعة أيام. أراد سيتو ساعة يد، وذهب إلى البوابة معه ليطلب واحدة، لكن لم يفعل في النهاية. ومن ثم لم يكن هناك شيء يعتبر إنجازاً في الإجازة. ابتسم وقال: «قضيت الوقت في القراءة. كانت القراءة هي الشيء الوحيد

الذي يمكن أن أفعله».
«هذا غير صحيح».
لو أغلق عينيه، كان يمكن أن يسمع طقطقة القطن الخام يسقط عن البشرة، ويشم عبق البخور في الغرفة المظلمة.
ظل ساكناً.
«لا داعي للتظاهر، إننا نعرف. كم من الخاءات عندكم في البيت؟»
«الخاءات؟»
«الخادمات».
كان سيفاسانكاران ابناً لصاحب أرض غني في أوتابالام. ما الذي يعرفه عن أناس مثل سيتو؟
«اثنتان»، قال ذلك كاذباً.
«كم تبلغ كل منهما؟»
كان لابد أن يقول كذبة أخرى للتغطية على الأولى، «عجوزتان، عجوزتان جداً».
«وليس لدى أي منهما أقارب في البيت؟»
«لا».
«حقاً. لا أصدق أن هناك شخصاً لم تؤثر فيه إحدى الخادمات».
ابتسم سيتو ابتسامة حمقاء. وقبل زملاؤه ذلك كاعتراف بالذنب. لقد أخفى دهشته واستمع إلى سيفاسانكاران وبرابهاكاران يتحدثان كيفما اتفق.
«لقد أقنعت أختي أن تعطيني خمسين روبية».
«أنا ذهبت إلى جوروفايور في سيارة عمي».

«أخذت قميصين من صندوق أخي».

عندما عادوا إلى المسكن، كانت هناك رسالة تقول إن العميد أراد رؤية سيتو.

خارج مكتب العميد، كان يقف رجل ضخم الجثة فظ المظهر له شارب. قال العميد: «هذا كريشنان كوتي. سوف يشترك معك في غرفتك». في تلك اللحظة فقط اكتشف سيتو أن الشاب كان طالباً. انتظر كريشنان كوتي بهدوء.

«غرفتك تقع في الركن، أليس كذلك؟ إننا معتادون أن نضع في مثل تلك الغرفة ثلاثة طلبة». تأكد العميد من أن سيتو ليس لديه أي عذر للاعتراض. وافق سيتو وخرج. ولعن حظه السيّئ وهو يسرع بعيداً. لحق كريشنان كوتي به أمام مصنع الصودا.

«هل يمكن أن آتي معك؟»

لم يرد سيتو.

«لقد كنت في كوخ حتى الآن. المكان شديد الضوضاء، ولا أستطيع القراءة على الإطلاق».

«في أي سنة دراسية أنت؟»

«الأولى، تاريخ». كان كريشنان كوتي قد انقطع عن الدراسة خمس سنوات بعد نيل شهادة المدرسة العليا، ثم قرر أن يعود إلى الدراسة.

«كل ما أحتاجه هو مكان لصندوقي وكتبي. يمكن أن أنام في الغرفة العامة أو في الشرفة». بدا صوته رقيقاً، برغم ما يبدو عليه من فظاظة الهيئة.

ظل معظم طلبة السكن يتجنبونه، لكن سيتو تعلم أن يحب ويحترم

هذا الشخص، كريشنان كوتي، قليل الكلام وكثير الدرس والمطالعة. اعتاد كريشنان كوتي أن يذهب للتمشي في المساء. إذا كانت هناك ندوة سياسية، كان يستمع إلى الخطب. وفيما عدا ذلك كان يسير ثلاثة أو أربعة أميال على طريق السكك الحديد. ذات مساء دعا سيتو للذهاب معه.

سارا نحو النهر، الذي كان قد تناقص حتى أصبح مجرد جدول تتساقط مياهه فوق الصخور المتناثرة المتكسرة.

شعر سيتو بأن عليه أن يقول شيئاً. «سيفاسانكاران وبرابها كاران سيذهبان إلى كويمباتور غداً بعد الظهر لمشاهدة مصارعة تارا سينغ».

فجأة سأله كريشنان كوتي على غير انتظار: «هل تريد أن تكون مثلهما؟»

شعر سيتو بالصغار أمام قسوة النغمة في صوته وهو يسأل هذا السؤال. لم يعرف ماذا يقول. ضاقت عينا كريشنان كوتي حتى أصبحتا شقين. «إنني أحتقر هؤلاء الذين يحبون التظاهر والاستعرض بأن لديهم نقوداً. يظنون أنفسهم أمراء. سوف يعرفون حقيقة الحياة عندما يخرجون إلى العالم بعد أربع سنوات. لماذا لا يبذلون محاولة للفهم؟»

لم يقل سيتو شيئاً.

«ما فائدة أن تكون قائداً لحفنة من الطلبة في مسكن طلبة أو فصل دراسي؟»

شعر سيتو بالإحراج والقلق. «أنا...».

«أنا لا أتحدث عنك. إنني فقط أظن أن الفقر ليس شيئاً ينبغي أن نخجل منه».

قال سيتو: «إننا لسنا أغنياء».

كان والد كريشنان كوتي يمتلك مزرعة لجوز الهند، وأرضاً تنتج خمسمئة بارة من الأرز. كان يمكن أن يكون جزءاً من المجموعة المتأنقة حسب الموضة في الكلية فقط من عوائد بيع أفرع نخيل جوز الهند التي تقع على الأرض. أصيب سيتو بالدهشة عندما عرف أنه عمل في الجمعية الزراعية للتسليف في قريته لمدة أربع سنوات لكي يوفر ما يكفي من النقود لدفع تكاليف دراسته.

حملق كريشنان كوتي في المبنى الصغير الذي بُني في وسط النهر، بين الصخور، مبنى لعجوز متصوف «سانياسي». قبل أن يسأل سيتو، كان قد قال إن كل ما يريده هو أن يأخذ درجة البكالوريوس ويعود إلى القرية ليعمل معلماً في المدرسة. وقد وقعت مشاكل مع أبيه لأنه كان على علاقة حب بفتاة لم يوافق والده عليها.

كان والده يشرب كثيراً، كل ليلة، يمكن أن يشرب مع أصدقائه. كان البيت مليئاً بالضوضاء كأنه سوق حتى منتصف الليل. «يبدو أن ذلك علامة على الجاه بالنسبة للأغنياء مثله الذين يتصرفون بهذه الطريقة».

«ماذا عن أمك؟»

«إنها مريضة عقلياً منذ تسع سنوات. حالة لا يمكن شفاؤها. ولا بد من حبسها في غرفة. وإدارة البيت في أيدي الخادمات».

تخيل سيتو المشهد كما يصفه كريشنان كوتي. الابن يُستدعى أمام مجموعة من السكارى. «ها هو يأتي، ابني الحبيب. ابن مامبات سيفارامان ناير يختار أن يقع في حب امرأة تعمل في خدمة بيت

أمير!» وعلى الابن أن ينتظر ويسمع. وإلا فسوف تحدث انفجارات، واعتراضات، وصليل الأطباق الخزفية وهي تتكسر، وسوف يأتي الجيران ليروا ماذا حدث، بينما الأم، التي تجلس دائماً تصلي كالناسك، سوف تمزق ملابسها وتصرخ. وخشية أن يتسبب في كل هذا، يستسلم الابن في هدوء.

كان كريشنان كوتي يهرب إلى بيت البنت متى ما استطاع. قال: «لا أظن أنني واقع في الحب. إنني أعتبر البيت الصغير ملجأ بجدرانه من الطين، وسقفه من القش، وأرضيته الملطخة بالسخام. أبي وأصدقاؤه هم الذين جعلوا من ذهابي إلى هناك جريمة.

«هل يدهشك يا سيتو أنني أتحدث عن أبي بهذه الطريقة؟ عندما كنت طفلاً، كان إلهاً بالنسبة لي. اعتدت أن أشعر بالفخر الشديد عندما يشير الناس لي بأنني ابن سيفاراماان ناير. وبدأت أكتشف الحقيقة وأنا أكبر. أبي لديه جرس في غرفته بالطابق الأعلى. والخادمات يعرفن من منهن تستدعى برنتين، ومن تستدعى بثلاث رنات. وإذا كانت واحدة منهن هناك، لا تستطيع الأخريات الصعود إليه».

حدق سيتو بصمت في النهر المظلم لكي يتجنب النظر إلى وجه كريشنان كوتي المليء بالازدراء.

ذات يوم، واجه كريشنان كوتي والده، وانتقل من البيت إلى غرفة غير مستخدمة على قمة بيت البوابة. عندما ذهب إلى بيت الفتاة في ذلك المساء، قال: «سوف أتزوجك بمجرد أن أتمكن من إعالتك، إن كنت توافقين». كان أبوها المشلول، يرقد ممسكاً بعدد من الحمائم لتدفئ له أعضاءه. سمع الأب ما قاله كريشنان كوتي. ولم تقل الفتاة شيئاً.

لم تكن جميلة أو متعلمة. تركت المدرسة بعد الصف الثامن. وبدأت تزوره كثيراً، في غرفته فوق بيت البوابة. حتى أثناء الليل.

«لم ألمسها أبداً، وإن سنحت لي إمكانية أن أفعل ذلك في مناسبات كثيرة. إننا نتحدث كثيراً، هذا كل شيء». بدا صوت كريشنان كوتي أشبه بخرير جدول عميق في الغابة.

«أفكر فيها كثيراً الآن. رسائلها تجعلني أشعر بالقلق. هل هذا حب؟ لا أعرف. أنت تكتب الشعر في مجلة الكلية. قل لي، هل هذا هو الحب؟» بذل سيتو مجهوداً لكي يبتسم.

بدا كريشنان كوتي في حالة هدوء نفسي وهما يسيران عائدين إلى المسكن على خط السكك الحديدية. بل حاول أن يصفر بفمه تعبيراً عن خلو البال. لكن سيتو شعر بالقلق والاضطراب. فكر، لابد أن أحضر زواج كريشنان كوتي، أينما يكون، وعندما يقدم زوجته لي، أقول لها: «إنني أعرفك منذ سنوات».

لقد عرف أن تجربة الوقوع في الحب والزواج مبعث سعادة كبيرة عند زواج أخيه الأكبر، باراميسوارا. ظل إيتان هادئاً ورزيناً، برغم أنه كان مركز الاهتمام. ساروجيني إيداتي، ذات البشرة الفاتحة تماماً، أحبت أخاه! شعر سيتو باحترام كبير له. كان باراميسوارا إيتان داكن البشرة للغاية.

كانت ساروجيني إيداتي ابنة عمها. وافق الأب وأقاربه على هذا الزواج، لكن الأم عارضته، حيث إنها لم تكن أبداً على علاقة طيبة بعائلة الأب. وكان تبرير الأم هو أن الأب يعطي كل ما يكسبه من عمله في عزبة الشاي لأبناء وبنات إخوته. وقالت الأم إن أقارب الأب

كانوا يدعون من قلوبهم أن تقع الأم وعائلتها مرضى. وعندما كانوا في حفل زواج أحد الأقارب، أُجبرت الأم على إعطاء موافقتها على زواج باراميسوارا إيتان بساروجيني.

لم يكن سيتو يتذكر سوى امرأتين كانتا في حفل الزواج ذاك. إحداهما هي العروس، والأخرى هي الفتاة التي أصبحت فيما بعد زوجة أخيه. أحبها، في ثياب السهرة الزرقاء ذات الزهور الفضية.

عندما جاءت إلى البيت كعروس، كان سيتو هو الذي اعتاد أن يذهب معها إلى النهر. كان يبحث عن ثمار الممبوزيا التي سقطت عن الشجر ولا تزال سليمة، ويأخذها إليها. أحب مشاهدة أسنانها البيضاء الصغيرة، كحبات الأرز البيضاء، وهي تعض الثمرة الناضجة وتتحول إلى اللون البنفسجي.

عندما كان في الصف الثامن، حدثت مشاجرة بين أمه وزوجة أخيه الأكبر. كانت أمه هي البادئة. «أعرف أن النساء من تريسور لهن سمعة سيئة».

وإذا بصوت ساروجيني إيداتي، الناعم جداً في العادة، يتحول ويتغير عندما يرتفع غضباً.

استمرت أمه: «أيتها التعسة، السبب الوحيد لموافقتي على الزواج هو لأنني لم أكن أريد امرأة تشنق نفسها أو تقفز في البئر بسبب ابني. من طيبة قلبي وشفقتي. وليس لأن الساحرة القادمة من تريسور ألقت علي تعاويذها. والناس يحترمونني، ولهذا لا يسألون عن السبب في أن زوجة ابني، التي مرت عليها ثمانية أشهر..».

توسلت إليها الخالة الصغرى: «اهدئي يا أختي». في اليوم التالي

مباشرة، انتقل باراميسوارا إيتان وزوجته إلى بيت مستأجر بالقرب من الضفة حيث يعمل. شعر سيتو بالحنق تجاه أمه لأنها اضطرت زوجة أخيه للانتقال بعيداً. كانت تغسل ملابسه بصابون من نوع 501، وتطويها بعناية حتى تكون بدون كرمشة. كانت رائحة بودرة التلك والخشخاش تفوح من البيت في وجودها.

وتخيل كريشنان كوتي يبدأ حياته مع الفتاة التي أحبها.

عندما دخلا الطريق عند مزلقان السكك الحديد، رأيا مجموعات من الفتيات عائدات من المعبد إلى السكن. كان من الصعب تمييز وجوههن في ضوء الغسق. سأل كريشنان كوتي:

«فيم تفكر؟»

«لا شيء».

«هل تعجب لماذا أخبرتك بكل هذا؟»

غمغم سيتو في حيرة.

«لابد أن أتحدث عن الأمر أحياناً، وإلا أخشى أن ملامحي نفسها قد تتغير. أعرف أن التوتر المستمر قد طبعني فعلاً بمظهر يتسم بالقسوة».

فجأة، أضاءت مصابيح الشارع. وبدا ضوؤها باهتاً في الهواء المحمل بالأتربة، وكأنها استيقظت فجأة دون انتظار.

سأل كريشنان كوتي: «ألم تقع في الحب أبداً؟»

هل كان واقعاً في الحب مع سوميترا؟ عندما كان عائداً من إجازة مهرجان أونام، رآها تنتظره في بستان الموز بالقرب من بوابة فاداكيتو. كان منشغلاً بالسير بحرص في طريقه على أراضي الحقول الطينية الزلقة. هل كل مؤلماً أن يسير مبتعداً عنها أكثر وأكثر؟

أجاب، بصوت حاول بقدر الإمكان أن يبدو خالياً من التعبير: «لا».

برغم أنه كان يعرف في قلبه أنه لم يكن يريد أن يفقد سوميترا.

أخذ كريشنان كوتي كتبه وذهب إلى الغرفة العمومية. استعار سيتو ورقة رسالة داخلية من سوامي، وجلس يكتب لهاريداسان. بدا أن سنوات تفصله عن ذلك الموقف، في عصر أحد أيام أبريل الحارة، عندما ودع هاريداسان بجوار القناة. كان هناك الكثير مما يريد أن يخبره به. لم يقابل هاريداسان عندما ذهب إلى المدرسة لإحضار شهاداته. لابد أن يكتب له عن الكلية والدروس، كيف تقيأ بعد أن قام بتشريح أول ضفدع في حصة العلوم الطبيعية العملية، وعن أصدقائه والقصيدة التي كتبها لمجلة الكلية.

ولكن، في النهاية، كان كل ما كتبه هو: «عزيزي هاريداس، تلقيت رسالتك ويسعدني أن أعرف أنك بدأت في عملك الجديد. الحياة في الكلية ليست سيئة. دعني أعرف إذا كنت بسبيلك للذهاب إلى البلدة». كان قد فكر في هاريداسان كصديق لا يمكن أن يفترق عنه. منذ وقت طويل. هل كان يأمل حقاً أن يستمر هاريداسان في الكتابة له؟ حاول أن يقنع نفسه بذلك.

5

في موسم مهرجان ثيروفاثيرا، تدفقت رياح ديسمبر الباردة على الطريق الجبلي الضيق، مما جعل النخيل يرتعش. كانت الليالي باردة. والنهار لاهب الحرارة. لم يذهب سيتو إلى بلدته في الإجازة. كتب إلى

أمه بأن لديه محاضرات خاصة لا يقدر أن تفوته. واضطر لأن يتناول الطعام في الخارج حيث كان مطعم الكلية مغلقاً.

شعر بالتوجس من فكرة إجازة الصيف. كان يمكن أن ينسى كل شيء آخر طالما كان مقيماً في هذا المسكن في المدينة الكبيرة، جزءاً من ضوضائها وفوضاها وتشوشها. وبدا ذلك مثل الاختباء في الكهف الصغير المحفور داخل الطين على جانب التل، محمياً خلف ساتر كثيف من الأمطار، يستمع إلى زئير الريح والمطر في الخارج.

ولكن، عندما عاد إلى بلدته، اكتشف لدهشته أنه أصبح عضواً محترماً داخل البيت. كان الشاي يُرسل إليه في الصباح والمساء. ومس شغاف قلبه أن يرى بادمو تصعد السلالم محاولة الحفاظ على توازن الكوب الكبير المصنوع من معدن البرونز في يدها حتى لا يُراق الشاي. كبرت بادمو وازداد جسدها طولاً هذا العام الماضي. وصارت على وعي به.

ذات يوم، قالت بحياء: «سيتو إيتان، أنا بحاجة إلى مظلة من القماش».

«أليست لديك واحدة؟»

«فقط واحدة قديمة من ورق النخيل».

إذن فقد كبر سيتو إيتان أيضاً. كانت بادمو متأكدة من أنه سيجلب لها ما تحتاجه. لابد أنها سألت الأم والخالة قبل ذلك، وربما ردت عليها إحداهما: «هذا ما ينقصنا، مظلة قماش حقاً!»

فكر سيتو، لو فقط عندي مظلة، لأعطيتها لها. كان يعرف أنه لن يتمكن أبداً من توفير الروبيات الست، ثمنها. مع ذلك، قال:

«سوف آتيك بواحدة».

وبينما سار في الحقول ذلك المساء، رأى أخت سوميترا الصغيرة، كارتياياني. كانت تحمل ربطة ملفوفة في أوراق الساج. ذهب إليها.

«ماذا يوجد في بطنك هذه؟» كان يعابثها.

وقفت الطفلة ذات التسع سنوات في خجل، كانت فوطتها القصيرة لا تكاد تغطي بطنها المستديرة. وذكرته، بعينيها الضيقتين نصف المغلقتين وبطنها البارزة، بالدمية الصينية الموجودة في غرفة العميد.

«أين سوميترا إيداتي؟»

«إيداتي ذهبت إلى تيرور»

«تيرور؟»

«الأم كونجومالو أخذتها هناك».

أصبحت الأمور أكثر وضوحا عندما سمع أمه وخالته تتحدثان معاً في الليل. تزوج كاندان كولانجارا أبوني مينون من امرأة ثرية من بلدة تيرور. وعندما ذهبت إلى بلدتها لتلد، أخذت سوميترا معها. كانت العمة حريصة على ألا يُساء فهم الأوضاع.

«أرسلت كلمة بأن لا أحد من بيتنا سوف يعمل خادماً أبداً، حتى لو كنا نموت جوعاً. ثم إن السيدة جاءت بنفسها، وبطنها كبيرة أمامها، وقالت لي، هل من المعقول أن أطلب منها أن تكون خادمة لي؟ إذا أرسلت سوميترا معي، سوف أعاملها كأختي الصغيرة. إنها مغرمة بسوميترا. وهذا فقط لعشرة أيام. برغم أن مادهافان لم يحب الفكرة إطلاقا».

ذهل سيتو عندما علم أن أبوني مينون طلب الإذن من الخال

مادهافا. لماذا الخال مادهافا؟

وجد أن الفتحة في السياج بين بيته وبيت العمة أغلقت. وقف متردداً عند السياج، في يده فوطة وصابونة. رأته الأم عائداً، وقالت: «لقد أغلقنا الفتحة في السور».

لم يسأل عن السبب. أخبرته الأم: «الماشية والماعز تشرد منها طوال الوقت. على أية حال، الناس يستطيعون استخدام البوابة».

وقالت له الخالة الصغرى: «هل كنت ذاهبا لأخذ حمام يا سيتو؟ الماء في فاداكيتو ليس جيداً. على بعد عشر خطوات من هنا وستكون عند النهر. المياه هناك ممتازة!»

لم تأت العمة وأطفالها كما اعتادوا.

تحدثت الأم والخالة عن ذهاب سوميترا مع الأم كونجومالو بنغمة ازدراء. وتحدثتا مع الجميع بكلام سيئ عن عائلة فاداكيتو.

متى حدث هذا التغيير؟

وعندئذ بدأت الأشياء تتضح. «إنه رجل بالغ، أليس كذلك؟ ونحن أختاه الكبيرتان. يمكننا أن نخبره مرة، مرتين، ليس أكثر».

ومن ثم، كان الخال مادهافا وراء الأمر. كان يذهب إلى فاداكيتو طوال الوقت. كان يرعى شؤونهم. كانت الأم والخالة مقتنعتين بأن نساء فاداكيتو أغرينه هناك بمحلول سحري. وإلا، كيف لرجل اعتاد أن يدير وجهه بعيداً حتى لدى ذكر أسمائهن أن يتغير كل هذا التغيير؟

ذهب سيتو إلى النهر في ذلك المساء ليأخذ حماماً. وعندما فكر في سوميترا، ملأه غضب عارم. عائلة كاندان كولانجارا مينون أغنياء. كان القرويون يرهنون مجوهراتهم وأوانيهم لديهم ليقترضوا مالاً أو

أرزاً. وكان قد سمع أن عائلة الأم كونجومالو في تيرور عائلة قديمة ولها لقبها.

لابد أن البيت كبير. به أماكن مهجورة وغرف ذات ضوء خافت. في الغسق، تكون أكواخ الاستحمام بالقرب من الصهاريج مليئة بالظلام. ومن الممكن أن يكون هناك شباب في البيت. طلبة جامعة، رجال يعملون في وظائف. وسوميترا تنام في ذلك البيت. لا بد أن يراها عندما تعود. لماذا ذهبت للإقامة مع الغرباء؟ كلما أمعن التفكير في الأمر، ازداد شعوره بالغضب.

إذا جلس في الطابق العلوي فوق الشرفة الأمامية، يمكن أن يسمع ما تقوله الأم والخالة لنساء القرية اللائي جئن إلى الفناء لتبادل النميمة. كن يتحدثن في فضائح القرية مع الأم أندور أوموتو، وكالي شيرومي العجوز، وبيباثومرنا، زوجة محمد صياد السمك. لو كانت الأم والخالة وحدهما، لذكرت كل منهما فظائع الأخرى أيضاً. تتحدث الخالة عن قسوة الأم، وتتحدث الأم عن عقل الخالة الشرير. أحضرت الأم أوموتو قدراً فخارياً كبيراً ذات يوم، وقالت وهي تغادر: «متى يرتبط مادهافن ناير بروابطه الزوجية السامباندهام؟»

قالت الخالة: «لا نعرف ماذا جرى له، يا أوموتو. كان معتادا أن يقوم ويبتعد في كل مرة نتحدث معه عن الزواج. إذا حاولت إيداتي أن تخبره بأنهم ليسوا غرباء على كل حال، وأنهم بحاجة لرجل في العائلة، وأنهم أبناء عمومتنا، كان يشتعل غضباً. حتى صوت اسمها كان يثير أعصابه. والآن كسبوه تماماً مع بهارات الدجاج الذي يصنعونه وأكواب الشاي التي يقدمونها وكل الجلبة التي يثيرونها حوله».

قاطعتها الأم، وصوتها يتحشرج غضباً «إن جسمي يقشعر عندما أقولها. لقد رفض أن يستمع عندما حاولت تهدئته. والآن يتصرفون وكأنه ملك لهم. العمة تتظاهر بأنها تتنفس بصعوبة وتبدو ضعيفة، ولكنها تعرف ما تريد».

أضافت الخالة: «خير ما لدينا من موز يذهب حالياً إلى فاداكيتو».

قالت أوموتو: «إن مادهافان ناير مكسب رائع لأي أحد. مدير مجمّع إلّام. إنه يقوم بعمل أربعة أفراد. هل سمعتم، ابنة تشاثو ناير، جاناكي، لها عاشق سري».

عاد الخال مادهافا من الخارج في وقت متأخر جداً. ووجد سيتو من الصعوبة أن يصدق عندما سمع لأول مرة أن الخال مادهافا يريد حقاً أن يتزوج ديفو بأذنيها الكبيرتين، ووجهها النحيف، وذراعيها المشعرين، وحاجبيها الكثيفين.

أكل الخال مادهافا في صمت، وجلس يدخن في الشرفة لوقت طويل، وهو مستند على العمود القديم المتهالك. نظر سيتو إليه متعجبا. لقد كان داكن اللون جداً. وكان شعره خشناً كألياف جوز الهند، وكان يزداد نحافة وظهرت في رأسه رقع من الشعر الأبيض. كان نادراً ما يبتسم. وعندما يتحدث، كان الهواء يصفر في مروره من خلال الفجوات بين أسنانه.

لم تعد ديفو تعمل في مجمع إلّام. وفكرت الأم والخالة أن الخال مادهافا طلب منها أن تتوقف.

«أين تريد أن تنام؟» ذهل سيتو عندما سمع صوت الخال مادهافا فجأة يأتي من داخل الظلمة.

«بالأعلى أو بالأسفل؟»

«بالأعلى».

بسط الخال مادهافا الحشية التي كانت مطوية على الدكة الخشبية، وأشعل سيجارة بيدي أخرى، وخرج. ودخل سيتو.

كيف حدث أن طرأ كل هذا التغيير على الخال مادهافا؟

القسم الثالث

1

ألقى مادهافان كعب سيجارته البيدي على الجدار وقام واقفاً.

راقب ظلال أشجار الموز ترقص ككائنات حية وفكر أنه لن يستطيع النوم أبداً. كانت الألواح الخشبية القديمة تصدر صريراً مع حركة سيتو في الغرفة بالطابق العلوي.

كان ينبغي أن يطلب بعض مياه الشرب. فكر في ذلك عندما أخرجت أخته الحشية من الغرفة، ولكنه لم يقل لها شيئاً. بشكل ما، كانت أخته تجعله يشعر بالخجل. وبدا أن نفسيهما تفيضان بأسئلة لا ينطقان بها.

فكر في ذلك الوقت في العام الماضي، قبيل عيد أونام، عندما اختبأ وراء الشجيرات الشوكية بالقرب من بيت سوميترا حتى لا يراه سيتو. وبينما كان يعطي الغداء للمراكبي، رأى سوميترا تغادر منزلها، ثم لاحظها تعود. ذهب إلى المجمع بمجرد أن غادر المراكبي، وتوقف للحظة بالقرب من شتلات جوز الهند التي زرعها بنفسه عند بداية هطول الأمطار في العام الماضي، وراح يسوي الأرض حولها ليثبتها في مكانها بقدمه. عندما وصل أخيراً إلى فناء سوميترا، شعر بالخوف لأول مرة في حياته. شعر بجفاف في حلقه، وارتعدت ساقاه. هل تنحنح بصوت مرتفع كفاية؟ فُتح الباب. حاول أن يسيطر على نفسه. نظر إلى

وجه سوميترا للحظة واحدة، ثم بدأ يحدق في أفرع شجرة طبية نمت بالقرب من سقيفة الماعز. سألته سوميترا: «ماذا هناك يا مادهافيتا؟»

كل ما استطاع أن يفكر فيه هو السؤال عن حامل الماء الخشبي الذي اعتاد أن يروي به الحقل، لكن سوميترا قالت إنه ليس هناك. تردد للحظة، ثم غادر. لابد أن سوميترا فكرت أنه شخص أحمق تماماً - كان شهر كاركيتاكام قد انصرم، وقد توقفوا عن ري الحقول وتم تفكيك جهاز الري.

وبدا له أن سوميترا كانت بالأمس فقط مجرد طفلة صغيرة، تجري بلا هدف في ثوب أحمر رث، وجهها ملطخ بعصير المانجو. ولكن، عندما رآها الآن، شعر بالاضطراب، ولم يعرف أبداً ماذا يقول. ولعن نفسه. لم يره أحد يدخل أو يعود، ولا حتى سيتو. وعندما عاد بعد كل هذا الوقت إلى البيت، كان العمال الزراعيون الشيرومان قد حزموا الأرز الذي أُعطي لهم في صرر، وذهبوا.

سمع النساء يتحدثن مع بعضهن في المطبخ، وفكر في أنه أصبح شديد الحمق.

لم يكن يريد الخروج مرة أخرى. سوف يكونون جالسين للعب الورق في الغرفة فوق دكان آبو ناير، كما يفعلون عادة أثناء موسم أونام. قرر ألا يلحق بهم. رقد على دكة خشبية بالخارج وحاول أن ينام. سمع شخصاً ينادي من الفناء. فتح عينيه. إنه رجل سانكوني، جاء لطلب الفلفل المجفف. يا له من إزعاج! كانوا يناقشون ذلك بالأمس.

«بادمو!»

كانت الضوضاء شديدة، لم يسمعه أحد. نادى بصوت أعلى.

«ما الأمر؟»

«اعطني الميزان. أتى رجل من أجل الفلفل».

«أنت أخذته إلى مجمّع إلّام في ذلك اليوم ولم ترجعه».

ليس هناك من يرسله إلى مجمّع إلّام الآن. هل يذهب سيتو؟ كثيراً ما كان مادهافان يناديه للمساعدة في الماضي. لكن الفتى أصبح يرى في نفسه الكثير، الآن وقد انتهى من المدرسة. لا، لن يطلب منه.

طلب من الرجل أن ينتظر، وانطلق بنفسه.

هناك زحام من النساء على الشرفة الشمالية لمجمّع إلّام. وقف في تردد خلف سقيفة الزريبة، تحت شجرة الماندارام. لاحظت كونهاتول وجوده، وجاءت إليه: «نعم، يا مادهافان؟»

أسعده أنه لم يعد يُنظر إليه كغزيب في مجمّع إلّام، الآن وهو يتولى أموره. لم تستخدم كونهاتول أبداً لهجة ترَفُّع وهي تتحدث إليه، لم تعامله أبداً وكأنه مجرد موظف يدير المكان. كانت تتحدث إليه مباشرة، دون تحفظ. وعندما كان يسوي الحسابات معها بعد بيع ثمار الأريكا والموز، تدفع كومة من أوراق النقد والعملات جانباً وتقول، «مادهافان، ضع هذا جانباً». لم يأخذ مرتباً منتظماً. ولم تكن كونهاتول تعرف تسوية الحسابات ولم يكن أوني نامبوديري مهتماً بأي حال. مع ذلك، لم يفكر مادهافان أبداً في أن يأخذ حتى ورقة بخمس روبيات لنفسه.

« كونهاتول، هل يمكن أن آخذ الميزان؟»

«لابد أنه في الشرفة الأمامية أو بالطابق العلوي. اطلب من أوني أن يبحث عنه لك».

عبر أحواض الخضر الطينية متجنباً النظر إلى النساء اللائي كن يمارسن رقصات الأونكالي في الفناء. هل هذا صوت سوميترا؟

هذا الأبله أوني سيكون ممدداً على المقعد الخشبي في الشرفة، ممتلئاً بعد مأدبة أونام. الوغد! كان يكره رؤيته. كان ينبغي أن يكون سند كونهاتول في الكبر. وبدلاً من أن يعتني بنخيل الأريكا، فإنه يقضي وقته هائماً بلا هدف فوق ظهور الفيلة. بالطبع، إذا كان هناك شخص آخر يواجه الفلاح المستأجر جوفيندان، نيابة عن العائلة، ويستخلص بعض الأرز منه ويضعه في الصومعة، لكان أوني نامبوديري مستعداً تماماً لأكله.

كانت العنزات راقدة على الدرجات الأمامية، تجتر. لم يظهر أثر لأوني نامبوديري في أي مكان. كان باب الغرفة الداخلية مفتوحاً، فنظر مادهافان داخلها. لم يكن الميزان هناك. ربما كان أوني نامبوديري نائماً في الناحية الجنوبية؟ لا، ليس هناك أحد. من يمكن أن يسأل عنه؟ كانوا جميعاً مشغولين بشدة.

وجد الميزان تحت السلم. وبينما هو عائد عبر الممر المظلم، سمع أصواتاً خلف باب الغرفة الجنوبية. انتظر لحظة، يستمع. فُتح الباب ببطء، وظهر منه وجه نحيف الوجنات وكبير الأذنين.

ديفو!

لم يكن لديه وقت ليتحرك مبتعداً. رأى صرخة تتجمد في حلقها. وهي تزحف إلى الأمام وتعبر إلى جواره، انفتح الباب تماماً. ولمعت في الظلام أسنان مصبوغة بعصارة التنبول. وبدا صوت أوني نامبوديري آتياً من على مسافة هائلة، «ماذا هناك، يا مادهافا؟»

نادته كونهاتول، لكنه لم يرد. فقط أسرع في سيره.

2

طوال اليوم، ظلت نار تشتعل داخله.. صرخ في وجه إحدى العجائز الشيرومي كانت تلتقط ثمار الأريكا من الأرض، وطردها بعيداً، مهددا بكسر رجلها إذا رآها هناك مرة أخرى. غمغمت بشيء غاضبة، وهي تمر بيدها على شعرها المشعث.

زعق في وجه رجل سانكوني كان لا يزال منتظراً، «اذهب وقل للعجوز الأبله إنني ليس عندي وقت اليوم. ما أسوأ اليوم الذي اختاره! يمكنني دائماً أن أجد مشترياً آخر لو لم يكن سانكوني يريد الفلفل».

نهرته أخته: «قل لي متى يكون عندنا كل هذه النفقات. ألا تستطيع أن تزن ما لديك وتحصل على النقود مقابله؟»

«لا تحاولي أن تعلميني كيف أفعل الأشياء. إذا كنت بهذه البراعة، لماذا لا تفعلي ذلك بنفسك؟»

غمغمت بشيء ودلفت إلى الداخل. لابد أنها أصيبت بالدهشة. فلم يحدث أبداً أن زعق في وجه أخته الكبرى من قبل. جاءت الأخت الصغرى إليه وهو بسبيله للخروج.

«هل أنت خارج؟»

«لا، أنا داخل».

«ماذا حدث لك؟ إنني أسأل فقط لأنني أريدك أن تحضر لي نشوقاً بنصف آنة إن كنت ستخرج».

في طريقه إلى البازار، ظل يسأل نفسه، هل عليه أن يخبر أم ديفو في فاداكيتو؟

كان يفكر في ديفو بنوع من الاشمئزاز. جسدها النحيف والشعر الأسود كالشوك على ذراعيها. وبرغم ذلك، لم يكن في الواقع مهتماً بها. لكن ما أقلقه هو أنها قد تجلب على عائلة فاداكيتو سمعة سيئة.

«ألم تسمع، في بيت فاداكيتو؟»

«أنت تعرفين، قريبنا مادهافان ناير..». وأضاف، بهلع، «تزوج من؟»

«من بيت فاداكيتو..».

«هل تقصد تلك الـ..». لم يستطع أن يفكر بعد تلك النقطة.

جلس على الرصيف خارج محل شاي فيرانكوتي، وراح يحدق في المارة.

«هل ستتناول شاياً، يا مادهافان ناير؟»

«لا».

وعلق نانو ناير، مدير كاندان كولانجارا: «أنت لم تأت لتلعب الورق اليوم».

«غلبني النوم».

«توقفت عن اللعب عندما فقدت أربعة روبيات».

كان باعة الأسماك، الذين نشروا صيدهم على مسافة أمام دكان بابو، يصيحون لجذب المشترين. كان السوق يستيقظ.

عرف فيرانكوتي أن مادهافان ناير يحب السمك.

«لدينا سمك فيلوري جيد اليوم».

«آه!» استمر يحدق في حرباوات على السور عبر الطريق، بدت متشابكة برغم أنها منفصلة. استطاع أن يتعرف على الشخص السائر في الحقول حتى عبر مسافة كهذه. أوني نامبوديري. كان يظن أن أوني نامبوديري سوف يسرع بالذهاب بمجرد أن يراه. لكنه توقف وابتسم، مستعرضاً كل أسنانه المحمرة. بدا أشبه بعنزة قربان تنتظر أن تُلقى إليها قشور الموز. وفوطة قصيرة نظيفة لا تكاد تغطي أجزاء من جسده المغطى بالجرب. كان يحمل مشعلاً طويلاً في يده. لعنه مادهافان في صمت، «الوغد!»

نادى أبوكوتان: «إلى أين، يا أوني نامبوديري؟»

«ليس إلى مكان بعينه».

«أو تريد أن تتذوق شاياً طيباً في السوق، أوني نامبوديري، لابد أن تشرب شاي مابيلا».

تظاهر مادهافان بأنه لا يلاحظ أن أوني نامبوديري ينظر إليه من ركن عينه.

حثه فيرانكوتي: «هيا، أوني نامبوديري، لا تقلق. مادهافان ناير لن يفتن عليك. هل ستفعل يا مادهافان ناير؟»

وقف أوني نامبوديري في مكانه، يعبث بالمشعل.

نزل مادهافان من فوق الرصيف، وأشعل سيجارته البيدي من المدفأة، وغادر.

كانت الضوضاء شديدة في الغرفة الواقعة فوق دكان آتشو؛ من الواضح أنهم كانوا لا يزالون يلعبون الورق. نشر أحدهم بعض القش ليجف على الطريق خلف المحلات. هؤلاء الناس يظنون الطريق

العام يماثل أفنية منازلهم. على ضفة النهر، سمع صوت الفؤوس تضرب جذور شجرة التين البنغالي التي سقطت أثناء العاصفة في شهر كاركيتاكام [يوليو-أغسطس].

من المؤكد أن الناس أرادوا توجيه أسئلة إليه، لو بقي بالقرب من الدكاكين. فجأة أراد أن ينأى بنفسه عن الجميع، ذهب إلى الحقول. كان الطريق الكبير واسعاً بما يكفي هنا لمرور السيارات. وكان يؤدي إلى بوابة منزل كاندان دولانجارا. بعد حقلين آخرين سيكون عند بوابة فاداكيتو. ظل يوجه ناظره إلى الأرض.

هل نادى أي أحد؟ لا، لا يمكن. لقد سمع خطأ.

«مادهافيتا، هل يمكن أن تأتي من هذه الناحية؟»

كانت سوميترا واقفة على الدرجات التي كانت قد طليت حديثاً بروث البقر. ظن أنها ستأتي إلى الحقل إن لم يصعد إليها. ومن ثم سار نحو بوابتها.

بدت وكأنها استحمّت لتوها، وغيرت ملابسها المبتلة، وقفت تمشط ضفائر شعرها المتشابكة. كان ذراعاها في لون ساق الموز الباهت، والخيط الأسود المحيط برقبتها لا يزال يبدو مبتلاً.

«قالت أمي إننا ينبغي أن نقدم قربانا للروح الشريرة، الجوليكان، غداً، وتسأل إن كان يمكن أن تأتي إلى البيت».

لم يعرف ماذا يقول.

«لقد وعدنا بتقديم القربان إذا مرض الماعز. وقد أعددنا لفعل ذلك غداً».

حثه ذلك على أن يسأل، هل تحتاجون لي عندما تقدمون قرباناً

للجوليكان في فاداكيتو؟ حدق في المياه الموحلة المتجمعة داخل آثار الأقدام بين بقايا سيقان الأرز بعد ضمه في الحقل بالأسفل. كيف يمكنه أن يرفض؟ لا يستطيع أن يجرح مشاعر سوميترا.

«كنت على وشك أن أرسل كارتو لكي تناديك، عندما رأيتك».

إذن فقد رأته آتياً في الحقل وهي واقفة في الفناء، وعرفته على البعد.

نظر إليها مرة أخرى، وفجأة أصبح واعياً بصدره المشعر والموندو المطوي الذي يرتديه. وقال لنفسه إنه عندما يذهب في المرة القادمة إلى كومارانالور، ينبغي أن يشتري لنفسه بضع صدريات من ذوات الأكمام.

«هل أنادي أمي؟»

«قولي لها إنني سآتي».

انتظر دقيقة، ربما تقول سوميترا شيئاً آخر. وعندما استدار ليذهب، سألته:

«ألم تشتر أي سمك اليوم؟»

«السمك اليوم من نوع تيروفونام».

«لقد أحضرت لنا ناريمين في العام الماضي، في اليوم التالي لأونام».

كان أبو بكر قد أحضر له سمكتين، كبيرتين للغاية، لأنه رتب له أن يستأجر قطعة أرض صغيرة بالقرب من مجمع إلّام لزراعة التابيوكا. وعندما تم تقطيعهما، كانتا تملآن قدراً كاملاً. أرسلت أخته الكبرى أربع شرائح إلى فاداكيتو مع بادمو.

قال لنفسه وهو يغير اتجاهه، لن أذهب إلى بيت أبو بكر، سوف أذهب لألقي نظرة على بستان الموز. كانت هناك خمس مجموعات من

أشجار الموز لم تصل إلى مستوى من النضج يسمح بقطعها. فحصها، ثم اتخذ الطريق الطويل عائداً إلى البيت، عن طريق بيت أبي بكر. ذهب أبو بكر إلى كوتييورام في ذلك الصباح. ورأى شبكة صيد في الفناء. سأل ابن أبي بكر:

«ألا تصطاد أي ناريمين هذه الأيام؟»

«سمعت أن بعضاً منها في الجانب الشمالي من النهر».

«همم..».

أثناء سيره إلى مجمّع إلّام، فكر في مسرحية «كوتو» التي مُثِّلت في العام الماضي في معبد أريامباداث. كانوا ذاهبين لتمثيل قتل إندراجيت. أخبره نانو ناير وآتشو في ذلك المساء أنهم ذاهبون.

«هل ستأتي؟»

«سأرى».

بعد الغداء، قرر أن يذهب. ارتدى قميصه وطلب مشعلاً. كانت الأم الكبيرة من فاداكيتو في المطبخ. سألت:

«إلى أين أنت ذاهب، يا مادهافا؟»

كانوا قد جاؤوا للنوم عندهم.

عندما أخبرهم أنه ذاهب إلى أريامباداث، أرادوا الذهاب معه. لعن نفسه لأنه أخبرهم. كان يمكن أن تغادر أتشو والأخريات. كان ينبغي أن ينتظر حتى تستعد النساء والأطفال. وشعر بالإحراج، أن يسير أمامهم وفي يده كشاف.

نشروا البساط الذي أحضروه تحت شجرة التين البنغالي أمام قاعة الأداء في المعبد. لم يجلس مادهافان. بحث عن أصدقائه ولكنه

لم يجدهم. ولأنه كان يشعر بالتعب، فقد عاد. كان بعضهم نائماً على الحصيرة. وكانت الأم الكبيرة في حالة نعاس، تحركت جانباً لتترك له مكاناً.

حشرات! هل لهذا جرهم معه هنا؟ ضايقه أن يراهم جميعاً راقدين هناك، يغطون في النوم.

مال مستنداً إلى شجرة التين البنغالي، وفرد رجليه واستمع إلى إيقاع مؤدي قاعة الأداء في المعبد. لعب ماهر بالكلمات.

عندما أصبحت السماء المثقلة بالغيوم صافية لدقيقة، أدهشه أن يرى سوميترا ترقد نائمة بالقرب من قدميه. كانت تبدو كأعجوبة لم يرها أبداً من قبل. كانت أنفاسها تتحرك في موجات رقيقة فوق الأوراق والأفرع قاتمة الخضرة على بلوزتها.

لم يعد يسمع ترتيل مؤدي الشعر. رقدت سوميترا مثل أميرة في جزيرة صغيرة من الضوء وسط الظلمة. وكان هو حاميها القوي، الذي يقف حارساً لها.

كانت تلك المرة الأولى التي وجد نفسه يرغب في النظر إلى سوميترا دون أن تعي نظراته.

عندما وصل إلى مجمّع إلّام، سمع شخصاً يغسل الملابس. وطفلاً يبكي بكاء متصلاً.

لابد أن كونهاتول في المطبخ. حسناً. لا أحد في الفناء الشمالي، حيث كانت النساء يرقصن في ذلك الصباح. تنحنح.

«من هذا؟»

«أنا، مادهافان».

فتحت كونهاتول الباب من المطبخ إلى الشرفة، ووقفت خلفه، لا يظهر إلا نصفها،

«هل قال جوفيندان أي شيء عن بقية قطعة الأرض الخاصة بالأرز، يا مادهافان؟»

«لم أره، سوف أسأل مرة أخرى».

«لقد أحضر خمسين بارة، بدلاً من المئتين التي اعتاد أن يجلبها إلى تشينجام. سيكون من الصعب أن تستمر الأمور بهذه الطريقة».

انتظر في هدوء. كيف يمكن أن يفتح الموضوع معها؟

«لابد أن تتناول الغداء معنا غداً يا مادهافان».

نعم. كان دائماً يتناول الغداء في مجمّع إلّام في اليوم التالي لعيد أونام. ودائماً كانت كونهاتول تلقي ورقة بخمس روبيات في يده عندما يأتي، «هذه لشراء ملابس من أجل العيد، أوني لا يعرف كيف يختار. اشتر شيئاً جيدا».

تردد. كان يستطيع، من خلال القضبان مسودة اللون، رؤية اللهب في المطبخ يحتدم ثم يخبو.

«هناك شيء أريد أن أقوله».

تساءل في نفسه إن كان صوته يبدو خشناً على غير العادة. وبدت الدوائر القاتمة تحت العينين في وجه كونهاتول أكثر عمقاً.

«ما هو؟»

انفرطت العبارات شبه المرتبة في عقله إلى نثار.

«لابد أن تعملي على تزويج أوني نامبوديري».

تهلل وجه كونهاتول. «نعم، كنت أريد أن أتحدث مع نامبوديري

في كيزاكينياث عن ذلك».

«أياً كان من يرتب لذلك، فالأفضل أن تستعجلوا. وإلا..!» أوقف نفسه.

«ما الأمر يا مادهافا؟ أخبرني، أياً كان الأمر».

بدا صوتها أقرب إلى الشعور بالألم وليس بالقلق.

«لا شيء».

كبت الكلمات التي كانت تغلي على سطح عقله، وقال: «دعينا نرى إن كان يستطيع أن يرعى أمور مجمّع إلّام على الأقل عندما يتزوج».

وغادر في الحال. وفي وسط الطريق عبر الحديقة، التفت، ونظر خلفه. كانت كونهاتول تقف ويدها على الباب كظل اتخذ ملجأ في الظلام.

وفكر غاضباً، سوف يتعرض مجمّع إلّام للتدمير، وسوف يتطاول أعضاء عائلة مابيلا على الأرض. وتمنى في قرارة نفسه أن تموت المرأة العجوز قبل أن يحدث هذا.

عندما كان طفلاً، سمع قصة لعنة فاراها مورتي، كيف كان يسير في كل مكان حاملاً أوعية نحاسية ساخنة لدرجة الاحمرار لحرق وجوه الناس، وكذلك أفرشة ملطخة بدم الدورة الشهرية لتلويث أرواحهم. كان يحفر الأرض بأنيابه ليحول المواقع التي أقيمت عليها مجمعات إلّام، وهي مقرات إقامة النامبوديري أتباع طائفة براهما، إلى برك.

يقولون إن مجمّع إلّام الخاص بأوني نامبوديري كان يمتد من مكان النجار رامان إلى الحد الأعلى من الأرض التي يمتلكها كاندان كولانجارا. وقد نقصت مساحته إلى رُبع حجمها السابق.

كانت عائلة مابيلا في الوقت الحالي تدير مصنع نسيج في أحد مجمعات إلّام على ضفة النهر. كان أعضاء النامبوديري، أتباع براهما، الذين يعيشون في مجمع إلّام على الربوة هم أكثر ملاك الأراضي ثراء في المنطقة. وحدث نزاع على الملكية وأعقبته قضية قانونية أدت إلى استنزافهم. وأجبروا على هدم البيت الخارجي الجديد وتقسيم الأرباح من بيع الطوب والألواح الخشبية بينهم.

وهنا؟ شعر مادهافان أن أوني نامبوديري هو بذرة التدمير التي ستجلب لعنة فاراها مورتي على مجمّع إلّام الخاص به.

كانت أمه قد أخبرته عندما كان طفلاً أن كل الأراضي والحقول في الريف كانت ملكاً لأعضاء نامبوديري من قرية بانييور. كانوا مزدهرين بفضل مباركة فاراها مورتي. وحاول أهالي بلدة شوكابورام أن يأخذوا هذه البركة منه، لكنهم لم ينجحوا. فاستخدموا جواسيس، وقام هؤلاء الجواسيس بتغطية تمثال فاراها مورتي بوعاء نحاسي ساخن لدرجة الاحمرار لكي يخمدوا قدرته. لكن الوعاء انفجر. وحينئذ وضع الكاهن قماشاً مغموساً بدم الطمث على التمثال لمساعدة أهالي شوكابورام. وحينئذ قفز فاراها مورتي من مكانه، صائحاً: «السفلة أهل الخسة!» والآن، كانت لعنته تتحقق.

سكنت الرياح. وبرزت أنياب السنوريات في السماء الملبدة بالغيوم.

حاول مادهافان أن ينام، ولكنه ظل يتقلب في مرقده بلا هوادة.

ولأنه يذهب إلى فاداكيتو من حين لآخر، كان الجميع يقولون، في ازدراء، «إنه هناك طوال الوقت. ما الذي حدث له بحق السماء؟» بل إن أختيه كانتا تعتقدان أنه يذهب هناك لأن الرغبة استولت عليه،

الرغبة في تلك الفتاة النحيلة ذات الوجه العظمي والشعر الأسود المثير للغثيان على خديها وشفتيها. كان يشعر بغضب عارم منهما.

كانت تلك العجوز العجفاء المصابة بالربو، الأم الكبيرة لفاداكيتو، هي التي بدأت تلك الإشاعات.

- مادهافان أحضر لنا عذقاً من موز النيندران.
- مادهافان يقول..
- مادهافان، مادهافان، مادهافان!
- تجلس في الشرفة وتنادي ديفو، «ديفو، أحضري له حصيرة».

لم تخرج ديفو أبداً. كان يشعر بدمه يغلي عندما يلمحون إلى أنها تخجل من مواجهته.

عابثته سوميترا، «تغيرت الأمور على أية حال»، وهي تقطع قرون الفلفل الأبيض التي نمت بالقرب من السياج، وتلقي بها في حجر الموندو الذي ترتديه. للحظة، نسي أن ديفو كانت خلف الباب، بانتظار أن يقول لها شيئاً بينما تخلط قرصاً في عصير الأعشاب.

من المؤكد أنهم سيفقدون صبرهم في يوم من الأيام، ويلقون بالنصائح والمواعظ حول الموضوع.

«مادهافا، كنت أريد أن أتحدث معك منذ وقت طويل».

«عن أي شيء؟»

«لا يمكن أن نستمر هكذا. الجميع يريدون أن يعرفوا متى سيحدث».

«عن أي شيء تتحدثين، أيتها الأم الكبيرة؟»

«عن ديفو».

وحينئذ...، سوف ينفجر كل شيء مثل هبات الريح المفاجئة... التي تعصف في شهر تولام. قال لنفسه، انتظر وسوف ترى.

3

منذ تقرر زواج أوني نامبوديري، تحدث الناس عن «كاراكاتو مانا»، وهو أحد مجمّعات إلّام الخاصة بأتباع براهما، ويقع إلى الشرق من القرية. بدا كأن القرويين الضجرين قد وقعوا فجأة على كنز.

قالت الأم إن أوني نامبوديري كان محظوظاً. وإن طيبة أمه جلبت له حظاً طيباً، برغم أنه كان شخصاً ساذجاً. فمجمّع إلّام هذا له دخل كبير. ولا تزال به أفيال. وسمع سيتو مصادفة سانكوني عازف الناي يصف فيل الكاراكاتو للخال مادهافا.

جاء أوني نامبوديري إلى بيت سيتو بمجرد تحديد موعد زواجه.

«أوني نامبوديري، ما الأخبار؟»

ابتسم أوني نامبوديري، وظل يحدق في الأرض، وفمه مليء بأوراق التنبول.

سألت الخالة الصغرى: «كم سيدفعون لك من النقود؟»

«ألفين».

«هل رأيت المرأة؟»

«بالطبع لا!» لم يكن أوني نامبوديري يهتم بمثل هذه الأشياء. قال إن تمثال المعبود كان محمولاً على ظهر فيل كاراكاتو في مهرجان معبد تيرومان تامكونو في العام الماضي. كان أوني نامبوديري راكباً على ظهر الفيل «كولنجود أيابان» في ذلك الوقت.

«لا يتزعزع عن مكانه بوصة واحدة، مهما كانت كمية الألعاب النارية هناك. ولم يحدث أبداً أن آذى أحداً».

كان الخال مادهافا قد عاد لتوه من مجمع إلّام. «هل رأيت الفيل كاراكات، يا مادهافا؟ إن منظره ممتع حقاً».

زمجر الخال مادهافا، بلا مبالاة.

«أعتقد أنه يسير مباشرة إلى الحظيرة عندما يكون متهيجاً!»

حدق الخال مادهافا إلى بستان الممبوزيا، وقال: «حتى الحيوانات لديها عقل، فقط أوني نامبوديري لا عقل لديه».

ضحك أوني نامبوديري. ولعب بمصباحه، يفتحه ويغلقه. كان يحمله معه حتى أثناء النهار.

حاولت الخالة أن تنصح أوني نامبوديري. قالت إنه بمجرد أن يتزوج ينبغي أن يهتم بشؤون المجمّع، وألا يتجول في مواقع المهرجانات على ظهر الفيل. فالمرأة التي سيتزوجها من عائلة طيبة، وينبغي أن لا يتسبب لها في المعاناة. اتسعت ابتسامة أوني نامبوديري. وعندما غادر، توجهت الخالة الصغرى إلى الخال مادهافا تسأله:

«هل صحيح أنهم سيدفعون له ألفي روبية مهراً؟»

تظاهر الخال مادهافا بأنه لا يسمع.

توترت الخالة الصغرى. «أنت المدير الرئيسي لمجمع إلّام، أليس كذلك؟ لهذا سألتك».

«لا أعرف، لم أسأل. لماذا لا تذهبين وتكتشفي الأمر إن كنت مهتمة جداً هكذا؟» وسار الخال مادهافا نحو الربوة، حيث كان يمكن سماع أصوات قطع خشب النار على أيدي المزارعين الشيرومان طوال اليوم

من أجل الحفل.

إلى جانب الآخرين من أعضاء النامبوديري، كان ينبغي أن يذهب اثنان من الناير مع أوني نامبوديري. طلبت كونهاتول من الخال مادهافا أن يذهب، لكنه قال إنه سوف يرسل نارايامان ناير وسانكوني.

«لا أستطيع ترك المكان. هناك أشياء كثيرة لابد أن أشرف عليها».

كان مجمع إلّام مليئاً بالناس في اليوم السابق لإحضار العروس إلى بيتها. قال شخص، «لديهم أفيال وثروة كافية في مجمع إلّام كاراكات، لكنهم يتخلصون من العروس التي لا يريدها أحد».

«هذا هو الأمر إذن. كنت أتعجب مِمَّن يعطي لهذا الأبله مهراً بألفي روبية».

حاولت الأم قدر استطاعتها أن تقنع سيتو بالذهاب إلى حفل الزواج، لكنه لم يشأ الذهاب. «سيكون هناك زحام شديد. لا أستطيع أن أترك نفسي نهباً لكل قواعد التلوث التي يصنعها هؤلاء النامبوديري».

«ولكن السيدة العجوز جاءت إلى السياج مرتين أو ثلاث مرات لدعوتك».

لم يكن ليتزحزح. حتى أن الأم أقدمت على تهديده بلعنة براهمية.

وهكذا، ذهب، على مضض وكراهة.

كانت الحديقة مليئة بعائلات الشيرومان بانتظار المأدبة العامة. وراحت نساء الناير اللائي جئن مع العروس يثرثرن بأصوات مرتفعة في الفناء الشمالي. وراح رجال الناير يتحركون في كل مكان ينظمون المأدبة. ذهب سيتو إلى الشرفة الأمامية، وهو غاضب من أمه في داخله.

ووقع نظره على كاندان كولانجارا تشينان مينون وابنه، ذهب إليهما. كان في الشرفة حشد من النامبوديري، يتحدثون بصوت مرتفع حتى أن العالم كله يمكن أن يسمعهم. وارتفعت قعقعة القدور وغيرها من أواني الطبخ في الظلة المسقوفة على الجانب الجنوبي.

كان الخال هو المشرف الرئيسي. جاء إلى تشينان مينون «لن يطول الأمر كثيراً. لقد قمت بكل الترتيبات».

فكر سيتو في العروس الجديدة من كاراكات. جاء شخص إلى البيت بالأمس وقال إنها كانت قصيرة وتتبختر في مشيتها مثل البطة، وأنهم أطلقوا عليها «أوفوتانجي»، أي «دعامة الحوض». من ذلك الذي كان أول من فكر ثم أطلق عليها اسم الشكل القبيح الذي يقف تحت الحوض الحجري في معبد شيفا، والذي تتدفق من خلاله البحيرة المقدسة؟

وطُلب من أحد الأشخاص أن يعطي علامة بمجرد أن يعبر موكب العروس النهر. ورتب الخال مادهافا لجماعة من نساء ناير الترحيب بهم بالزغاريد. كان الخال مادهافا في كل مكان.

قال تشينان مينون لابنه: «هيا بنا يا أوني. لو انتظرنا أن ينتهي النامبوديري من طعامهم، سوف نتضور جوعاً حتى المساء».

قال أحد المساعدين: «إنك لا تفعل ذلك كل يوم، فقط هذه المرة».
وفكر سيتو أنه من المحتمل لم يتعرف على كاندان كولانجارا مينون.

كانت التقاليد أن تأكل نساء وأطفال النامبوديري أولاً، ثم رجال النامبوديري. ويمكن أن يأكل المدعوون من الناير في الدور الثالث. وقرر سيتو أن يغادر مع تشينان مينون وأوني كريشنان، لكن الخال

مادهافا ظهر في تلك اللحظة.

«مينون، تعال، وتعالا كلاكما. لقد أعددت لوضع بعض الأوراق النباتية على أرضية الجناح الجنوبي قبل أن يدخل الحشد. هل هناك أحد آخر؟»

كانت الناحية الجنوبية في العادة محجوزة للنامبوديري. وهذه أول مرة تُخالف فيها التقاليد ويُسمح لعدد قليل من أعضاء الناير المتميزين بالأكل هناك. وبينما هم خارجون بعد تناول الطعام، تردد صدى الزغاريد في الهواء. وصل أوني نامبوديري مع عروسه.

سار سيتو عائداً عبر الحقل مع مينون. وسأله مينون، «في أي فصل أنت الآن؟»

«أنا أدرس في السنة الوسطى».

أرادت الأم ان تعرف كل ما حدث في الحفل. كان الزفاف في مجمع إلّام هو الموضوع الوحيد الذي تدور حوله الأحاديث لتسعة أيام متتالية. والآن انتهى الحفل.

صعد سيتو إلى الطابق العلوي، ووقف بجوار النافذة، ناظرا إلى الخارج. خبت الزغاريد. لابد أن المأدبة بدأت.

كتب رسالة طويلة إلى كريشنان كوتي.

اكتشف معنى الضجر. كل يوم يبدأ مثل سابقه بالضبط، وينتهي مثله أيضاً، كل غد يعطي وعداً بأن يكون نفس الأمس. وتعجب إن كان ينبغي أن يضيف أن سوميترا لم تعد في البيت. تلكأت العبارة في عقله للحظة، ثم صرف نظره عنها.

أرسل رسالته وراح يتصفح جرائد قديمة في دكان المؤن. كان

يعرف أنه لن يجد رسائل له، ولكنه انتظر على أية حال حتى جاء ساعي البريد وقرأ فيلايودان ماستر بصوت عال كل العناوين. سار فوق أحواض غرس الأرز إلى المعبد المتهدم.

كان رب المعبد نائماً.

فجأة أراد أن يكتب قصيدة إلى الرب الذي يرقد يحلم بالأزمنة الماضية، عند تأدية طقوس التقديس وتقديم القربان له. كانت الفتيات الصغيرات يسرن عابرات يحملن أوعية نحاسية لامعة مليئة بالأرز وحزم من خشب النار، وقد عقدت أطراف شعورهن الطويلة المبللة في عقد صغيرة، وعلى جبين كل منهن علامة من معجون الصندل. كان الممر المؤدي إلى براداكشينام مغطى بحشائش متشابكة، وكانت حيوانات الجاموس ترعى هناك، وتصدر من حين لآخر أصوات خوار تعبيراً عن الرضا. جلس على عمود حجري كان نصف مدفون في الرمل.

راحت الكلمات المراوغة ترفرف داخل عقله كعصافير مزقزقة. اكتشف أن أطفال الشيرومان الذين كانوا يلعبون بالزهر في قاعة الصلاة المتهدمة كانوا يحدقون فيه، وقاموا واقفين، شاعرين بأنفسهم.

«هل أنت ذاهب، أيها السيد المحترم؟»

تظاهر بأنه لم يسمع.

«اعطنا بيدي، أيها السيد المحترم».

«في ألق ألف مصباح أرضي صغير».

لا. رفضت الأفكار حول الرب الذي يعيش الآن في ذكريات الماضي أن تقع في شرك الكلمات.

وصورة فتاة صغيرة، عيناها تومضان بشعاع ألف مصباح، لن تجد أبداً مكاناً في أفكار رب من الأرباب.

وصل إلى البيت حين بدأ الظلام يدخل على الدنيا. أحضرت بادمو المصباح إلى الخارج وأشعلت الفتائل الثلاث التي تواجه الغرب عند الدرجات الأمامية.

جاء نانو ناير، وشبك يديه أمام المصباح وابتسم لسيتو. كانت الأم في الشرفة، تتخبط في صندوق التنبول الخاص بها.

«كنت أريد أن آتي. فكرت أن أتحدث إليك عندما أحضر من هذا الطريق من أجل حفل الزواج».

أغلقت الأم صندوق التنبول وانتظرت في صمت. راح سيتو يقطع الفناء ذهاباً وإياباً عدة مرات، وتوقف بالقرب من الحائط المتداعي.

فجأة ارتفع صوت الأم: «أنا لست بلهاء، يا نانو ناير». اندفعت الخالة الصغرى خارجة، في لهفة أن لا يفوتها شيء. كانت قد انتهت لتوها من حمامها، ولا تزال تعقد أطراف الجزء الأعلى من ردائها،

«أعرف ماذا يحدث، فلي عينان وأذنان».

من ذلك الذي أغضب الأم؟

«هذه الأشياء ينبغي فعلها في الوقت الصحيح. أنت أكبر منه، ولك أن تفكر في الأمر ملياً وأن تقرر».

اكتشف سيتو أنهما يتحدثان عن الخال مادهافا. وشعر بالحرج عندما كررت الأم شكواها منه. فهو دائماً في فاداكيتو، يشرب الشاي ويتحدث إليهم.

«فكر فقط في هذا، وصل الأمر لدرجة أنه أكل هناك في عيد ميلاد

الصغيرة كارتو».

تدخلت الخالة: «أليس عندنا طفلة صغيرة أيضاً؟ ولكن لا، لم تكن مدعوة. لم توجه الدعوة لسواه».

لو كان هناك سمك طيب في السوق، يصل دائماً إلى فاداكيتو.

وحذرت الأم الخالة، «الزمي الصمت. أنا التي سأتحدث».

ولكي تثير الأم، غيرت الخالة فجأة من موقفها. «على أية حال، هو في الأربعين من عمره، وله تفكيره الخاص. فإذا أراد أن يبدأ علاقة زواج هناك، فليكن. هل تعرف، يا نانو ناير، أن أختي الكبرى نفسها هي التي دفعته لزيارتهم في المقام الأول؟»

«أنا لا أنكر ذلك، هل أنكرت؟ صحيح أنني فعلت هذا. كنت أظنهم أمناء لا يؤذون، وأنهم ليس لديهم من يساعدهم. ولا يعني ذلك أنني كنت أراهم شيئاً مهماً جداً. بل كنت فقط أرثي لحالهم».

«وهل تغير هذا إذن؟ لا يزالون أمناء ولا يؤذون، وليس لديهم من يساعدهم. حتى الآن».

«هذا هو ما لا تدركينه. لقد أوقعوا مادهافان في المصيدة. إنني أكاد أجن وأنا أراهم يتصرفون كما لو كانوا «أورفاشي»، المسيطر على القلوب. لو كان يريد الآن أن يبدأ علاقة زواج على طريقة السامباندهام، فسوف يطيرون سعادة وفخرا».

قال نانو ناير: «انظري». تنحنح وبصق. ووقف، ونقل حصيرته قريباً من الأم، وخفض صوته، وقال:

«مادهافان لن يسير في الاتجاه الذي تظنين».

أخفت الأم دهشتها.

إذن، كان الخال مادهافا هو من أرسل نانو ناير كرسول منه، لجعل أختيه توافقان. ويمكن إعلام الأب برسالة، دائماً. وعائلة فاداكيتو يمكن سؤالها أن تقرر في تاريخ مناسب.

عبرت الخالة عن تلك الفكرة التي خطرت لسيتو. «إذن، مادهافان يريد هذا. كيف يمكن أن تلوم رجلاً على ذلك؟»

«ولكن، ماذا يرى فيها؟ إنها لا تحمل أية مسحة من الجمال، تلك التعسة».

«إنه ليس مهتماً بالكبرى».

«إذن؟» هل وصل صوته للأم والخالة؟ حاول سيتو أن يتبين.

«هناك الثانية».

«من، سوميترا؟»

«لا أعرف الاسم الذي يطلقونه عليها، سوميترا أو كايكايي».

فجأة توقف النسيم الناعم الذي كان يتهادى عبر نخيل الأريكا إلى الفناء. لم يتحدث أحد. انتظر سيتو، مستمعاً إلى دقات قلبه.

وشعر بالارتياح عندما سمع صوت الأم بعد ما بدا له لا نهاية لها أياماً وليالي.

«يا ربي! ماذا جرى له؟»

«لقد تحدثت معه. كما أنهم لن يرحبوا بتزويج الصغيرة بينما لا تزال الكبرى غير متزوجة. هل تعرفين ماذا قال؟ إنه يمكن أن يجد زوجاً لديفو».

تظاهر سيتو بأنه لم يسمع شيئاً، ومر بهم بسرعة متجهاً إلى الطابق العلوي.

كان المكان مظلماً، لكنه لم يطلب مصباحاً من بادمو.

رقد على حافة النافذة، وقد ملأه الحنق والرغبة في انتقام أعمى.

أن يرى في الخال مادهافا عدواً، منافساً! بأسنانه الصفراء، والرائحة الكريهة لدخان البيدي، وجسده الأسود المشعر.

كان يشعر بالرثاء له في الماضي. لكن الخال مادهافا الآن بدا له أشبه بشيطان «الراكشاسا». في قصص طفولته، كان هذا الشيطان يلوح بهراوة تنبعث منها أشواك ضخمة كالمسامير، ويقف حارساً على قلعة حجرية منيعة.

ذهب إلى الفراش وهو يشعر باليأس والغضب. لن يكون أبداً ذلك الأمير الذي يصل إلى باب القلعة حاملاً الأحجار السحرية السبعة التي ستطلق الأميرة من سجنها. لن يكون هذا أبداً.

فكر في سوميترا راقدة على الأرضية ذات اللون الأصفر القاتم، وبشرتها بلون خشب الصندل، وبشفتيها الرطبتين المنفرجتين، وعينيها المغمضتين.

وشعر بالألم يعتصره وهو يفكر أنها لا تعلم شيئاً عن هذا الخطر، وهي مبعدة في بيت زوجة أبوني مينون في تيرور.

كانت تلك المرة الأولى التي ذاق فيها مرارة الغيرة، الغضب والألم من الحب الذي لا يفهمه إلا فتى في الثامنة عشرة من عمره.

وتذكر كيف اعتادت سوميترا أن تتبعه كالظل المُعادي له عندما كان يجري حول بساتين المانجو وأشجار الممبوزيا وهو صبي صغير، وقد ربط الشورت الذي يرتديه بأزراره المقطوعة إلى وسطه بخيط. كانت تلتقط ثمرة مانجو مهشمة بأصابعها المغطاة بالبثور وتعطيها له

بمودة، وكان يشعر بالغثيان. اعتادت أن تستحم في مغطس النهر التالي لمغطسه، مرتدية رداء أحمر باهتا. فإذا جاءت إليه، كان يتحرك مبتعداً. ثم، ذات يوم، قابلها على سفح الربوة، وذابت السنوات. لم تعد ذلك الظل المُعادي، لقد أصبحت الأميرة الجميلة في القصة الخيالية التي استطاعت كسر التعويذة الشريرة.

بعد ذلك، أصبحت على مسافة منه، وتحركت بعيداً عنه. وأصبح يخشى حتى أن ينادي اسمها بصوته الأجش الذي بدأ ينكسر.

عندما أصبحت الحياة حلماً، وأصبحت هي العالم، كان ينتظر بالخارج. العدو الصغير بالأمس الذي تحول في ليلة وضحاها إلى امرأة، وراحت تبتعد عنه وليس بيده سوى أن يراقب ما يحدث في حنق.

لم يكن هناك من يستطيع أن يتحدث معه. ليس هناك من يمكن أن يهتم بأحلام فتى في الثامنة عشرة.

وبدا النخيل تخرج منه هراوات حديد يحملها في أياديه الضخمة. شعر برجفة تسري في بدنه.

4

زحف الليل ببطء. في الصباح الباكر، سمع ثغاء الماعز في الخارج. انتزع نفسه من النعاس، وقام.

نعم، كان هذا صوت سوميترا.

قبض على قضبان النافذة وأصاخ السمع. سألت الأم ببرود، محاولة السيطرة على غضبها:

«إذن، متى عدت؟»

لم يسمع إجابتها. فرك النوم من عينيه، وأسرع ينزل فقط ليجد أن سوميترا صعدت الربوة مع عنزاتها.

لابد أن الأم أصيبت بالدهشة لرؤيته مستيقظاً في هذا الوقت المبكر. فمنذ عاد إلى البيت من الكلية، ازداد اعتياده على الرقاد في الفراش حتى تشتد حرارة الشمس. بادمو، التي كانت دائماً تستيقظ مع الخالة، كانت في الفناء، تتابع الشيرومي العجوز في الفناء بمكنستها الصغيرة وجاروفها. زعق في وجهها بلا سبب:

«ادخلي يا بنت، لا توسخي المكان». نظرت إليه، وامتلأت عيناها الكبيرتان بالخوف، وسارت ببطء مبتعدة.

لم يكلف نفسه عناء الاغتسال. مسح وجهه بطرف الموندو الذي يرتديه، ومشط شعره بأصابعه، وبسرعة انطلق إلى الربوة.

كانت عنزات سوميترا تبحث عن العيدان الطازجة في الأكمات. نظرت العنزة الأم بضرعيها الممتلئين نحو سيتو نظرة باهتة، وتحركت مبتعدة. لم تكن سوميترا ظاهرة لعينيه. كما لم يبحث عنها. كان يريد أن يلتقيها مصادفة. سار عبر كتلة من أشجار الممبوزيا، مجتازاً الدرب ومتسكعاً حتى النخيل. ثم التفت وسار عائداً إلى المجمع القريب من مجمع إلّام، الذي كان ملكاً لأحد أعضاء طائفة المابيلا. وكان قد أحاطه بسور ليزرع محاصيل جذرية. التقط سيتو بعض الحجارة، وألقى بها على الماعز، ثم عاد إلى البيت.

منذ إغلاق سور عائلة فاداكيتو، كان عليه أن يدور حول الحقول إذا أراد أن يرى سوميترا.

قال لنفسه، لا أريد أن أرى أحداً. سوميترا لا تعني لي أي شيء.

جلس في الطابق العلوي حتى جاء وقت الطعام، يرهف أذنيه طوال الوقت بانتظار أن يسمع صوتها.

كان يشعر دائماً بالتعاسة عندما تأتي بادمو وتدعوه لتناول طعام الغداء. على أية حال، لم يمر وقت طويل منذ كان ينظر بامتعاض وضيق إلى أخيه الأكبر باراميسوارا وهو يأكل الأرز، لعلمه بأنه هو نفسه سوف يقدم إليه الكانجي. والآن وقد شب عن الطوق، يُطهى له الأرز كل يوم بعد الظهر، ولا تقدم سلطانيات الكانجي للآخرين إلا بعد أن ينتهي من تناول وجبته. وإذا مرت بادمو وهو يأكل، سوف يشعر سيتو بأن الأرز بطعم الحصى، ولن يستطيع أن يكمل طعامه.

وكثيراً ما فكر فيما قاله كريشنان كوتي، إن الفقر ليس جريمة. لكن الأم والخالة كانتا دائماً تحاولان إخفاء تلك الجريمة عنه هنا.

يا صديقي، أصبحت غريباً في بيتي لسبب لا أعرفه.

كل من في البيت يستعد لقيلولة بعد الظهر، يمسح كل منهم قطعة الأرض التي سيتمدد عليها. خرج مرة أخرى نحو الربوة في شمس العصر.

كان إذا وقف في ظل النخيل بالقرب من ضريح براهما راكشاسو، يستطيع رؤية جزء من فناء فاداكيتو وأرضية حظيرة مواشيهم المتداعية.

سوف يستدعيها بفعل الإرادة.

تذكر شيئاً كان قد تعلمه في الفصل. إذا ظل البشر يدعون لقرون أمام صور مقدسة مصنوعة من الحجر أو الخشب، فإن إيمانهم سوف يمنح التماثيل الخالية من الحياة قوة سحرية.

ولم يعرف، أهي قوة إيمانه، أو شدة النبضات الكهربية في مخه، لكن سوميترا جاءت على الطريق المفروش بالحصى، تتصبب عرقا تحت الشمس اللاهبة. أراد أن يضحك في غرور بانتصاره.

«ماذا تفعل هنا، يا سيتو؟»

«لا شيء».

«إننا ننظف أرضية الجناح الجنوبي. وأنا ذاهبة لإحضار حجر صقل من دكان بارو».

هل زاد وزنها؟ كان الطرف الأحمر لبلوزتها الساتان الصفراء مبللاً بالعرق. استمرت في سيرها، ونادى عليها.

أراد أن يسألها عن البيت الكبير في تيرور. وعن الناس الذين يعيشون هناك. هل هذه السلسلة الذهبية الصغيرة ذات المعلقات الشبيهة بالأرز المضروب التي ترقد مرتاحة حول رقبتها هدية من زوجة كاندان كولانجارا مينون؟

تلعثم وهو يحاول الكلام.

سألت: «متى سترحل، يا سيتو؟»، ووجد فرصته. «هل تريدين مني أن أرحل بسرعة؟»

ضحكت سوميترا، وتجاهلت نغمة التأنيب في كلماته.

«ماذا يضحكك؟»

هزت رأسها، ولا تزال تضحك.

«سيتو، برغم أنك في الكلية وكل هذا، لا تزال طفلاً».

اشتعل الغضب في نفسه.

«سمعت عن زواج الخال مادهافا».

لكن لا، لم يبد على سوميترا الشعور بالذنب، كما كان يتوقع.

«أوه نعم، أعرف».

«لماذا يأتي الخال مادهافا إلى بيتكم كثيرا؟»

«من يعلم؟»

«أنا متأكد أن ذلك لكي يراك».

ضحكت سوميترا بصوت مرتفع مرة أخرى. وسارت بضع خطوات، ثم التفتت، وبصقت، وعادت وهي تمسح ذقنها. وفكر أن عينيها تبدوان مبللتين.

«سأموت من الضحك يا سيتو، وأنا أستمع لك».

تمالك نفسه، وحدق فيها، بعينين قصد بهما أن يقول لها، انظري لي وسنرى إن كنت تستطيعين الضحك.

«عند عودتي كنت أظن أنك قد رحلت. لكن كارتو أخبرتني أنك لا تزال هنا».

«متى يكون الزواج؟»

وبدا على سوميترا بعض التشوش للحظة. ثم قالت في هدوء، دون أن تتغير ابتسامتها،

«في أقرب وقت. سوف تأتي، أليس كذلك؟»

أراد أن يهزها بشدة، ويسألها: ما الذي رأيته في هذا الرجل أسود البشرة بأسنانه الصفراء ورائحة دخان البيدي المنبعثة منه؟ لكنه سار مبتعداً، وقد حنى رأسه، وكأنما كان ذلك مجرد مصادفة غير مقصودة. كان يعلم أنها وراءه. نادته وهو يدلف إلى الطريق بين الزروع.

«سيتو، انظر».

توقف، لكنه لم ينظر إلى الخلف.

«لن يكون حفل زواج كبير جداً، لكنك لابد أن تأتي».

لم يجب. أسرع في طريقه مبتعداً وهو يتمتم بأبيات من قصيدة للشاعر تشانجام بوزها تصف النساء بأنهن أصل كل دمار.

جلس بالطابق العلوي، وظل يرقب ضوء النهار يخبو وليل آخر يزحف. كان قد انتهى من قراءة أحد الكتابين اللذين أخذهما من مكتبة الكلية. وبدأ في رواية هاردي. عندما وصل إلى الجزء الذي كادت فيه الزوجة أن تُباع، سمع الأم والخالة تتحدثان بحيوية بالأسفل.

«ماذا كان نجم الأمس؟ بادمو، ضعي ماء للشاي. وقدمي صحيفة التقويم لأخيك الأكبر سيتو».

نزل سيتو. جاء بانكوتي، ابن فاتوفان الذي يسكن في الكوخ الصغير المسقوف بالقش في مجمع عائلة الأب.

«أنجبت ساروجيني طفلة يا سيتو، بالأمس في حوالي السادسة والنصف. لا يمكن أن يكون نجم الأمس هو بوراتام إذن، لابد أنه أوتراتام».

بحث سيتو في الروزنامة. وشعرت الأم بالراحة عندما وجد أنه كان أوتراتام. «بوراتام ليس نجما جيداً. ونحن نقلق دائماً من تأثيره الشرير».

طُلب من الخالة أن تصنع شاياً وثريداً. نادت الأم على سيتو ليدخل «هل معك أي نقود، يا بني؟»

توتر سيتو، «من أين؟»

تمتمت الأم، «لابد أن أعطيه على الأقل خمس روبيات، ألا ينبغي

أن أفعل عندما يحضر لنا أخباراً عن ميلاد طفل؟ سوف أرسل بادمو إلى مجمع إلّام. أعطني موندو نظيفاً مغسولاً، إن كان لديك واحد، لأعطيه لبانكوتي».

بدأ يتناقش مع الأم، فأسكتته، «شش... بصوت خافت، لا تدعه يسمعك. لا أريد واحداً جديداً جداً، على ألا يكون قديماً جداً».

راحت الأم تسير ذهاباً وإياباً بقلق بالغ حتى أكل بانكوتي وغادر ومعه الروبيات الخمس وموندو نظيف مغسول.

وأثناء تناوله العشاء في تلك الليلة، سألته الأم، «لماذا لا تذهب هناك غداً؟»

«أين؟»

«إلى بيت أبيك. إن لم يذهب أحد لرؤية الطفل، سوف يلومني الجميع».

«اذهبي أنت، يا أمي».

ظلت الأم صامتة للحظة. همم.... هذا كل ما أحتاج لفعله الآن. أنت ليس لديك ما تفعله، يا سيتو مادهافان، ما الذي يمنعك من الذهاب؟»

كان قد ذهب إلى بيت أبيه مرة واحدة، بعد زواج أخيه الأكبر باراميسوارا، منذ خمس سنوات.

فكر في ناليني إيداتي، وعمتيه، فاليا وتشيريا، وفجأة شعر بالرغبة في الذهاب. خرجت الأم في الصباح الباكر واستطاعت أن تقترض عشر روبيات من مكان ما، لكنه ظل يتظاهر بأنه غير مهتم. حتى عندما طلبت منه أن يعطي القابلة روبية، قال متذمراً: «يا له من

إزعاج، كل هذا!»

ولكن، في داخله، كان يريد أن تعرف أخوات أبيه أن الصبي الذي كان صغيراً منذ خمس سنوات، بقميصه المقلم ووجهه الملطخ قد أصبح شاباً ناضجاً.

وعند انطلاقه حاملاً صرة تحتوي ملابسه، نادت ديفو من البوابة:

«إلى أين يا سيتو؟»

«إلى تريسور».

لم ينظر إلى تلك الناحية. لم يكن يهتم إن سمعت سوميترا أو لم تسمع.

وبينما أمسك بالحاجز الحديد للعبارة بين صيادي السمك والحمالين، يتصبب منه العرق بغزارة، فكر في الأخت الكبرى ناليني.

كانت ناليني إيداتي في الصف العاشر عندما كان هناك منذ خمس سنوات. ذهبت إلى كانانور لدراسة منهج تدريبي لتصبح معلمة، ولكنها لم تكمل دراستها. سمعت العائلة أنها وقعت في غرام فتى مسيحي كان زميلاً لها. كانت أمها هي أول من يعلم. وذهب الأخ الأكبر باراميسوارا لإعادتها، لكنها رفضت العودة. كان قد سمع همسات بأنها هربت لتعيش مع الفتى المسيحي. واستدعي الأب بتلغراف، كي يستطيع تزويجها عندما تعود إلى البيت في العطلة. لكن ناليني رفضت أن تعود. ذهب الأب والأخ الأكبر باراميسوارا وأحضروها بالقوة. وأمر الأب بأن تحبس في غرفتها. لم يكن هناك زواج. وخشية أن تهرب ابنة أخته، عيَّن الأب حارساً. وبعد ذلك لم يعد أحد يتحدث عن ناليني إيداتي. كان سيتو دائماً يريد أن يسأل أمها

عنها، لكنها لم تذكر أو تشر إلى وجودها.

كانت ناليني مرتفعة الصوت دائماً ما ترسم نقطة الجبهة، بيندي، كبيرة، وتضع في ذراعها أساور من الرسغ إلى المرفق، وتستطيع أن تصفر بفمها مثل الصبيان. كان سيتو يحب أن يرى الزهور الملونة التي تزين أطراف ردائها فاتح اللون.

بعد أن عبروا كومة الصخور الكبيرة، والمعبد المتهدم ومصنع القرميد، وبدأ الدرب يتلوى صاعداً، نادى السائق لكي يقف. لكن السائق، الذي كان مشغولاً بتبادل النكات مع الركاب الجالسين في الخلف بينما يحك نفسه على نحو فاحش، ارتفعت رجل سرواله، ولم يلق بالاً واستمر في محاولاته لتسلية الركاب.

وتوقف السائق مشكوراً، لكن فقط عندما وصلوا إلى سفح التل. استطاع سيتو النجاة من هذه القطعة من الجحيم.

5

ها هو الدرب المألوف الزلق بما فيه من رمال، وشجرة التين البنغالي العظيمة. تراكمت أفرع نخيل جوز الهند، وقشر جوز الهند وأفرع الموز تحت شجرة التين البنغالي. كان يجري مخترقاً بيت العامل متى جاء من الحمام في المعبد عند الغسق، لتجنب شجرة التين البنغالي، لأن السحر الأسود كان دائماً يمارس تحتها.

كان بيتا كبيراً. وكان يفخر بالطريقة التي يمتد بها وسط بستان جوز الهند. كانت أفرع شجرة المانجو في الفناء تمتد حتى شرفة الطابق العلوي بسياجها الخشبي الأسود.

برغم ذلك، فهذا لم يكن بيته. كان هنا مجرد زائر.

وبينما يعبر الفناء الخالي، ويصعد إلى الشرفة، ناداه شخص ما: «من هناك؟»

تحرك جانباً ليفسح الطريق للمرأة التي دخلت حاملة كومة من الملابس الجافة التي جمعتها من فوق حبال الغسيل.

«إنه سيتو، أليس كذلك؟ يا ربي! لم أعرفك في البداية!»

الأخت الكبرى ناليني.

بدت أكثر نحافة وأطراف ثيابها بالية وباهتة الألوان.

خرجت العمة تشيريا. كان سعيداً لرؤية أخوات أبيه؛ كن وقورات للغاية. كانت لديهن مصاطب خاصة عند الدرجات المؤدية إلى النهر في العزبة كل صباح ويرتدين ثيابا نظيفة بيضاء ويضعن على جباههن علامة من معجون الصندل. شعر بالخجل الشديد من أمه وخالته اللتين ترتديان بشاكير قصيرة وصغيرة تظهر من تحتها ملابسهما الداخلية الرثة.

«ها أنت قد أصبحت شخصاً كبيراً، تذهب إلى الكلية وكل شيء. ولكن، تستطيع أن تزورنا بين حين وآخر».

«أين العمة فاليا؟»

«ذهبت لتستحم. أعطني هذه الصرة الآن». أخذت الأخت الكبرى ناليني اللفة الورقية التي كانت معه وأحضرت له ماء ليغسل قدميه.

عادت العمة فاليا.

«هل رأيت الطفل؟»

كانت الغرفة الصغيرة المظلمة مثقلة برائحة الديتول والملابس المبللة.

رفعت زوجة أخيه الأكبر رأسها لتسأل: «لماذا لم تأت الوالدة يا سيتو؟»

«قالت إنها ستأتي فيما بعد، مع أخي الأكبر».

جاء الوليد تحمله المرأة التي ترعاه، ملفوفاً في قماش قذر. وبدا له أن عينيه الناعستين تخشيان الضوء.

«انظر من أتى. إنه خالك سيتو!»

«أين أوني وشيامالا؟»

قالت زوجة أخيه: «ذهبتا مع أخي الأكبر. إذا بقيتا هنا لن أجد دقيقة واحدة للراحة». «هل باب الطابق العلوي مفتوح يا آمي؟ المقعد القابل للطي تم تخزينه، والعصا التي تقيمه تحت السرير النقال».

كانت الغرفة بالطابق الأعلى هي غرفة زوجة الأخ. قامت ناليني إيداتي بفتح النوافذ.

«اجلس يا سيتو. هل جئت بالأتوبيس؟»

رأى صورته منعكسة في المرآة الكبيرة وهو يقف عند النافذة ممسكاً بالقضبان المربعة. كانت هناك صورة كبيرة موضوعة في إطار للأخ الأكبر وزوجته معلقة فوق النافذة الأخرى.

جاءت العمة فاليا حاملة ثمار مانجو في طبق فضي، وشاياً في كوب من البرونز.

أزالت ناليني الملاءة التي كانت فوق السرير النقال، ونفضت الفرشة.

«أين رافي؟»

«خرج. سيعود سريعاً».

كان رافي، ابن عمته تشيريا، من نفس سن سيتو. جمعت بينهما الصداقة في طفولتهما. كان رافي يدعو سيتو إيتان لأن سيتو كان أكبر منه بثلاثة أشهر.

تغيرت نالييني إيداتي كثيراً في خمس سنوات! فقدت الكثير من شعرها حتى أن فروة رأسها كانت تبدو عارية من الشعر في بعض الأماكن. أما ذراعاها، التي اعتادت أن تغطيهما حتى المرفق بالأساور الزجاجية الملونة، فكانا عاريين. وكانت ذابلة كزهرة غارقة في المطر، واختنقت وسط الرمال المبللة.

«كنت أريد أن أكتب لك منذ عرفت أنك في الكلية».

«ألم تعودي أبداً لتأدية امتحاناتك، يا نالييني إيداتي؟»

توترت قبضة نالييني إيداتي على إطار الباب، خفضت رأسها وحاولت أن تبتسم.

«امتحانات! أنا الآن شديدة الكسل حتى أنني لا أستطيع أن أسجل عدد الملابس التي أعطيتها للمرأة الغسالة. لقد انتهى كل شيء».

لم يقل سيتو أي شيء.

«عندما تنتهي من دراستك وتبدأ العمل. هذا هو ما أردت أن أكتب لك حوله». أدارت نالييني إيداتي وجهها بعيداً عنه، «خطر لي فجأة ذات يوم. إن أختي الكبرى تخجل من أن تأخذني معها. فإن كنت يوماً بحاجة إلى شخص يأتي ويعتني بأطفالك، فلابد أن ترسل لي».

وقف سيتو ساكناً. خرجت بالملاءة وكيس المخدة القديمين.

وعندما عادت باثنين جديدين، كان لا يزال واقفاً عند النافذة.

«لا تقلق، فأنا لست مجنونة أو أي شيء من هذا النوع. هل ترتدي سروالاً في الكلية يا سيتو؟»

«ليس عندي سروال».

«لقد رأيت في التقويم أنه يوم عيد الفصح. عندما كنت في كانانور....».

توقفت عن الكلام، وبدا كأنها أرادت أن تهز رأسها لطرد شيء خارجه. «يا له من كلام فارغ هذا الذي أهرف به. اجلس يا سيتو».

سمع صياحا من الطابق الأسفل، «سيتو إيتا!»

وصل رافي. سمع درجات السلم وألواح السقف ترتج تحت قدمي رافي أثناء صعوده.

أصابته الدهشة عندما رأى أن رافي قد أصبح أكبر منه حجماً بكثير. كانت ياقة قميصه المقلم، الذي صنعه خياط القرية، واسعة للغاية. كان يتصبب عرقاً. وكان قميصه غير مزرر، وتظهر تحته الصدرية القذرة. بدا أقرب نوعاً إلى الفلاحين. ولاحظ سيتو أن رافي لا يزال يرتدي قرطيه من الحجر الأحمر.

أجفل سيتو متراجعاً عندما سقطت يد ثقيلة على كتفه.

«سيتو إيتا، أنا أطول منك». وقفا متجاورين لقياس من منهما أطول. فتح رافي صُرَّة سيتو وتفحص محتوياتها. وأخرج القمصان النظيفة المكوية وأخذها إلى النافذة وسأل عن ثمن كل واحد منها.

«هل ستنجح هذه المرة؟»

«لقد ضقت ذرعاً بالدرس، يا سيتو إيتا. سوف أقتل ناظر المدرسة

إن لم أنجح هذه المرة. عندنا سينما الآن هنا، بالقرب من النهر. هل ترى كثيراً من الأفلام في بالغات؟»

«أحياناً».

«سوف نذهب هذا المساء».

«ماذا يعرضون؟»

«فيلم جوليب أكيفالي. سمعت أنه جيد. هناك معركة مع نمر».

«سنفكر في الأمر».

«فيم ستفكر؟»

جلس رافي على السرير وتحدث عن المدرسة. كل ما كان يريد هو أن يجتاز السنة العاشرة بأية طريقة. كان الابن الوحيد، ولم يكن العمل كثيراً في البيت. هناك فقط قطف جوز الهند، وهم يزرعون التابيوكا بالقرب من البحر.

خرج رافي مرة أخرى بعد أن تناولوا الطعام. كان عليه الإشراف على ساقية لسحب المياه من أجل الري. وكان ينبغي أن يعد أفرع النخيل التي قطعت قبل أن يأتي المشترون لأخذها. وقال إنه سوف يعود متأخراً.

جاءت كل من العمة فاليا والعمة تشيريا وتحدثتا معه، كل بدورها. وأحضرت ناليني إيداتي له الشاي في المساء، ثم جلست على الأرض بجوار الباب. وأحزنه أن يراها تجلس بهذا الهدوء، وقد أحنت رأسها وتجري أصابعها بلا هوادة بين خصلات شعرها. ورفعت رأسها باهتمام وهو يصف القلعة التي بناها السلطان تيبو على أطراف المدينة التي يعيش فيها الآن. وعاد البريق المألوف إلى عينيها عندما أخبرها

قصة الممر السري تحت الأرض الذي يقود من القلعة إلى خارجها.

منذ زمن طويل، كانت القلعة تحت مسؤولية قائد عسكري، وكانت له ابنة، فتاة جميلة ولكنها عرجاء. لم تكن تستطيع السير بدون مساعدة. كان سردار خان يتنهد متى رأى ابنته تقضي أيامها ولياليها تعزف على السيتار. وذات يوم، جاء سجين إلى القلعة. وفي إحدى الليالي، استطاعت أن تحصل على مفتاح الباب المؤدي إلى الممر السري وراحت تحجل بشكل ما حتى وصلت إلى زنزانته، وساعدته على الهرب. ولكن الحراس قبضوا عليهما وقتلوهما. أُغلق الممر تماماً وظل مغلقا منذ ذلك اليوم.

عندما انتهى من رواية القصة، سألته ناليني إيداتي: «هل هذا صحيح، أم أنك اختلقت هذه القصة يا سيتو؟»

«يقول الناس إنها قصة حقيقية، الناس الذين يعرفون تاريخ القلعة».

عادت ناليني إيداتي إلى الصمت مرة أخرى. استندت إلى الخلف، وأغلقت عينيها ثم فتحتهما مرة أخرى بعد قليل، وكأنها كانت نائمة.

«ماذا كان اسم السجين في القصة؟»

«لا أعرف».

«كان هندوسياً، أليس كذلك؟»

«همم».

«هل تذهبين لمشاهدة الأفلام، يا ناليني إيداتي؟»

«أفلام! يا لها من شيء! عندما كنت في كانانور...». وتوقفت، وكأنها غيرت رأيها بشأن ما كانت تريد قوله.

وصف الميدان خارج القلعة، حيث كان يقضي بعض الأمسيات. والفتيات في فصله. كان يتمنى أن يراها تضحك كما اعتادت من قبل.

كان شخص ما يصعد الدرج، شخص له وقع أقدام ناعمة للغاية. وسمع صليل أساور زجاجية في الممر.

«ناليني إيداتي، هل ستأتين للاستحمام؟»

«خذي هذا الكوب لأسفل يا تانجاماني».

نظرت الفتاة التي دخلت إليه بحياء. كانت رقيقة البنية وترتدي تنورة بلون أخضر فاتح وبلوزة بيضاء.

«ألا تعرفين سيتو؟»

هزت رأسها، وهي تعض على سلسلة ترتديها من الخرزات الزجاجية. هل كانت تعني نعم أم لا؟ حاول سيتو أن يضفي شكلا على ذاكرة مبهمة.

«ألم تلتقِ بتانجاماني، يا سيتو؟ إنها من منطقة الخالة الصغرى في بوشبوت». كانت قد جاءت من بوشبوت في ذلك الصباح لتقديم قربان في معبد شيفا.

«في أي سنة دراسية أنت؟»

«التاسعة».

عندما نزلت تانجاماني، سأل ناليني إيداتي إن كان الخال جوفيندا بوشبوت لا يزال في تيروبور.

كان قد ذهب إلى بوشبوت مرة واحدة، في طفولته. كانت الأخت الصغرى لجدته عن أبيه تعاني من صعوبات بعد انقسام العائلة. فأولادها ليس لديهم عمل. وتزوجت ابنتها الكبرى من معلم في

مدرسة لطائفة المايلا راتبه عشر روبيات. وعندما رفض القيّم على المدرسة أن يدفع له هذا المبلغ التافه بانتظام، تشاجر معه، وغادر القرية وأصبح محاسباً لدى تاجر ثري في تيروبور. وفيما بعد، وجد وظيفة في طاحونة وبدأ يكسب جيداً.

كانت أمه تفضل أخت حماتها الصغيرة، الخالة بوشبوت، على حماتها.

كان الجميع يخشون الخال جوفيندا. كان رجلاً حامي الطبع، حتى الآن. عندما كان يعود إلى البيت في الإجازات، كان يبدأ بالشرب في وقت مبكر من الصباح. حتى أطفاله كانوا يخشونه. ولكنه كان دائماً يأتي ومعه كثير من النقود في كل مرة يعود فيها إلى البيت، وكان ينفق بسخاء، سواء في بيته في تيرومانايور أو في بيت زوجته.

كان معتاداً على زيارة بيت سيتو في الأيام الخوالي. وكانت الأم تطهو له دجاجة وترسل شخصاً في السر لشراء العرق.

«مهما كان كلام الناس، فهو شخص أنيس ورقيق للغاية معي»، هكذا كانت الأم تقول عندما يغادر. كان الخال جوفيندا دائماً يعطي الأم بعض النقود قبل أن يرحل. ولا يزال سيتو يذكر عبق الورقة ذات الروبية الواحدة التي أعطاها له ذات مرة.

لكن الخال جوفيندا لم يأت لزيارتهم منذ سنوات.

ذهب الأب إلى تيروبور يبحث عن عمل، عندما فقد عمله في أناماليه (جبل الفيل). وأقام مع الخال جوفيندا لمدة شهر. وحدثت بينهما مشاجرة ثم افترقا. عاد الأب يحمل قصصاً فاضحة: الخال جوفيندا لديه فتاتان شابتان تعملان له ولا يريد أن تأتي زوجته وأطفاله

للإقامة معه في المنزل.

وتساءل سيتو في داخله إن كان يمكن أن يرسل له الخال جوفيندا بعض النقود إذا كتب إليه من الكلية. ولكن في النهاية لم تكن لديه الشجاعة ليكتب له.

جاء سيتو إلى هذا المكان عندما كانت أوني طفلة وليدة للاحتفال بتناولها طعاماً غير اللبن لأول مرة، في ذلك الوقت جاءت العمة من بوشبوت. ودعته للعودة معها. «لدينا الكثير من الأطفال هناك».

خفض رأسه خجلاً. وسألت عمته باراميسوارا إيتان: «هل آخذ سيتو معي؟»

قال إيتان: «لابد أن يعود معي اليوم، لا يمكن أن تفوته المدرسة».

ومن ثم فلم يذهب حينئذ. كان قد ذهب إلى بوشبوت عندما كان في السادسة من عمره. ولا يكاد يتذكر العمة في بوشبوت. كانت تضع ليرة ذهبية في خيط حول رقبتها، وكانت في ضعف حجم جدته، برغم أنها كانت أصغر سناً. كانت تسير بصعوبة. وتذكر أنه كان يلعب لعبة التخفي مع الأطفال. وسمع أن البيت قد أزيل فيما بعد وأعيد بناؤه.

عندما نزل، لم تكن تانجاماني وناليني إيداتي قد ذهبتا إلى الحمام بعد.

«ألا تريد حماماً، يا سيتو؟»

«فيما بعد، عند الغسق».

«انزل إلى مغطس الحمام في كوفيلاكام، المياه هناك رائعة».

«لا، أفضل الصهريج». أصبح الآن يشعر بالخجل من الاستحمام في مكان مفتوح، بعد أن اعتاد على استخدام حمامات بيت الطلبة.

سألت العمة تشيريا: «هل أصنع لك بعض القهوة؟»

«لا، تناولت بعض القهوة لتوي. لماذا لم يعد رافي؟»

«سوف يأتي الآن. هل تحب الحلوى المصنوعة بالتمر يا سيتو؟»

طبعاً كان يحبها. بعد أن جاء هنا شعر أنه يحب العالم كله.

قالت العمة تشيريا: «سوف نذهب إلى المعبد بعد الغداء؛ هناك طقوس نيرامالا اليوم».

«وهو كذلك».

تألقت الرمال البيضاء بين نخيل جوز الهند تحت شمس الأصيل. وراحت الغربان تنقر ثمار الكاكايا (أو الجاك فروت) الواقعة تحت الأشجار بالقرب من السياج الشمالي. وهفهف نسيم خفيف يمر من خلال أوراق النخيل. كان يمكن سماع غمغمة البحر المبهمة على البعد. وتحرك داخله شعور بقلق مبهج.

دقت الساعة في الشرفة العلوية، السادسة.

تحدثت تانجاماني إلى نالليني إيداتي في مكان ما داخل البيت. يا له من صوت ناعم!

«ديبام!» (مهرجان الضياء)، تلفت سيتو ونظر إليها وهي واقفة تحمل المصباح عالياً له لكي يؤدي طقوس العبادة. لكنه لم يشبك يديه، بدا له أن تلك إشارة غير كريمة بالنسبة لشاب ناضج يذهب إلى الكلية.

رأى علامة الرماد المقدس على جبهتها الصغيرة في ضوء المصباح الزيتي الأصفر اللامع.

وضعت فتائل مشتعلة في المزارات في الفناء، وعادت إلى البيت.

«ألن تستحم، يا سيتو إيتان؟»

«أنا بانتظار رافي».

جاءت ناليني إيداتي من الفناء، وجلست على الدرج. «أشعر بصداع هائل كل مساء. ولا أستطيع النوم طول الليل. اذهب واستحم يا سيتو. قالت خالتي إنك سوف تذهب إلى المعبد من أجل طقوس نيراما لا».

«نعم، قالت تشيريا أوبو إننا نستطيع الذهاب».

«تانجاماني، يا طفلتي، احضري له صابوناً ومنشفة».

ذهب ليخلع قميصه. وعندما خرج مرة أخرى وجد أن رافي قد عاد.

«سيتو إيتان جئت لأستحمَّ أيضاً».

ساعد رافي بانكوتي، ابن عامل المزرعة، في إنزال الحمل من على رأسه، ودفع له أجره، وأصدر توجيهاته إليه فيما يختص بالأعمال المطلوبة في صباح الغد. وسأل أمه وعمته أن تخبراه بالمتأخرات في الحسابات التي أعطاها المشتري من طائفة المابيلا لجوز الهند. وأصيب سيتو بالدهشة لرؤية الصبي الذي في الصف التاسع يتصرف كمدير لممتلكات العائلة التاراواد.

خلع رافي ملابسه، ولفها وألقى بها إلى ناليني إيداتي. ولف فوطة حول وسطه، وأرجح ذراعيه وبدأ يقوم بتمرينات رياضية. وصاح: «احضري لي بعض الزيت، يا بنت».

لم يستطع سيتو أن يتبين وجه تانجاماني من خلال الساتر القش، لكنه فكر في نفسه: «هذا البليد، يناديها بنت.. هكذا».

سارا نحو النهر.

«كم سنة أخرى ستقضيها في الكلية، سيتو إيتا؟»

«سنوات كثيرة أخرى. ولابد أن أنجح كل سنة، كما تعلم».

«كيف لك أن ترسب، يا سيتو إيتا؟ مستحيل! أنا أخطط لامتلاك دكان. وجدت غرفتين بالقرب من مكتب بانتشايات. لن أقوم بعمل مكتبي».

«لماذا تريد أن تحصل على وظيفة مكتبية؟ إنك تمتلك مساحة من نخيل جوز الهند وأحواض الأرز. إن من لا يمتلكون مثل هذه الأشياء هم الذين ينبغي عليهم البحث عن وظائف».

«سوف أحضر وأزورك عندما تكون في وظيفة هامة».

فكر سيتو في هلع، ما أبعد ذلك الوقت.

كان المغطس الوحيد في النهر الخالي من الناس هو المغطس الذي تستحم فيه الفيلة. ومن ثم فقد نزلا إليه. كان الماء فاتراً ويصل في أعمق الأماكن فقط إلى رقبتيهما. كان يمكنهما سماع رجال الكوفيلاكام يتحدثون بصوت مرتفع وهم يستحمون تحت ضوء المصابيح في مغطس قريب مغطى بالقرميد.

«كم طالباً معك في فصلك؟»

«حوالي أربعين، معظمهم صغار. أشعر بخجل شديد، يا سيتو إيتا. ويسعدني أن تانجاماني في القسم الآخر».

«هل هناك بنات؟»

«قليلات. كلهن مخلوقات فظيعة».

حاول سيتو أن يحول المحادثة إلى البنات، لكن بدا أن رافي لا يهتم بالحديث عنهن. تحدث عن السمك العملاق في صهريج المعبد، والخفافيش المعلقة على شجرة التين البنغالي بالقرب من بوابة

الكوفيلاكام، أهداف سهلة للبندقية. من حين لآخر، كان يذكّر سيتو بأنهما سيذهبان لمشاهدة فيلم سينمائي.

عندما عادا كان هناك مصباح مضاء وكانت الأوراق النباتية معدة لتناول الطعام.

بعد العشاء تمشيا في الفناء، وسأل رافي بنعومة: «سيتو إيتا، هل تدخن؟»

«همم؟»

«فقط أريد أن أعرف، هذا كل شيء».

«أحياناً. يعطوننا سجائر بعد إقامة مأدبة في السكن. لكنني لا أجعل منها عادة».

«سوف أحضر لك بعضها غداً».

لم يقل شيئاً.

سألت العمة تشيريا: «ألست مستعداً، يا سيتو؟»

«ما هذا الجنون، يا أمي، وكأن سيتو إيتان يريد الذهاب إلى نيراامالا في المعبد. إننا ذاهبان لمشاهدة فيلم. على أية حال، لا يمكنك الذهاب إلى المعبد. فنحن لا نزال في فترة التلوث، مع وجود طفل وليد في البيت».

«لا تحاول أن تعطيني دروساً. فلسنا ذاهبين على أية حال. وكيف يمكن أن نذهب وحدنا أنا وتانجاماني؟»

قال سيتو لرافي: «لماذا لا تأتي معنا؟»

همس رافي: «أنا لا. دعهم يذهبون. يمكننا أن نذهب لمشاهدة عرض آخر الليل».

في النهاية، اضطر لخذلان رافي. ارتدى قميصه البوبلين اللامع المكوي. وكان الموندو الذي يرتديه نظيفا جداً، لكنه غيّره على أية حال. وأخذ بعض بودرة التلك من فوق منضدة زوجة أخيه الأكبر.

«هل تريد قِطع نقود صغيرة؟» سألت زوجة أخيه عندما راح ليخبرها أنه ذاهب.

«لا».

«خذ معك مصباحاً».

بعد تجاوز الدرب، كان هناك ممشى رملي، ثم بضع دكاكين وشجرتا تين بنغالي. وبعد هذا طريق خال يمتد داخل بستان جوز الهند.

قادت العمة تشيريا الطريق، وهي تتحدث عن أمه. لماذا لم تكن تزورهم أحياناً؟ على الأقل لتطييب خاطر القرويين؟ وقالت، على أية حال ليس منا من تسبب لها في أي أذى.

سار متتبعاً شعاع المصباح، مستمعاً إلى وقع أقدام الفتاة التي تسير على بعد ذراع واحد منه. كانت تبدو ناضجة الآن، في رداء «نصف ساري» مطبوع بالورود، وقد صففت شعرها في جديلتين. ووصل إليه عبير خفيف من خيط مفتول من زهور الياسمين والمضفور في إحدى الجديلتين.

جاءت من الدرب مجموعة من النساء يحملن مصابيح براقة في أيديهن، ولحقن بتشيريا أوبو.

«ومن هذا؟»

«سيتو، الابن الأصغر لأخي الأكبر. وهو في الكلية في بالغات. جاء اليوم فقط».

تباطأ سيتو فأصبح في الخلف. وبدا أن تانجاماني لم ترغب في اللحاق بالنساء الأخريات.

«سيري بحذر، الطريق مليء بالحجارة».

لمعت عيناها بنعومة بين الظلال.

كان يريد أن يتحدث معها.

بدت كبرعم زهرة انطوى على كل الحلاوة والعذوبة داخله.

هذا تعبير شعري، بكل تأكيد.

فجأة انقشعت السحب، وأصبحت السماء صافية. وتحت ضوء القمر الساطع، ابتسم لهما الطريق، وظلال النخيل الطويلة. كان ضوء القمر يغمرهم كمعجزة، لا يمكن تصديقها.

لماذا تخطر في ذهنه سوميترا الآن؟ وبخ نفسه. سوميترا لا تعني شيئاً لي. ها هي بجواره فتاة جميلة خارجة من بين كل القصائد التي قرأها في حياته.

وبينما يعبرون فوق المعبر البديل من جذوع نخيل جوز الهند، قال، «سيري بحذر، امسكي بيدي».

شعر بأصابعها رقيقة هشة. وتنسم عبير بودرة التلك والياسمين.

لم يترك يدها عندما وصلا إلى الجانب الآخر.

كانت السماء فوقهم صافية، وتدفق منها بحر من ضوء القمر. وبدا صوت مكتوم لطبول بعيدة قادم من المعبد كأنه ضربات قلب عملاق، وارتفع صوت الضربات شيئاً فشيئاً مع كل خطوة.

أمسك بيدها، مستنشقاً عبير الياسمين الذي تفتح لتوه، وفكر، كنت طوال حياتي بانتظار هذه اللحظة.

هل كان العالم ينتظرني، بكل ما يحمله من ضوء القمر والعبير ودقات الطبول؟

بانتظاري، وانتظارك؟

6

شعر بالتعاسة لأنه راحل في اليوم التالي.

هكذا، سوف نفترق. حتى نرى بعضنا مرة أخرى.

كان قد ترك الحقول وبساتين جوز الهند خلفه، واندمج الدرب الرملي في الطريق المرصوف. وبينما كان ينتظر الحافلة وتحت ذراعه صرته الورقية، انتابه شعور قوي بالضياع. تضاءل في أصغر حيز ممكن في الحافلة وسط الروائح المثيرة للغثيان للبشر المحيطين به، ولم يعد يسمع الأصوات حوله. كل ما كان يسمعه هو صليل الأساور. وتدفق حوله عبير الياسمين وبودرة التلك كما يتدفق ضوء القمر على شاطئ النهر. أمسكت أصابعه بذكرى اللمسة، الإحساس بكتفها الأيسر.

ودخل فيما يشبه الغيبوبة بسبب الحرارة وارتجاج الحافلة. وراحت كل دقيقة من الأيام القليلة الماضية تسبح أمام عينيه كفقاعات تقاطرت من الألوان الملتبسة لسحب الغروب.

وهكذا، لابد أن نفترق، حتى يلتقي كل منا الآخر مرة أخرى.

لابد أن يغادر الضيف دائماً قبل أن تفتر فرحة وجوده. حاولت فاليا أوبو وتشيريا أوبو إقناعه بالبقاء. وقالت زوجة أخيه مرات عديدة: «لم تبدأ الدراسة في الكلية بعد. ابق معنا بضعة أيام أخرى».

أخفت ناليني إيداتي حزنها، وتمتمت: «بعد أن جاء سيتو، شعرت

أن هناك من أستطيع التحدث معه».

«سوف آتي مرة أخرى».

«اكتب لنا. أفكر دائماً أن أكتب رسالة لنفسي وأرسلها بالبريد».

«سوف أكتب».

أرادت تانجاماني أن تغادر في اليوم التالي إلى نيرامالا، لكنهم أقنعوها بالبقاء. وقفت متحيرة في الشرفة، ترسم أظافر يدها على مثال الزهور الإسمنتية الموجودة على الأعمدة.

قالت العمة تشيريا لها بلهجة لائمة: «ربما لا يكون المكان هنا مريحاً كما في بوشبوت، لكننا عماتك على أية حال».

انتظر سيتو قلقاً بالقرب من النافذة حتى تأكد من أنها سوف تبقى.

لم يكن الزمن لعنة خانقة هنا. كانت كل لحظة مليئة بالأمل. هل يمكنه أن يسمع وقع الخطوات الناعمة في المطبخ والممر؟ عندما ضحكت النساء بصوت عال على حماقة إحدى الخادمات، كان يمكنه أن يميز ضحكتها الناعمة بين الأخريات. شعر برعشة الفرحة تجري في جسده عندما مر بأصابعه على طيات تنورتها التي علقتها لتجف في الشرفة بالطابق العلوي.

لابد أن هذا هو ما يسمونه الحب.

أستطيع أن أهمس بها إلى العالم، أنا عندي سر. أنا واقع في حب فتاة في الخامسة عشرة تشبه قصيدة شعر.

أحبك!

جلسوا جميعاً في المطبخ يتحدثون لوقت متأخر من الليل. كانت فاليا أوبو تحول كل شيء تقوله إلى قصة. فإذا تحدثت عن أشاريتشي

بارو، كانت تتظاهر بأنها امرأة عجوز مرتجفة ممسكة بعصا. وكانت ناليني إيداتي دائماً تسمع كل شيء بهدوء وتقدير.

لم يستطع سيتو أن يتوقف عن الضحك عند سماع حكاية زوجة الحارس وكيف تشاجرت مع زوجها وقفزت إلى البئر. لم يكن في البئر سوى كمية قليلة جداً من المياه. وسمع زوجها رامان صراخها، وانطلق يعدو وهو يسأل: «هل هناك مياه كثيرة؟» لا. «هل أصيبت يداك أو قدماك بمكروه؟» لا. لف رامان حصيرته ووسادته، وجاء إلى البيت، وقال: «سوف أنام الليلة على الإفريز في سقيفة ضرب الأرز. على الأقل أستطيع النوم بسلام لليلة واحدة دون أن أضطر لسماع الصيحات والصرخات!»

استمع للضحكة الناعمة تأتي من الظلام خلف باب المطبخ.

جاءت ناليني إيداتي بمصباح إلى الطابق العلوي. «لابد أنك تشعر بالنعاس، يا سيتو».

«لا، عادة أنام في وقت متأخر جداً».

سمع وقع خطوات تانجاماني في الممر.

«تانجاماني، ألست نائمة؟ تعالي واجلسي معنا». جلست تانجاماني خلف ناليني إيداتي مباشرة.

«هل نام رافي؟»

«لقد مسحت أرضية الشرفة له. فهو يحب النوم على الأرض العارية».

ذات مرة، سُرقت ثمار جوز الهند من أربع نخلات عند حافة المجمع. ومنذئذ، أصبح رافي ينام في الشرفة الأمامية ومعه مصباح

بخمس بطاريات وإلى جواره عصا.

قالت ناليني إيداتي: «قُص علينا أحد الأفلام التي رأيتها».

«لا أتذكر أيا منها».

قالت تانجاميني بنعومة، «لابد أن تفعل»، واستندت على كتف ناليني إيداتي.

تضاءلت ذبالة المصباح في الشرفة بالخارج، فخفت ضوؤه. واستند سيتو إلى الحائط، ومد رجليه، وأشعل سيجارة، ثم روى لهما قصة، عن الأمير الذي وقع في حب فتاة غجرية كانت ترقص على جانب الطريق.

وتضاءلت استجابة ناليني إيداتي.

«لقد وقعت في النوم».

أصرت تانجاماني: «استمر في رواية القصة». ورفعت يدها بحرص عن كتف ناليني إيداتي لكي لا توقظها، وجاءت إليه.

«هل سمعت أغنية سوهاني رات؟»

«لا».

كانت تلك هي الأغنية التي غناها الأمير، عندما جاء ليقابلها تحت ضوء القمر. كان سيتو يعرف أن صوته أجش. لم يكن يستطيع الغناء، بل لم يكن يستطيع أن يلقي بيتاً من أغنية بشكل لائق. مع ذلك، قال:

«إنها أغنية جميلة:

تقول: أوشك الليل على الانتهاء. لا أعرف متى ستأتين».

وعندما وصل إلى وقوع الوغد على السكين المشرعة وهروب البطل، كانت أصابع تانجاميني النحيفة في قبضته.

استيقظت ناليني إيداتي مجفلة. «لقد وقعت في النوم، لابد أن الوقت متأخر جداً. هيا إلى النوم يا سيتو».

تناولت ناليني إيداتي المصباح، وخرجت. وساد ظلام قاتم.

«احترسي، يا تانجاماني، أثناء نزولك على الدرجات».

منحه الظلام شجاعة. احتواها بين ذراعيه. وأبقاها بالقرب منه وهما يسيران إلى الدرج. ثم لمس كتفها برقة وقال: «اذهبي للنوم الآن».

وقف في الظلام وهي تنزل. وخارج النافذة، كان ضوء القمر يلعب على الرمال بظلال أشجار المانجو. أغلق عينيه، وتنفس العبير الذي تلكأ حوله، عبير الكافور المحترق، ومعجون خشب الصندل.

ودّع زوجة أخيه عند باب غرفتها. كانت تانجاميني على وشك الرحيل أيضاً. وحثته عماته على الإكثار من زيارتهن، وذهب رافي معه حتى البوابة.

كانت تانجاميني خلفه مباشرة. وكان الممر مغطى بزهور شجرة الإلانجي (القشطة الهندي). توقف عند الدرجات المؤدية إلى بستان جوز الهند عند نهاية الممر.

«سوف أذهب إذن».

«متى ستأتي مرة أخرى، سيتو إيتا؟»

«قريباً جداً»

«تعال عندما تعود في الإجازة التالية إلى البيت».

«سوف أفعل».

«سأقول لأمي إنك وعدت بالمجيء».

وصل إلى البيت متأخراً في المساء. بدا على الأم عدم الرضا. «لماذا

طال بقاؤك هناك كل هذا الوقت؟»

شعر بتوتر عنيف. هل عليه أن يظل حبيساً هنا طوال الوقت؟ لقد هرب فقط لمدة ثلاثة أيام، على أية حال.

وبينما جلس في الشرفة المظلمة ذات الأرضية المشققة والأعمدة البالية، غلبه شعور بالغثيان. يمكن للمرء أن يسمع الخشب الذي نخره السوس يتآكل ببطء طوال الوقت هنا. الروائح العفنة للملابس المبتلة والظلام الرطب تلتصق بكل ركن في البيت.

لم يفكر أحد بحصافة أن يشعل مصباحاً. أين بادمو؟ ظهرت أخيراً تحمل مصباح كيروسين صغيراً يدخن، ووضعته على العتبة. جلس صامتاً يراقب الظلال الملتوية التي يصنعها الدخان على الحائط.

وتخيل تانجاماني تأتي هنا، وملأته الفكرة بالهلع. هل هذا بيت سيتو إيتان!

«احضري لي منشفة، يا بنت».

زعقت بادمو بشيء إلى أمه.

كان شخص ما يغسل الملابس في صهريج إلّام. نزل إلى الفناء. قالت له الخالة وهي تدخل حاملة الملابس الجافة من الخارج: «هناك حشد من النساء عند صهريج إلّام، لن يكون متاحاً لبعض الوقت».

أحضرت بادمو له منشفة، وعلبة صابون بها رقيقتان باليتان من الصابون.

وسألته الخالة: «هل تريد زيتا؟»، لكنه لم يرد. تحرك نسيم خفيف بين الحقول. لم يكن الظلام دامساً بعد.

سار مسافة قصيرة، ثم توقف. بدأت الأنوار تُضاء في المحلات.

سمع صرير عربة على الطريق.

في مثل هذا الوقت بالأمس، كان يتجول تحت أشجار المانجو، كأمير ينتظر كل من في البيت أوامره. كانت دقات قلبه تتسارع في كل مرة يسمع فيها دقات أقدام معينة تقترب منه.

والآن، بعد ثلاثة أيام من الحرية، ها هو قد عاد إلى السجن.

وبدا له كأنها تمطر. بدأت برذاذ خفيف عندما وصل إلى بوابة فاداكيتو. ونزل الظلام فجأة على بستان نخيل الأريكا.

كانت الشرفة الأمامية في بيت العمة يسودها الظلام. ولمع مصباح خارج المطبخ. كانت كارتياياني جالسة بالقرب منها، تنقي الأرز.

«هل هذا سيتو إيتان؟» توقف. جاءت سوميترا وفي يدها مصباح.

«متى عدت، يا سيتو؟»

«هذا المساء». خطا إلى الشرفة، مبتعداً عن المطر، ومر بالمنشفة على شعره.

«هل طفل ساروجيني إيداتي في صحة جيدة؟»

غمغم بدون اهتمام: «همم».

حدقت سوميترا فيه تحت الضوء الأحمر للمصباح.

«أين العمة؟» أخبرته سوميترا أن إحدى بنات عمومتها بدأت تشعر بالآلام، وأن العمة وديفو ذهبتا للمساعدة.

«هل هناك أية عروض زواج لناليني إيداتي؟»

«لا أعرف».

ألقى بكل شيء خارج عقله وركز تفكيره في حقيقة أن سوميترا وحدها.

«هل تريد مظلة؟»

«لا».

«هاك، خذ المصباح إذن. وكن حذراً وأنت سائر. بالأمس فقط رأينا أفعى بالقرب من شجيرات الباندانوس».

ضغط على أصابعها وهو يأخذ المصباح من يدها.

ضاعف الوهج الضعيف للمصباح من الظلام حوله. وشعر ببعض الخوف وهو يمر بالقرب من شجيرات الباندانوس. بدا الصهريج حفرة مظلمة لا قاع لها. كان هذا الصهريج بئراً في الماضي، وقد عمقوه ووسعوه.

غطى المصباح حتى لا تتسبب قطرات المطر التي طرطشت على درجات الخزان في كسر زجاجه، ونزل إلى المياه. جلس على الحجر الذي يستخدم في الغسيل، ودلى قدميه في المياه. كانت باردة جداً. مسح جسده بفوطة مبللة وصعد. فجأة خشية أن يكون أحد يراقبه من الظلام، أطفأ المصباح.

«سوميترا»... نادى، محاولاً أن يحتفظ بصوته ثابتاً. «سوميترا، المصباح انطفأ، أحضري لي علبة ثقاب».

سقطت قطرات الماء بثبات حوله. هل تمطر مرة أخرى، أم أن المياه تقطر من فوق نخيل الأريكا؟

ربما لم تسمع سوميترا. ربما لن تأتي، حتى لو كانت قد سمعت. لم تكن هذه هي سوميترا التي كان يعرفها. ربما تدخل بيته في القريب كزوجة لخاله. وهذا هو السبب في أنها نظرت إليه بمثل هذا الامتعاض. كانت لها نفس النظرة عندما وقفا تحت النخيل في ذلك اليوم وتحدثا

عن الزواج.

رأى لمعان ذبالة مشتعلة تتحرك في طريقها تشق الظلام الدامس. هل هي كارتو؟ لم يكن يهتم لو كانت. كل ما كان يحتاجه هو الضوء. حيث إن الضوء الذي كان معه أطفأته الريح، هكذا حدث نفسه.

كانت سوميترا.

أخذ الذبالة منها، وتظاهر بأنه أحرق يده بينما كان يشعل المصباح، وأسقطها.

فجأة غمرت موجات من الظلام الجزيرة الصغيرة التي كانا يقفان فيها. وشعر بإعصار يعصف بأذنيه وهو يجذبها إليه بفظاظة.

همس إليه الظلام: «لا تفعل يا سيتو، لا تفعل».

«إذن فقد أصبحت مغرورة الآن. هل فكرت أبداً في سيتو وأنت في ذلك البيت الكبير في تيرورر؟ من أعطاك هذه السلسلة الذهبية؟ يبدو أنك تحبين رائحة دخان البيدي والأسنان المصفرة، أليس كذلك؟»

«لا تفعل، يا سيتو، لا». كانت تغمغم وهي مستندة إلى الحائط الحجري الذي نمت عليه الطحالب، «لا تفعل»، مرة بعد الأخرى، دون أن تفعل أي مجهود حقيقي لتحرير نفسها.

لا، لن تستطيعي دفعي بعيداً عنك.

انطلقت الريح بجنون حولهما، وأصبح أنينها زئيراً. تأرجح نخيل الأريكا كنساء يسكنهن الجان جالسات أمام ساحر وشعورهن تتطاير بوحشية. وخزتهما قطرات المطر. وفاضت حولهما رائحة الطين المبلل.

أفاق لنفسه عندما رأى عينيها تلمعان كسمكة مضيئة في المياه الموحلة.

«مرفقاي أصيبا بخدوش مؤلمة». كانت الدموع والضحكات مختلطة في صوت سوميترا.

نفذ البلل إلى جسديهما، وجلسا كتفا بكتف على درجات الخزان. كانت هادئة تماماً. أراد أن يجفف نفسه ويذهب بسرعة، لكن يده اليسرى كانت حبيسة في كلتا يديها. وتركت أصابعها آثاراً مبللة على معصمه.

انفصل عنها ووقف. جاءت إليه فجأة، أمسكت بكتفه وقالت: «تريد أن تؤلمني، أليس كذلك؟»

وقف جباناً، وقد تداعت كل قواه. دفنت وجهها في كتفه، وشعر بدموعها ساخنة.

تحرك مصباح مضاء عبر الفناء.

«من في الخزان، أطفال؟»

كان صوت الخال مادهافا الأجش. أراد أن يهرب بسرعة. لكن سوميترا لم تسمع فيما يبدو. رفع وجهها ورأى أنها لا تزال تبكي.

سامحيني يا سوميترا. لكن لا، توقفت الكلمات في حلقه. كل ما استطاع أن يقوله بصعوبة، هو: «لابد أن أذهب الآن، سوف أراك».

ربت على وجنتها برقة، وأخذ صندوق صابونه، وأسرع في الظلام. قفز فوق نصف الحائط المنخفض إلى الحقول. وحتى وصل إلى البيت، ظل يخشى أن يكون أحد يتبعه. وعند بوابة بيته، أبطأ. كان مغموراً بالمياه. نفض منشفته وراح يجفف نفسه.

فجأة، شعر بأنه يكره نفسه. تانجاماني، سامحيني. وفكر في أنهار من ضوء القمر، وأصابعها الطويلة النحيلة. وهمس لنفسه: سوميترا

لا شيء بالنسبة لي.

أمامك، أنا إله.

ومع ذلك، ظلت مرارة مشاهدة سوميترا تبكي لأول مرة معلقة في عقله. لا، لن أفعل هذا مرة أخرى، هذا وعد.

سامحوني، جميعاً!

وبدا قلبه وجسده كسيحين ككومة من الأسمال.

أراد سيتو أن يبكي.

القسم الرابع

1

بدأ الزوار يصلون منذ الصباح الباكر. كان أول القادمين أولئك الذين أرادوا فقط أداء زيارة رسمية، وتناول الشاي، ومضغ أوراق التنبول، ثم المغادرة. لم يعرف وسيلة تمكنه من تجنبهم. حتى الأشخاص الذين كانوا يتجنبونه حتى أول أمس، جاؤوا لتبادل حديث قصير.

بدأ الأقارب يتدفقون مع الظهيرة. لم يستطع مادهافان أن يعثر على مكان يختبئ به، لذا فقد جاء وجلس في الشرفة، وعلى وجهه تعبير متبلد نتيجة الشعور باليأس. وصلت مجموعة أخرى إلى البوابة، يونيتشيري إيداتي، التي كانت قد رحلت في زمن موتاسي عندما قُسمت ممتلكات الأسرة، ومعها أطفالها. أمسكت يونيتشيري إيداتي ذات السبعين عاماً مظلتها ذات المقبض الطويل المصنوعة من أوراق النخيل عالياً فوق رأسها وسارت منتصبة كما يفعل الرجال. كانت تعيش على بعد ثلاثة أميال عبر النهر وجاءت مع ابنتها وثلاثة من أحفادها.

كان نارايانان ناير، الذي جاء للمساعدة في الزفاف، مشغولاً بقطع أوراق الموز وتجميعها في الناحية الأخرى من الشرفة.

كان المنزل بالداخل يعج بالضوضاء.

جاءت أخته الكبرى، «أين مادهافان؟»

سمعها ولكنه لم يتحرك.

أصدر الكرسي المريح بالحجرة الداخلية صريراً وقال زوج أخته: «رأيته هنا منذ لحظات».

غمغم بغضب متذمراً، لا تقلقي، لن أجري بعيداً.

«آه، إنك جالس هنا إذن؟ يا له من أمر».

ماذا تريدينني أن أفعل؟ أقفز؟ أتشقلب كالبهلوان؟

«لم يظهر كافونجال تشاتو ناير بعد. هل أخبرته؟»

«لم أره». لم يرفع عينيه عن الفناء المفروش بالحصى.

«بعثت له كلمة مرتين. كيف يمكن لكونهوكوتان أن يقوم بالطهي وحده؟»

فقد أعصابه. «ماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك؟»

«لا شيء. ماذا يهمك، على أية حال؟ صحيح أننا دعونا فقط أفراد العائلة، ولكن علينا أن نقدم لهم وجبة لائقة. ووالد باراميسواران هنا أيضاً».

إذا جلس هناك وقتاً أطول، فلابد أنه سيستمع لأخته تصف مدى المشقة التي بذلتها، وكيف كان عليها أن تتحمل المسؤولية كاملة. نهض، متظاهراً بأن عليه أن يحضر شيئاً مهماً.

«مادهافا!» كان ذلك زوج أخته. «هل رتبت لإحضار مصباح بتروماكس؟»

«لا». فتأجير بتروماكس يكلف ست روبيات. بالإضافة إلى الكيروسين. كان من السهل لزوج أخته أن يعطي الأوامر، وهو مسترخ على كرسيه المريح. من الواضح أنه أراد أن يتأكد من عدم نسيان الأشياء الضرورية.

كانت الضوضاء أكثر من الأفعال. وقف على حافة الساحة، محاولاً أن يقنع نفسه بأن ذلك ليس من شأنه، ولا علاقة له به.

«أين مادهافان؟» هتفت شقيقته الصغيرة. وبدا كأن فتحتي أنفها مغلقتان بالمخاط.

«تعال هنا يا مادهافا»

«ما الأمر؟»

«افتح حجرة الخزين واجلب لي بعض ثمرات جوز الأريكا». خفضت صوتها وتمتمت، «التعساء. يمضغون بلا توقف، مثل الماعز. لقد وضعت لتوي أربع حِزَم من أوراق التنبول منذ دقيقة واحدة، والآن لم يتبق شيء». قام بفتح حجرة الخزين وجلب لها منها جرة كبيرة.

وبينما كان يسير مبتعداً، فكر في أن كل ما كان يريده هو أمر بسيط، ولكنه تحول إلى شيء معقد ومليء بالتفاصيل مثل زفاف باراميسواران، الذي أداره بنفسه، والذي عمل فيه حقيقة بكل جدية. قُدم الطعام مرتين. ولم يتناول طعامه إلا مع الطباخين، بعد أن أكل الجميع، وتوقف عن الشعور بالجوع. سيحدث ذلك مرة أخرى عندما يتضور جوعاً، ولن يكون قادراً على تناول الطعام في الوقت المناسب.

تذكر فجأة أن زفاف باراميسواران كان يشبه هذا كثيراً. كانت شقيقته ضده في البداية. وقطبت جبينها بغضب عندما أصبح أمراً واقعاً. ولكنها غيرت موقفها عندما اقتربت المناسبة لأنها أرادت أن تتظاهر بأنها في موضع المسؤولية.

وافقت أخته عندما أخبرها أنه لم يرد كل الزهو والمراسم الخاصة

بالزفاف، وأن عائلة فاداكيتو يريدون زفافا بسيطا أيضاً. سوف تأتي مجموعة صغيرة في وقت متأخر من المساء وسوف يغادرون إلى الزفاف بعد إنارة المصابيح. سيكون هناك تبادل للخواتم وسوف تعد عائلة فاداكيتو وليمة متواضعة، هذا كل شيء. حتى عندما وصل زوج أخته منذ أربعة أيام، كانت تلك هي الترتيبات.

«كم هي مضيعة، أن تقام مناسبة واحتفالات. ويتخم الناس أنفسهم بالطعام ثم يشكون من أنه لم يكن هناك ما يكفي من الملح أو التوابل في الطعام».

قالت شقيقته، «لقد أخبرت والد باراميسواران ووافق على أن الزفاف سيكون بسيطاً للغاية».

ولكن بحلول المساء قرروا دعوة كل أقاربهم. كان أعضاء العائلة الممتدة يعيشون عبر النهر على الجانب الآخر من التل. لم يكن من الممكن استبعادهم. جادل أخته: «كيف يمكننا أن ننسى روابط الدم؟» ثم قرروا دعوة أشخاص لمرافقة العريس إلى منزل العروس. وبرروا هذا أيضاً. «على أية حال، كما يقول والد باراميسواران، ليس علينا أن نذهب بحافلة أو قطار لدعوتهم. كل ما علينا أن نقدمه لهم قدح من الشاي».

انتظر في قلق، يستمع، وهو ممسك بعارضة خشبية. رائحة السيجار الحادة تنبعث من زوج أخته.

جلست يونيتشيري إيداتي القرفصاء على الأرضية، تمضغ أوراق التنبول.

«ألم يأت باراميسواران؟»

«هو على وصول».

«ماذا بشأن الأصغر؟ نسيت اسمه».

«سيتو؟ هو مرتبط بالدراسة، لذلك فلن يأتي».

«مادهافا، ماذا تفعل هناك؟»

كانت العجوز حادة البصر، برغم أنها تعدت السبعين عاماً. تحركت إلى الأمام لتنظر إليه.

«أنت تتصرف بحكمة يا بنيّ. هم ليسوا غرباء ويمكنك أن تعتمد فقط على الجيران للمساعدة. هذا الزواج سوف يجلب لك حظاً طيباً».

حظ طيب! الزفاف الذي سيجلب له الحظ الطيب، حقاً!

أراد أن يكون بمفرده. لم يتمكن من الخروج. كل من يقابله في الطريق يطرح عليه أسئلة. وليس من اللائق أن يجلس في مقهى أو سوق بينما تجري الاستعدادات للاحتفال بزفافه. كان المنزل مليئاً بالضيوف. أشعلت النار في الفناء وتجمع الأطفال حول أواني الأورولي البرونزية المسطحة الكبيرة الموضوعة فوق النار، التي ينضج فيها ثريد الأرز. في هذا الصباح فقط قررت أخته وزوجها ضرورة تقديم شيء آخر إلى جانب الشاي لأولئك الذين يرافقون العريس.

تنافست شقيقاته على الانتشار في كل مكان، في الفناء والمطبخ وحجرة المعيشة. قرروا فتح السور المقام بين المنزلين مرة أخرى. على الرغم من أنهن اللائي تذمرن بامتعاض من أن مادهافان تعرض للسحر.

في النهاية –

«ماذا قررت يا مادهافان؟» شعر بغضب وغيظ في صوتها.

«لقد اتخذت قراري، يا أختي»، قال ذلك وهو لا ينظر إلى وجهها. كان يتوقع انفجاراً، ولكن الرد كان الصمت فقط. قالت أخته:

«قُل لأكوتانكوتي بانيكر إني أريد أن أراه غداً. علينا أن نجد موعداً ميموناً. ومن الصحيح والمناسب أن تكتب إلى والد باراميسواران بنفسك اليوم».

تحملت أخواته العبء الكامل للزفاف من هذه الزاوية.

أخذ رشفة من الشاي المر الذي أحضرته بادمو. في الفناء، كان شخص يتنحنح لجذب الانتباه. كان ذلك فيلاكاترا كانهان، الذي كان له الحق في حمل الصندوق الفولاذي الذي يضم متعلقات العروسين.

كانت الشمس تميل نحو الغروب، وامتد ظل الشرفة حتى حائط المجمع.

«تأخر الوقت يا مادهافا. سوف يبدأ الناس سريعاً في الوصول. اذهب واستحم».

بدا كما لو أنه عاد طفلاً غير مسؤول، يتلقى النصح والتوبيخ والأوامر.

نهض.

«بادمو، أحضري له منشفة».

ذكرته يونيتشيري إيداتي بأنه لن يمكنه استخدام الزيت اليوم، يوم زفافه. فنصوص الساسترام المقدسة تنهى عن ذلك.

حسناً إذن، سوف يفعل كل شيء وفقاً للساسترام.

2

بينها كان يخطو نحو البوابة لاحظ شخصاً يرتدي قميصاً أبيض وموندو في الحقل المجاور لبستان الموز. نعم، هو باراميسواران. ظل مادهافان ينظر إلى أحواض شتلات الأرز ليتجنبه.

شعر بالارتياح عندما وجد ضفة النهر خالية من الناس. أخيراً استطاع الهروب من عيونهم الساخرة. وتوقف عند الممر المؤدي إلى النهر. ماذا يحدث لو عبر الآن، وذهب عبر الحقول وحدائق الخضراوات إلى الجسر؟ وخلف الجسر طريق السكة الحديد الذي يبدأ رحلة لا نهاية لها إلى جهات مجهولة.

لا، لا مفر الآن.

لم يستطع أن يجد عيباً في أي شخص، عدا نفسه.

شعر بالخجل عندما فكر في كيف وقف أمام سوميترا، يشعر بالانكسار، غير قادر على رفع أقل صوت بالاحتجاج.

كان اليوم الذي سمع فيه أن سمك النهر يُباع بالقرب من مصاطب الاستحمام. في طريقه إلى هناك، رأى ديفو وأمها تغادران المنزل. اشترى السمك، ولفه في ورقة من شجر الساج الكبير وذهب إلى البيت، وعقله في دوامة. ماذا يحدث إذا ذهب إلى فاداكيتو ليرى سوميترا؟ في البداية فكر في أنه من الأفضل ألا يفعل. ربما تظن أنه اختار عن عمد وقتاً تكون فيه بالمنزل وحدها. ولكنه كان يشعر بالقلق. في النهاية ذهب، متردداً.

كان يعرف أن حوض الاستحمام ليس به أحد، ولكنه ظل ينادي ليتأكد.

فتحت كارتياياني الباب وأحضرت مصباحاً إلى الشرفة.

داعبها: «إذن، حبست نفسك في المنزل».

«ذهبت الأم وأختي الكبرى إلى فاداكوموري». جلس في الظل، خارج دائرة ضوء المصباح مباشرة.

«هل أحضر حصيرة؟» حملق في الظلام، مرهفا أذنيه لصوت وقع أقدام.

«أحضري لي كوب ماء». لم يتجرأ على السؤال عن مكان سوميترا. شرب ملء فمه من الماء الذي أحضرته. من المؤكد أن سوميترا سمعت صوته. ذهبت كارتو إلى الداخل مرة أخرى.

نظر ببلاهة في الظلام. خرجت سوميترا، «الصهريج خال الآن». نفضت الموندو خاصتها، ثم ربطته بشدة حولها مرة أخرى، ووقفت مستندة على الحائط.

لم يكن متأكداً كيف يقول ما يريد. لقد حاول أن يتحدث إليها عدة مرات، ولكنه ما أن يقف أمامها وجهاً لوجه حتى ينعقد لسانه فلا يستطيع الكلام.

كررت، «لا يوجد أحد في الصهريج».

نهض وانتظر لحظة في الفناء كما لو كان قد نسي شيئاً ما. وكانت سوميترا على وشك الدخول، لذلك فقد نادى على الفور.

«سوميترا!»

«إنني... حسناً... كنت أريد أن أقول لك شيئاً». توقف ونظر إليها، وهو يتنفس بعمق. لمعت عيناها في الظل.

«أمك تعرف، وكذلك كل أهلي».

أنصتت سوميترا في صمت.

«اعتقدت أنك لابد قد خمنت أيضاً».

«ما الأمر يا مادهافيتا؟»

ابتلع ريقه بصعوبة.

«أنا لا أفهم، مادهافيتا».

أخرج سيجارة ووضعها في فمه. أخفق في إشعال عود الثقاب الأول. وقام بحماية لهب العود الثاني بأصابع مرتعشة، ونجح في إشعالها.

لم يجرؤ على النظر في وجهها. حملق بثبات في الدخان المتعرج الخارج من المصباح وقال، «بالنسبة للزفاف». شعر بالارتياح وكأنه انتهى من إخبارها بقصة طويلة.

«أوه، ذلك! أعرف ذلك».

يا إلهي! بدا أن نسمة باردة لمست حرارة ميدام الشديدة.

شاهد مشاعل عند البوابة. سارت ديفو في المقدمة، تلوح بمشعل من ورق النخيل، وتبعتها والدتها. هل ينبغي أن يذهب إلى الصهريج قبل أن يدخلوا؟ نظر إلى سوميترا في حيرة. وقفت سوميترا مستندة على الحائط، تخفي جزئياً لوحة تقويم كريشنا خلفها. هل كانت مبتسمة؟ لماذا لم تقل شيئاً؟

«جاءت أختي وأمي. ألن تستحم يا مادهافيتا؟»

سار نحو الظلام، ملء فمه مرارة الشعور بالاستياء. لام نفسه لعدم التحدث بوضوح. بل إنه حتى لم يعطها فرصة لتقول إنها أحبت الفكرة.

فكر في الموضوع مرة أخرى وهو راقد على الصخور في تلك الليلة، منتظراً أن يغلبه النوم. كم كان أخرق! كانت سوميترا تعرف، وكذلك أمها. من الذي كانتا تنتظران أن يأذن لهما؟

في اليوم التالي كان عليهم أن يقطعوا أوراق السماد من شجر المبوزيا للحقول. كانت كل الأشجار في القرية قد قطعت وبيعت، وكان من الصعب أن تجد الآن أوراقاً للسماد. ذلك أن عمال الحقول من طائفة الشيرومان، لو لم تجرِ مراقبتهم بيقظة تامة، يأخذون الأوراق خلسة لاستخدامها في رقع الخضر الخاصة بهم. قرر أن يذهب إلى البيت عندما توقفوا في ساعة الراحة لتناول مشروب الكانجي في الظهيرة. كانت ماعز سوميترا ترعى بالقرب من مجمع إلّام. جاءت عبر الممر المواجه له.

شعر كأن في داخله أسماكاً تثب وتتقلب.

قطفت ورقة من السياج، وفركتها بين أصابعها، وقالت «أردت أن أخبرك بشيء». وأردفت وهي تبتسم، «ليس لدينا رجال في عائلتنا، وذلك دعاني للتفكير في أن أخبرك».

همس قائلاً، أخبريني أي شيء تريدينه.

«أنا معجبة بك، يا مادهافيتا».

ابتسم، محاولاً أن يتحكم في السعادة التي تدفقت داخله.

«سوف تستمع إلي، أليس كذلك؟ ألن تتضايق مني؟»

«أتضايق؟» ضحك بصوت عال، «قولي ما تشائين، يا سوميترا».

«كلنا نريدك أن تكون جزءاً من عائلتنا».

شعر أنه خفيف جداً، فكر أنه سوف يطير في الهواء مثل قطعة قطن.

«أنا أريدك يا مادهافيتا، أريدك أن.. تتزوج أختي الكبرى».

ارتعشت يده اليمنى التي كانت ممسكة بالفأس. حاول أن يحتفظ بثباته وهو يشعر بأن الأرض تميد تحت قدميه. فجأة تحول النسيم الذي يهب بين عيدان البامبو إلى عاصفة هوجاء تعصف بأذنيه.

لم يبق واضحاً أمام عينيه سوى وجه سوميترا المبتسم، وشفتيها النديتين المنفرجتين.

3

فوجئ بأصوات ضحكات ساخرة من كل الاتجاهات. ظن أن الناس يضحكون عليه، ولكنه عندئذ أدرك أنهم كانوا أطفالاً أجسادهم مدهونة بالزيت يلعبون على الرمال قبل الاستحمام. كانت النساء ينزلن إلى الحمام خلف بيت الصياد من طائفة المابيلا، ربما من الناحية الجنوبية للنهر. سرن على الضفتين، يبحثن عن بقعة ضحلة، يصحن في الأطفال ليحسنوا سلوكهم.

انتهى من حمامه في عجلة - لابد أن الضيوف بدؤوا في الوصول ولا ينبغي أن يختبئ العريس منهم في النهر. لف متخذاً طريق قناة سبخة ليتجنب النساء، ثم نظف قدميه على أول منطقة رآها مغطاة بنجيل الكاروكا، وصعد خارجاً من النهر.

من على حافة الحقل استطاع أن يرى كلتا البوابتين. كان الإمبرانديري قادماً من فاداكيتو. لابد أن يكونوا سألوه القدوم لتنظيف مقام راكشاسو وتقديم الحليب والماء. لابد أن سوميترا ذهبت في الصباح الباكر إلى المعبد لترتيب ذلك.

نظمت سوميترا كل شيء. وأثناء سيره يفكر في كل ما حدث، اكتشف فجأة سراً، سراً مدهشاً. لم يكن هو الذي استسلم، في لحظة ضعف. والحق أنه لم يوافق موافقة فعلية على الإطلاق. كانت سوميترا هي التي أرادت. وهي التي قررت.

لم يكن يجرؤ على أن يقول لها شيئاً في الممر. أراد فقط أن يهرب، جرى بعيداً وأدرك فقط عندما وصل إلى البيت أنه كان يريد أن يقول عدداً من الأشياء.

ديفو إيداتي!

لم تكن سوميترا تعرف ديفو إيداتي. تصور ديفو واقفة في ضوء خافت بالحجرة الداخلية لمجمع إلّام، مثل حلم سيّئ.

تودين أن تسمعي، يا سوميترا؟ رأيت، بعيني هاتين.

فكر في ليلة أخرى، حينما يستطيع النوم، كان يسمع بوضوح حتى حفيف أوراق الموز الجافة. كان الظلام مليئاً بالهمهمات. تزايدت سرعة الرياح في الصباح. وتسللت البرودة من الأرض مثل حيوان زاحف وتخللت جسده. في النهاية غشيه النوم مثل نوبة من فقدان الوعي.

رأى في الحلم أنه كان يسحب ماء من الصهريج ليسقي نخيل الأريكا. بدا الصهريج لا قرار له، لأنه حتى عندما أرخى الحبل بأكمله، لم يكن حتى لمس الماء. قرر أن يسحب الدلو إلى أعلى ولكنه انحشر في شيء ما. أو بالأحرى، بدا أن شخصاً ما يحاول جذبه إلى أسفل. حدق في الصهريج ورأى شبحاً رهيباً يعوم فوق سطح الماء، يتعلق بالدلو. يغطى الشعر المبلل جسده. زلت قدمه وسقط في البئر.

بدا وكأن الذراعين اللتين تنتظرانه بالأسفل تستطيلان. وعندما

وصل إلى نهاية هذا السقوط الذي لا نهاية له، رأى وجه هذا المخلوق، تبرز أسنانه الطويلة من كتلة كثيفة من الشعر المبتل. انهار تقريباً. لقد كان وجه ديفو!

حاول ما في وسعه أن يتجنب سوميترا خلال الأيام القليلة التالية، ولكنه لم ينجح. فقد سعت لمقابلته.

«لقد أخبرت أمي».

«ماذا؟»

«إنك راغب، يا مادهافيتا».

«أنا... ولكن».. وقف مشدوهاً، اسودَّ وجهه من الغضب. اقتربت سوميترا منه جداً إلى حد أنه كان يمكنها أن تلمسه إذا مدت يدها.

«فيم تفكر يا مادهافيتا؟»

«أنا...».

«لا تقلق. أؤكد لك، على أية حال». لمعت عيناها. رغب أن يمد ذراعيه ولكنهما فجأة أصبحتا ثقيلتين تماماً. ابتسمت هي وانصرفت، كاد جسدها يلمس جسده، فتركته خائر القوى.

«إذن فقد استحممت بعناية اليوم، يا مادهافانناير». بذل مجهوداً لكي يبتسم. كان الناس يجلسون على الحصير منتشرين في الشرفة، يشربون الشاي.

أحضرت له أخته موندو مُبيَّضاً وقميصاً بإطار ذهبي رفيع. «أحضر والد باراميسواران هذا من أجلك لارتدائه عند ذهابك إلى منزل العروس»

خرج في حلة العريس. أخبرته صغرى شقيقاته أن يوقد فتيلاً لمعبود

العائلة قبل أن يبدأ.

تحرك الناس المحتشدون بالخارج ليفسحوا له طريقاً. وعابثه كريشنان ناير، الذي يمتلك مقهى الشاي، «لماذا لا نختصر الطريق عبر الحديقة؟ لا حاجة لأن نلف حول الحقول، أليس كذلك؟»

ضحك أحدهم. وقال سانكوني

« لابد أن يتجشم العناء فقط اليوم لآخر مرة».

«انظروا من هنا». نهض زوج أخته من كرسيه، «اجلس».

أوني نامبوديري. جاء باراميسوارن ليرحب به كما ينبغي.

وقف أوني نامبوديري ينبش بأظافره قشور الجروح في صدره. بدا متردداً في الجلوس. دفع سانكوني حصيرة من العشب تجاهه.

جلس زوج أخته مرة أخرى وصاح، «مادهافا، ماذا نقدم لأوني نامبوديري؟ ما رأيك في بعض الموز وجوز هند سهل المضغ؟»

قال باراميسواران، «تلك الأيام قد ولت، أليس كذلك، أوني نامبوديري؟»

«الشاي يكفي».

ذهب مادهافا إلى الداخل وأحضر له الشاي وثريد الأوبوما في ورقة من نبات «آذان الجدي». «من فضلك تناول الثريد»، قال ذلك بدون أن ينظر إلى وجه أوني نامبوديري.

انتظروا حتى الغسق، يمضغون نبات التنبول ويدخنون لقتل الوقت. تعذر عليه سماع أصواتهم، وقد انجرف إلى عالمه الخاص. لم يعد يشعر بالاضطراب. عادت إليه شجاعته بهدوء. نظر إلى أوني نامبوديري جالساً متربعا على الأرض يحتسي الشاي، وعادت الخصومة

الحادة التي انسلت مثل السكين إلى غمدها.

ليس هناك ما يخجل منه. فهو سيتزوج ديفو من عائلة فاداكيتو. لم تكن جميلة الشكل. ولكن كان هناك شيء آخر لا يعرفه أحد. لم تكن ديفو هي ما يهم في الموضوع. ولكنه سيصبح سيد العائلة التي تعيش فيها سوميترا.

قال لنفسه إنه ليس من المطلوب أن يكون جباناً هكذا أمام هؤلاء الناس، الذين يضحكون ويتحدثون بصوت عالٍ جداً.

كانت زوجة ناير، صاحب دكان الشاي الحالية، زوجة أخيه الأكبر. وكان أخوه الأكبر قد مات مسموماً وذهب الأخ الأصغر لمساعدة الأرملة وأطفالها الثلاثة الصغار. عندما أنجبت مولودها الرابع، أعلن قبوله لها بصراحة كزوجة له. قال مادهافان ناير لنفسه بغضب، من المؤكد أنه لم يكن من المفترض أن يرتبك أمام مثل هذا الشخص.

أما بكوتابا كوروب، فربما ظن نفسه وسيماً، على الرغم من أن وجهه محفور ومنقر بندوب الجدري. يعرف الجميع سبب تعيينه للإشراف على أراضي كاندان كولانجارا. فهناك أشخاص رأوه يرجع عن باب بيته عندما يعلم أن تشينان مينون بالداخل. أوه، نعم، كل شخص يعرف هذه القصص ويضحك منها.

كانت زوجة بادمانابهان تجر إحدى قدميها وهي تسير، مثل جاموسة مصابة بالروماتيزم. وجلب أوني نامبوديري إلى المنزل مخلوقاً كريه المنظر من مجمع إلّام الغني الذي يمتلك أفيالاً.

أدرك فجأة أنه كان يحدق في أوني نامبوديري كل هذا الوقت.

نادت بادمو من الداخل، «ديام!»

«قدم التوقير والإجلال للمصباح وسوف نذهب. عجل الآن».

كانوا مستعدين جميعاً. ذهب إلى الساحة معهم. كان زوج أخته مشغولاً يعطي تعليمات لكل شخص.

غمغم لنفسه مشمئزا، محاولاً ألا يظهر ضيقه. هنا يأتي العريس إلى الخيمة الاحتفالية الخاصة بالزفاف، رأسه عالٍ كالسماء. ارتعش قلب الأرض الأحمر لخطواته وهو قادم ليتزوج ديفو فاداكيتو.

4

بدا وكأنها سوف تمطر خلال اليوم. الضوء الناعس لا يريد أن يفتح عينيه.

نظر مادهافا إلى الفناء، المليء بالدخان الرمادي، وفكر في الليلة التي مرت. إذن لقد أصبح الآن زوجاً وجزءاً من عائلة فاداكيتو.

متى دخل الحجرة الصغيرة الضيقة، وهو يتصبب عرقا؟ بعد لحظة خروجهم متجهين إلى بيت العروس، لم تكن لديه فكرة واضحة حول تسلسل الأحداث.

متى غادر الضيوف جميعاً؟ كان البيت والمجمع في سكون الآن. سمع وقع أقدام في البهو الخارجي، ورأى مصابيح زيتية صغيرة تتحرك أماماً وخلفاً.

صاحت سوميترا: «سوف أحمل لهم مصباحاً. ما لم يتم تنظيفها في الحال، فسوف نجد في الصباح فوضى من عبث القطط والكلاب».

وقف أمام النافذة، ينظر عبر الحواجز إلى الظلام. كان الهدوء سائداً، وكان قميصه يتصبب عرقاً. خلعه وعلقه على مسمار، فوق لوحة تقويم

كريشنا. فكر في سوميترا تندفع هنا وهناك، مشغولة بأعمال البيت.

شعائر الزفاف، والوليمة، وقيام كريشنان ناير ونانو ناير بإدخاله إلى هذه الحجرة، كلها أصبحت ذكريات مبهمة.

لم تكن الظلمة حالكة عندما وصل موكب العريس إلى الفناء، وبدت المصابيح شاحبة في ضوء المساء. انتهت الشعائر بسرعة جداً. كان هناك عدد كاف من الناس لتناول الطعام في حصتين.

سُمع صوت أم سوميترا في المطبخ، «الوقت متأخر يا فتاة. ألا تعتقدين أننا لابد أن نحاول النوم لبعض الوقت؟ نحن مستيقظون منذ صياح الديكة هذا الصباح».

شعر بالتعب. نظر إلى الفراش الذي وضع ملتصقاً بالحائط، والملاءة البيضاء، شعر بتوق إلى الجلوس. نزع غطاء الكوب المكسور المطلي، ورأى أنه يحتوي على الماء. ابتلع ملء فمه. وشعر بالغضب عندما تذكر أنه ترك سجائره وعلبة الثقاب في مكان ما بالخارج. كان متأكداً من إمكانية أن يجدها، ولكنه كان متردداً في مغادرة الغرفة الصغيرة الضيقة.

صاحت امرأة عجوز، «تخيل أن تكون الفتيات متحفظات في هذه الأيام». كانت إحدى ضيوف الزفاف. خفق قلبه بضربات سريعة عندما سمع همهمات على الباب. لم يلتفت. هل كانت قدماه ترتجفان؟

خطوات أقدام. ومزيد من الهمهمة. سمع صوت صرير المزلاج، مع ضوضاء مصطنعة. استند بمرفقيه على إفريز النافذة، لعن نفسه لنسيان سجائره واستمر يحدق في الظلام.

استدار ببطء عندما سمع رنين الأساور الزجاجية وصوت تنفس سريع. استطاع بالكاد أن يتبين هيكل ديفو بين الظلال عند الفراش. عندما وقف أمام المصباح الزيتي الكبير ليربط قلادة الزواج حول رقبتها، كان كل ما استطاع أن يراه أطراف ساريها الأحمر والنقش على قدميها. كانت قد غيرت ثيابها وارتدت موندو أبيض. بدت وكأنها كانت تحاول الانكماش داخل الظلال.

شعر باللامبالاة. فكر أنها تبدو مضحكة، تنكمش مرتعدة مثل حشرة عاجزة. تحركت من الظلال ووضعت يدها بشكل متردد على الفراش. نظر إليها بازدراء.

احتشد النمل فوق إفريز النافذة. إذا نام هناك، فسوف يشعر ببعض النسيم، على الأقل بعد منتصف الليل. ولكن ذلك كان مستحيلاً. فقد كان النمل منتشراً في المكان، كما كان ملطخاً بالكيروسين من المصباح.

انطفأت الأضواء في البيت واحداً تلو الآخر وكان الحصير يُفرش. وسُمع غطيط شخص ما. خشخشة خلخال، وتثاؤب. هل هذه سوميترا؟

دخل إلى الفراش، متجاهلاً ديفو. اعتقد أنه سوف ينام في الحال، كان متعباً جداً، ولكن جافاه النوم. غطى عينيه بيديه لحجب الضوء ولم يفتحهما حتى عندما سمعها تتحرك في الغرفة. سمع صرير مزلاج الباب من الداخل. غاصت الحجرة في الظلام. فتح عينيه للحظة، ثم أغمضهما مرة أخرى.

تظاهر بعدم ملاحظتها تزحف بهدوء إلى الفراش وتتحرك نحو الحائط.

عندما سمع صوت الباب وفتح عينيه، دُهش عندما وجد أنه الصباح.

متى غرق في النوم؟

رقد في الفراش للحظة يشاهد الضوء الرمادي القادم من خلال النافذة. ثم خرج. كانت كارتو والسيدة العجوز لا تزالان نائمتين في الصالة. مشى بهدوء إلى الشرفة الأمامية. كانت الغربان تنقر بضوضاء في كومة من أوراق الموز المستخدمة على أطراف الفناء.

كانت سوميترا قادمة للتو من حمامها. أخذت مقداراً ضئيلاً من الرماد المقدس من السلة المعلقة وسألت، «لماذا استيقظت مبكراً هكذا؟» ودخلت دون أن تنتظر إجابة، وعادت مرة أخرى بسجائره وعلبة الثقاب. انزلق الموندو من حولها قليلاً وهي تضعها بالقرب منه. تضاءل، شيئاً فشيئاً، وقع أقدامها المبتلة وهي تسير مبتعدة.

جلس القرفصاء في الشرفة، وأخذ يشاهد الضوضاء التي تحدثها الغربان.

خرجت سوميترا مرة أخرى مرتدية ثياباً جافة مكرمشة، أحضرت له معجون الأسنان وماء في وعاء معدني لامع.

«أترغب في كوب شاي؟»

لم يجب.

أحضرت له الشاي. «إنهم يقطفون جوز الأريكا في مجمع إلّام، أليس كذلك؟ لقد رأيت كوماران وكاندوني يذهبان إلى هذه الناحية».

«همم». شرب شايه وأشعل سيجارة أخرى.

هناك شيء أحتاجه من تشاليسيري. عندما تذهب في الشهر القادم».

«ما هو؟»

قالت: «ليس هناك استعجال. لقد انكسر قرطي. أريد تقييمه وإبداله بقرط آخر. في وقت آخر، ليس اليوم».

خرجت أمها. «لماذا استيقظتما مبكراً هكذا؟»

«سوف يجيئون لجني جوز نخيل الأريكا في إلّام». رأى ديفو خلف الباب.

«أعطيني قميصي الفشتي يا سوميترا».

قالت ديفو، «قولي له إن الإفطار سوف يكون جاهزاً حالاً. يمكنه أن يأكل».

تجاهلتها سوميترا، دخلت وأحضرت له فوطة نظيفة. «ها هي. سوف أطوي قميصك الفشتي وأضعه بعيداً. قميصك متسخ. سوف أغسله».

خطا إلى الفناء وتردد، لا يعرف ماذا يقول.

قالت سوميترا، «اليوم الجمعة، لذلك فلن يكون هناك سمك طازج. ولكن تعال في الوقت المناسب للغداء على أية حال».

سيكون الوقت متأخراً عندما أعود من تشاليسيري».

«لا يهم. لن نغلق البوابة حتى تعود».

سارت معه إلى البوابة. «حاول العودة مبكراً، فالقمر في المحاق».

كان متأكداً من شيء واحد الآن، أن ديفو ليس لها مكان في فاداكيتو، انتشرت اللهفة في أنحاء جسده مثل شعاع الشمس في الصباح. نادى من خارج البوابة بأسلوب واثق،

«سوميترا!»

كانت عند نخيل جوز الهند، ولكنها هرعت إليه.

«خذي ما تحتاجين إليه من دكان فابو واطلبي منهم أن يضعوه على حسابي. سوف أسويه فيما بعد».

«همم».

«إذن». لا، لم يكن ثمة ما يريد قوله غير ذلك. سار في طريقه بثقة، معتقدا أنها سوف تبدو جميلة جداً إذا وضعت قرطاً ذهبياً في أذنيها.

هل ترتدي ديفو قرطاً؟ لا يستطيع أن يتذكر سوى ذراعيها المشعرتين ووجهٍ بعظام ناتئة.

لا، لن تجرؤ ديفو أبداً على الوقوف أمامه وجهاً لوجه.

القسم الخامس

1

كان اليوم الجمعة. لو كتبت له تانجاماني بعد يوم من تسلمها رسالته، لوصل الرد اليوم. عادة تأتي رسالتها بعد خمسة أيام من كتابته إليها.

كانت الأم سريديفي تشرح حصة الكيمياء. لم يكن عليه أن يستمع فحسب، كان لابد أن يكتب أيضاً ما قالته في دفتر ملاحظاته. كانت كثيراً ما تعنفهم وتهددهم كما تفعل الأم، ولكنهم كانوا يحترمونها. وبرغم الطريقة غير المتقنة التي كانت ترتدي بها الساري ووجهها الدهني، كان الصمت يعم الفصل عندما تقف على المنصة.

أحاطت بها هالة رومانسية سمع بها كل الطلبة. ربما كان التعاطف الذي أثارته فيهم هو سبب الاهتمام والاحترام الذي يبدونه لها. كانت ابنة مسؤول رفيع المستوى. وقعت في حب سائق والدها. كان متزوجاً وله أطفال. فرت من المنزل وعاشت معه. وهما يعيشان الآن في منزل صغير متواضع في مساكن العمال بأحد المحاجر، وأنجبت منه أطفالاً. لم يلتق أحد من قبل بزوجها. كانت زوجته الأولى، التي تقيم في مكان ما على مسافة بعيدة، تأتي في بداية كل شهر إلى الأم سريديفي لتقبض مالاً لنفسها ولأطفالها.

كان سيتو دائماً ما يشعر أن عينيها بهما حزن عميق تحاول إخفاءه.

سمع أن كل أخواتها تزوجن رجالاً أغنياء. وشعر بالكراهية نحو ذلك الرجل، أي زوجها، الذي هجر زوجته وثلاثة أطفال. كان يؤلمه أن يفكر في هذه الأميرة التي ضحت بمملكتها من أجل الحب. ولم يكن يستطيع سوى أن يتصور مدى ما تعانيه من حزن عميق.

كل يوم جمعة في الصباح، يستيقظ سيتو مفعماً بالأمل. فهو عادة يوم وصول رسائل تانجاماني. بدا خطها الدائري الطفولي الكبير مفعماً بالحياة. كان يقرأ ويعيد قراءة كل حرف ثم يضعها بعيداً تحت قطعة من الورق مفروشة في قاع صندوق ملابسه، وهو يشعر بأنه يضيف المزيد إلى مخزون ثروته المتراكمة.

أول مرة كتب فيها، كتم مشاعره، وقام بكتابة رسالة عادية. عزيزتي تانجاماني، آمل أن تكوني بخير.

خاب رجاؤه عندما لم يصله رد. وعندما تحولت خيبة الرجاء إلى غضب، وصلت رسالتها. رسالة يمكن أن تُكتب إلى والد، أخ، عم. أضافت في النهاية أنها انتهت منها منذ خمسة أيام، ولكن لم تستطع الحصول على ظرف. وعندما كتب في المرة التالية، بعث لها بظرف عليه عنوانه.

تانجام، عندما لم أتلق منك رداً، ظننت أنك نسيتني.

لن أنساك أبداً، يا سيتو إيتا. أتألم عندما تقول ذلك.

هل كتبت هذا السطر لأنها تضايقت ذلك الضيق الطفولي؟ راح يتأمله ويحلله مرات ومرات.

بدأ رسالته التالية بـ «عزيزتي تانجاماني»، وأكمل: أشعر بالوحدة. أنا وحدي أعلم كم أعاني، أريد أن أبقى بمعزل عن الضوضاء

والصخب في الكلية والمدينة السكنية. في الليالي الخالية من النوم، الشيء الوحيد الذي يشعرني بالبهجة هو التفكير بك، يا تانجام.

رسالة حب. شعر بالخوف بعد أن أرسلها إليها. ماذا لو فتحها شخص آخر وقرأها؟ ماذا يحدث لو وقعت في يد أبيها، وبعث بها مع رسالة منه إلى أبيه؟

هل سوف تفهم، هل سوف تتعرف على نغمة أول رسالة حب كتبها على الإطلاق؟

بعد الفصل الدراسي الخاص يوم السبت، انتظر في الشرفة ساعي البريد فرانسيس. توهجت شمس بعد الظهيرة في الخارج، ملقية بأشعتها الحارقة على الطريق الأسفلتي. تعرف في الحال على الظرف الذي كتب عليه العنوان بنفسه. رقصت الكلمات أمام عينيه وتدفقت أنهار من ضوء القمر من خلال أشعة شمس الظهيرة.

«عندما كنت أقرأ رسالتك، سألت أمي ممن كانت الرسالة. وعندما قلت إنها منك يا سيتو إيتان، طلبت مني أن أحتفظ بها خلف المرآة لتقرأها. ولكني لم أضعها هناك ولحسن الحظ، لم تسأل مرة أخرى».

إذا أنهت الأم سريديفي محاضرتها في وقت مبكر، يمكنه الذهاب إلى بيت الطلبة ليسأل عن البريد، ويشارك في الدفعة الأولى للغداء. ولكنها دائماً تستمر لعدة دقائق بعد أن يدق الجرس ولا يجرؤ أحد على الاحتجاج.

أقنع طالبين كانا قد تناولا الغداء بالفعل بأن ينزلا ليحجزا له مكاناً في الطابور الفوضوي. وأسرع إلى حجرته بعد الغداء. لم تكن هناك رسائل، فقط بطاقة واقعة تحت المنضدة. كانت من أبيه، جاءت اليوم

بالبريد. جاء فيها أنه سيعود في صباح يوم التاسع، بالقطار. كانت هناك نفقات غير متوقعة بسبب زفاف الخال مادهافا. لن يمكنه إرسال مال إلا بعد عودته. وأعرب عن أمله في أن يكون سيتو على ما يرام.

أوه نعم، أنا بخير. على خير ما يرام!

لم يكتب الأب قبل أن يذهب إلى البيت. ربما يكون قد ذهب بالأوتوبيس. كان هناك أوتوبيس من بولاتشي إلى ثريسور.

كتب باراميسوارا إيتان إلى سيتو عن زفاف الخال مادهافا. كان سيتو قد سجل اسمه في رحلة دراسية وكان عليه أن يدفع أربعين روبية. كتب باراميسوارا إيتان أنه من المستحيل أن يرسل له نقودا في ذلك الشهر، حيث كان عليه أن يبعث ببعض المال إلى البيت. وأضاف، لابد أنك سمعت أن الخال مادهافا سوف يتزوج ديفو من عائلة فاداكيتو.

كان يأمل أن يتمكن من حضور الزفاف. تخيل الخال مادهافا وديفو واقفين قريبين من بعضهما. وسوميترا، تجري هنا وهناك ترتب وتعد الأشياء. هل ستنظر إليه باحتقار إن عاد؟ «سوف تأتي يا سيتو، ألن تفعل؟ لن نستطيع إقامة حفل زفاف فخم».

أدرك الآن لماذا بدت على وجهها نظرة سخرية في ذلك اليوم.

كثيراً ما كان يزعجه التفكير في الدموع التي رآها تتلألأ على وجهها في الظلام على مصطبة المغطس عند النهر. تلك هي المرة الوحيدة التي رآها فيها تبدو ضعيفة وعاجزة.

حاول أن يقنع نفسه بأنها لم تكن غلطته ولكنها إرادة الله. كان ينبغي أن تكون تانجاماني هي التي يلتقي بها أولاً، وحينئذ ما كانت سوميترا لتخطر على باله أبداً. وما كان ليشعر الآن بأنه فقد الطريق.

ولكن ذكرى وجهها الملطخ بالدموع تلاحقه. غلطة من كانت؟
قرر تلك الليلة أن يذهب لانتظار قطار أبيه في الصباح.
لم يشعر برغبة في القراءة. نظر في ديوان «البستاني»[1] وحاول أن يجد صوراً لبيتين:

قبلتها وقلت إنك عمياء مثلما تكون الزهور.
أنت نفسك لا تعرفين كم يبلغ جمال ما وهبك الله.

لا، لم يستطع أن يجد تطابقاً بين شكل الفتاة العمياء والزهرة.
في الصباح التالي نهض مبكراً عن المعتاد. سوف يصل القطار في التاسعة والنصف. كان هناك قطاران للمسافرين من القرية يصلان في التاسعة والنصف والحادية عشرة والنصف. لم يذكر الأب في البطاقة سوى التاريخ. لابد أن يكون قطار التاسعة والنصف. لم يطلب منه أبوه انتظار القطار.
صادف في طريقه مجموعة الأصدقاء العائدين من الإفطار في دكان كريشنا آير. قالوا، «عجل، فإن فطائر سوامي جيدة جداً اليوم».
«أنا ذاهب إلى المحطة».
«أوه؟»
«سيكون أبي في قطار الصباح».
قال بالاكريشنان، «اسمع، أنا بحاجة لاقتراض عشر روبيات. ألن يعطيك أبوك شيئاً؟»

(1) البستاني The Gardner: ديوان شعر، رابندرانات طاغور (1861–1941). [المترجمة]

ابتسم وعبر الشارع. وخلال انتظاره للأوتوبيس عند مفترق الطرق، فكر في أن كل شخص يتطلع إلى زيارة من وصي- أب أو عم. ذلك يعني الحصول على مصروف جيب. كان بعض الأوصياء يأخذون الموصى عليهم لعمل مشتريات. وسعيد الحظ، يبقى أصدقاؤه بعيداً عنه على نحو مهذب. وكمكافأة على حسن السلوك، سوف يحظون بدعوة إلى مقهى مدراس في ذلك المساء.

حصل دانييل جون الشاب الذي يقطن الغرفة رقم أحد عشر على جهاز راديو صغير يعمل بالبطارية عندما جاء والده ليراه. لاحظ والده عدم وجود راديو في البيت الذي يقيم فيه. وقف الطلبة في الغرفة العامة باحترام وشرحوا أنهم طلبوا من القيّم المسؤول الحصول على جهاز. قال والد دانييل إن لديه واحداً في السيارة وطلب من دانييل أن يحضره.

«شكراً لك يا أبي!»

«لا بأس يا بني».

كان نامبيار هو الذي أخبر سيتو عن هذا؛ كان موجوداً بالغرفة العامة في ذلك الوقت.

راقب سيتو بعين الحسد الوالد وابنه يودعان بعضهما. كان والد دانييل يعمل في شركة تجارية بريطانية في كويمباتور. لم يكن سيتو يعرف دانييل جيداً. أخبره أحدهم أن والد دانييل وصل في سيارة بونتياك ضخمة.

كان والد دانييل طوله ستة أقدام، حسن البنية، وأبيض البشرة وأصلع الرأس. كان يدخن الغليون ويرتدي سروالاً أبيض وقميصاً

أبيض فضفاضاً. ولفت نظر سيتو نظافة كعبيه الضاربين إلى الحمرة فوق النعلين البنجابيين الأسودين اللامعين. كانتا قدمين خاليتين من التجاعيد، وتتميزان بلون وردي مشرق، كقدمي طفل وليد.

أخبره نامبيار فيما بعد أن والد دانييل قال عندما عانقه، «تفوح منك رائحة السجائر».

«لا!»

«لا تكن مخادعاً». أشار إلى علب السجائر الفارغة على رف الكتب. «من المحتمل أنك اشتريتها كزينة للرف». ابتسم ونصح دانييل قائلاً، «التزم بصنف واحد وغذِّ نفسك جيداً».

كانت الزيارة موضوع اليوم في بيت الطلبة.

حام سيتو حول الشرفة عندما كان والد دانييل على وشك المغادرة. تحدث الأب والابن كلٌّ إلى الآخر كأصدقاء. وعندما جلسَ على مقعد القيادة سأل دانييل شيئاً لم يستطع سيتو أن يسمعه. ضحك دانييل. دار المحرك.

راقب سيتو بتعجب وهما يتصافحان «إلى اللقاء». ولاحظ والسيارة تبتعد أن كريشنان كوتي يستند على الحائط المنخفض، ينظر إلى ما يحدث. حاول كريشنان كوتي أن يبتسم، ولكنه لم يستطع محو تقطيبة الجبين على وجهه. تبادلا النظر للحظات.

أخطأ بقوله إنه ذاهب ليلتقي بوالده. سوف يصرون على معرفة كم أعطاه والده مصروفاً للجيب.

كان الأوتوبيس متأخراً. سمع شخصاً يقول إن الأوتوبيس من تيرونيلايي قد تعطل. فعليهم أن ينتظروا نصف ساعة أخرى

للأوتوبيس من مانابيليكافو. حاول أن ينظر الساعة في يد عابر سبيل. كانت الثامنة إلا الربع أو التاسعة إلا الربع؟ هل حسب خطأ عندما دقت الساعة في الحجرة المشتركة معلنة تمام الساعة؟ كتب إلى باراميسوارا إيتان وإلى أبيه طالباً ساعة يد. ولكن لم يستجب أي منهما.

كان قد سمع أن ساعات اليد من سنغافورة تباع بسعر زهيد، الواحدة بخمس وثمانين روبية.

قال كريشنان كوتي إن الفقر ليس جريمة. ولكنه أدرك قيمة الخمس والثمانين روبية وهو يدعو أن يمر عابر سبيل يمكن أن يمسك بيده بنفس الطريقة التي كان يرى بها رسغه الأيسر. وعندما خرج ليلاً من قاعة الطعام، شعر بغثيان في معدته بسبب كعكة التشاباتيس الجافة والرائحة الكريهة للعدس المطبوخ مع جوز الهند والتمر الهندي، وتاق للحصول على أنّة ونصف ليشتري بعض الموز المعلق أمام دكان رافوتار.

تزايد الازدحام على محطة الأوتوبيس. وسارت نساء عاملات في مصانع القرميد في عجلة على الطريق يتحدثن بأصوات صاخبة اللغة المالايالامية بلهجات تاميلية.

عند سماع هدير الأوتوبيس، حدث تشتت جماعي مفاجئ. هبت روائح نفاذة لدخان البيدي والتوباكو من عدد من الشاحنات المارة. جاء الأوتوبيس في النهاية وتسلق السلم بجهد مع أربعة آخرين، خائفاً إلى حد الموت.

وما أن اشترى تذكرة لدخول المحطة، وعبر الكوبري العلوي، حتى جاء القطار. اندفع إلى الرصيف ولكنه لم ير الأب. أخبره أحد

الحمالين أن القطار القادم على الخط الحديدي الضيق[1] ذاهب إلى بولاتشي. ولابد إذن أنه في ذلك القطار. تزاحم الحجاج على الأبواب، في ثياب بلون أصفر داكن، يحملون «كافاديات»، وهي هياكل خشبية على شكل أقواس مزخرفة بريش النعام والزهور. وجد والده في مقصورة خلف المحرك، جالساً عند النافذة مع صحيفة. كان محاطاً بمجموعة من التاميل داكني البشرة وبائعات جائلات يرتدين ألبسة الساري حمراء لامعة، ويحملن أوانيَ نحاسية.

كان الأب منهمكاً في قراءة الصحيفة. وقف سيتو بالقرب من النافذة متردداً. منذ وقت لا يستطيع تذكره، نادراً ما مكث الأب في البيت. وفي زياراته النادرة، كان سيتو يتحاشاه. ووجد من الصعوبة أن يتحدث إليه بصوت مرتفع، أو أن ينادى «أبي»، عن بُعد.

نظر الأب فجأة إلى أعلى. طوى صحيفته وسأل. «أليس عندك دروس اليوم؟»

قال، «لا»، برغم أنه كانت لديه دروس.

لم يحلق الأب قبل أن يخرج. ربت بيده على الشعيرات الرمادية القصيرة في ذقنه. قطب جبينه وأغمض عينيه وبدا مستغرقاً في التفكير. كانت هناك رقع فطرية صغيرة على رأسه ذي الشعر القصير جداً.

«متى سيكون امتحانك».

«في الخامس عشر من ديسمبر»

«مم». غرقا في الصمت مرة أخرى.

(1) خط حديدي ضيق metre guage line: نظام للسكك الحديدية ذو قضبان ضيقة لا تتعدى المتر الطولي، تنتشر خطوطه في كثير من دول العالم. [المترجمة]

كانت ذكرياته الأولى عن الأب عندما كان يعمل في منطقة جبال نيلجيري، أو «الجبل الأزرق». تعود سيتو أن ينتظر عودته للبيت بلهفة. كان يقف بجواره فخوراً بينما يجلس الأب في المقعد المريح وشاله الأحمر المطرز ملفوف حوله. كانت رائحة الأب طيبة عندما يمشي. ولم يمل سيتو أبداً النظر إلى نظارة أبيه، أو نعلي أبيه، أو صابون حلاقة أبيه.

«متى تدفع مصاريف الدراسة المستحقة؟»

«غداً».

«ممم».

«أو يوم الخامس والعشرين مع غرامة مالية».

سأل الصبي الذي يبيع الشاي مراراً وتكراراً إذا كانا يريدان بعضاً منه. وكان الأب يشير بالنفي. وبعد أن فكر قليلاً، سأل: «هل تريد شاياً؟»

قال «لا، لقد تناولت شاياً قبل أن آتي».

تمتم الأب، «ثمة نفقات كثيرة جداً غير متوقعة. لقد أنفقت ما يقرب من ستين روبية على زفاف مادهافان. لا أحد يدرك أن دخلي ليس جيداً مثلما كان من قبل».

تظاهر سيتو بأنه لم يسمع.

«لقد نجحت في تعليم ابن واحد وتهيئته للترقي في الحياة، كان ينبغي أن أكون الآن متقاعداً. كنت في وقت من الأوقات أكسب تسعين روبية وأرسل مالاً إلى أمي وأخواتي بالإضافة إلى العناية بزوجتي وأطفالي».

هل كانت شكاوى الأب موجهة إلى باراميسوارا إيتان؟

جاءت مجموعة جديدة من المسافرين، المتجهين إلى بالاني، وتزاحموا من أجل المقاعد.

أراد أن يخبر والده بأنه لم يبقَ معه مال على الإطلاق بعد دفع مستحقاته. ولكن ذلك سوف يعني الاستماع إلى الأب يخبره كم يكسب، وكم عليه أن يرسل لأمه وهكذا. فالتزم الصمت.

وشعر بالارتياح عندما دق الجرس وأطلقت القاطرة صفيرها.

أخرج الأب رأسه. «حسناً، إذن، استمر في طريقك».

كانت حرارة الشمس شديدة. وقف قريباً من مكان السوق ينتظر أوتوبيس البلدة، يشعر بالغضب من نفسه. ما كان ينبغي أن يأتي.

لم يبق معه سوى روبية واحدة. وعليه أن يفكها أيضاً، لدفع أجرة الأوتوبيس. روبية واحدة فقط لنفسه حتى تصل نقوده يوم الخامس والعشرين.

عندما حل وقت سيره مسافة الميلين والنصف إلى بيت الطلبة، كان غارقاً في عرقه. ذهب الجميع إلى الفصل. كانت ساعة البرج تشير إلى الحادية عشرة. لم يرد الذهاب إلى الفصل. خلع قميصه، وبدل الموندو. فرد فرشته ورقد عليها ليقرأ نسخته المكتبية من ديوان «أوراق العشب».

سمع أصواتاً في الشرفة، ووقع أقدام. عاد بالاكريشنان ودانييل جون من الساعة الأولى.

جاء بالاكريشنان إلى الباب. «هل تغيبت عن الدرس؟»

«لست على ما يرام. أشعر بصداع».

ذهبا بعيداً وعاد بالاكريشنان وقال بهدوء: «لم أكن أمزح. أعطني عشر روبيات، يا سيتو».

«لماذا لم تطلب من شخص آخر مثل دانييل، الذي يملك مالاً؟»

«لا أريد أن أفعل ذلك. أنا لا أعرفه جيداً. أعطني عشرة يا سيتو. سوف أردها إليك عندما تصل نقودي».

«ليس معي أية نقود».

«لقد ذهبت لترى والدك، أليس كذلك؟ ماذا أعطاك؟»

أبقى سيتو عينيه على قصائد ويتمان وقال، «لم يأت. لابد أنه غير خططه».

«حظ سيّئ» أغلق سيتو الباب ورقد. وراودته فكرة مفاجئة، مؤكد أن هناك رسالة من تانجاماني.

بدأ قلبه المتعب يخفق مع التوقع. لقد تأخر ساعي البريد.

وطردت فكرة وجود شيء ينتظره أي شيء آخر من عقله.

2

عندما حاول أن يتذكر منزل تانجاماني، كان ما يتذكره بوضوح هو النوافذ الزجاجية. كانت صورة المنزل وما يحيط به مبهمة.

كانت هناك طرق ودكاكين جديدة، تذكّر الجسر المصنوع من جذوع شجر جوز الهند في المكان الذي يلف المرء منه ليخرج عن الطريق. أصيب ببعض القلق عندما لم يره. سار ماراً بالمحلات وسأل أحد العمال:

«أي الطرق يؤدي إلى بوشبوت؟»

«انعطف عند مجرى المياه إلى الحقل، ستجدها ناحية الشرق بعد عبور الحقل مباشرة».

عاد من حيث أتى، عيناه على الأرض، يشعر بأعين مفعمة بالشك تدور حوله مثل الدبابير، تسأله، ماذا يريد في بوشبوت. وفي مروره عبر بستان جوز الهند إلى الحقل، رأى كتلة مألوفة من أشجار البامبو على مبعدة.

تزايد القلق داخله وهو يقترب من البيت. صحيح أنه انتظر شهورا من أجل هذا اليوم. ولكن الدعوة وجهت إليه من تانجاماني فقط. هل يعطيه هذا الحق في الذهاب إلى هناك؟

ماذا لو كان هناك عدد كبير من الناس عندما يصل.

«من أنت؟ أنا لا أعرفك».

«أنا». تخيل كيف سيقدم نفسه. كيف سيجلس في الشرفة، يتبادل كلمات قليلة وشكليات باردة، يتناول الشاي ويغادر. لام نفسه لأنه لم يفكر في كل هذا عندما كتب إلى تانجاماني أنه سيحضر.

قام بحزم ثلاثة أطقم من الملابس، وكتابين واستعار كاميرا صندوق. حمل الحقيبة الجلدية تحت ذراعه، وفتح البوابة وهو يشعر باليأس، ولكنه كان مصمماً على المضي قدماً، وليحدث ما يحدث.

حاول أن يبتسم بثقة وإخفاء عصبيته. لم يكن هناك أحد في الشرفة. هناك رجل عجوز مشغول بالحفر حول حوض الخيار. شعر بحقيبته الجلدية أكثر ثقلا، وأنهار من العرق تتصبب على صدره.

«لماذا تقف هناك هكذا؟» شعر بالارتياح عندما رأى أم تانجاماني تخرج، وهي مبتسمة.

لقد رآها منذ سنوات مضت، ولكن لا يبدو أنها تغيرت كثيراً، فيما عدا المزيد من البياض في الشعر فوق أذنيها.

وضع حقيبته على الأرض وابتسم، ليس متأكداً تماماً ماذا يقول.

«اجلس، سيتو. أخبرتني الفتاة أنك ستأتي، ولكني حقيقة لم أصدقها».

«لدينا اجتماع طلابي في تريشور. وقد جاء عدد منا». رتب تلك الكلمات، لكي لا يقول إنه لحق بأوتوبيس الصباح الباكر ليأتي مباشرة إلى هنا.

جرى أوني ذو السنوات العشر إلى الداخل بقدم مربوطة بضمادة. وهو يرتدي شورتاً ملوثاً بالطين، تلطخ وجهه بالحروق من زيت الكاشو. وقف بحذر عند العمود عندما رأى سيتو.

«تعال. ألا تعرفني؟» كان يعرف أن أوني هو الذي يبعث إليه برسائل تانجاماني.

جاء أوني بثقة إلى سيتو، تفوح من جسده روائح فاكهة الكاشو.

قالت أمه: «هذا سيتو. هل تذكره؟ لقد رأيته عند خالاتك».

أومأ أوني برأسه، وجلس وبدأ يلوي الأبازيم الموجودة على حقيبة سيتو. جرى بيديه فوقها باحثاً، ولمعت عيناه عندما شعر بحواف الكاميرا.

نسي سيتو أنه كان لابد أن يحضر لأوني شيئاً. عندما ذهبت أمه إلى الداخل. وضع سيتو يديه على كتفي أوني وسأل. «في أي فصل أنت؟»

«الخامس».

كان متأكداً من أن شخصاً ما جاء إلى الرواق. وقف. كانت

تانجاماني عند الباب، تبتسم. فكر أنها أصبحت أطول.

«أنت هنا، إذن؟»

«مم... رأيتك من الدور العلوي وأنت قادم عبر الحقول».

بدا صوتها أكثر عمقاً. ورأى وجهها متورداً، وتدور عيناها نحوه خوفاً.

«هل تسلمت رسالتي؟»

«نعم، أول أمس. اعتقدت أنك ستأتي في المساء. كم يوم عطلة لديك؟»

«لابد أن أكون في الكلية يوم الإثنين».

سأل أوني، غير قادر على الاحتفاظ بصبره، «ما هذا يا سيتو إيتا؟»

«إنها كاميرا، سألتقط لك صورة».

أخذها أوني منه وأدارها في يده.

«كن حذراً. يوجد بها فيلم، قد يتلف».

«لا تتلفها يا أوني».

«ماذا دهاك، يا تانجوبو؟ وكأنها ستتلف إذا أنا لمستها».

وصلت أم تانجاماني بالشاي مع شرائح من فاكهة الكاكايا على طبق فضي. جلست القرفصاء على الأرض لتتحدث إليه. قالت إنها كادت تنسى شكل أم سيتو، مر زمن طويل منذ أن التقتا.

«اعتدت أن أرى زوجة أخي عندما كانت تأتي لزيارتنا في الأيام السابقة. حالياً لا تأتي. وأنا لا يمكنني أبداً الابتعاد عن هنا، ببساطة ليس لدي وقت».

كانت أم تانجاماني تعيش هنا مع أمها، وأخواتها الأكبر منها

وأطفالهن. وعندما قُسمت ممتلكات الأسرة، اشترى الخال جوفيندا والد تانجاماني البيت والمجمع. وتقيم أمها الآن مع الأخت الكبرى وأحياناً تأتي إلى هنا للزيارة.

«قلت لهم يمكن تقسيم الممتلكات بعد الأم، لكن لم يستمع لي أحد».

كان زوج الأخت الكبرى هو الذي نصح بموضوع التقسيم في البداية. وعندما حدث احتجاج عام، تراجع، ولكن عندئذ تبنى الخال جوفيندا الموضوع.

علم سيتو أن تانجاماني كانت في الرواق. تركز انتباهه على الحركات الضعيفة التي يستطيع تمييزها خلف الباب. استمرت أمها في التحدث عن طبع زوجها الحاد ونوبات غضبه.

قالت إن الأرض تم تأجيرها لمزارعين، ووُضعت بساتين جوز الهند تحت إشراف نظار زراعيين.

«اعتاد الشكوى من أنه لا يحتمل قضاء ولو بضعة أيام وسط كل هؤلاء الرعاع. والآن انظر إليّ، بمفردي مع الأطفال. وهو لا يهتم بالمجيء ولو ليومين في السنة!»

كان يرسل نقودا كل شهر، عندما كتبت إليه أن الحداد يبيع أرضه، أرسل إليها المال لدفع مقدمة. ووعد بالحصول على وثائق التسجيل خلال زيارته التالية.

«ولكن ما فائدة المال؟ ليست لديه عاطفة. عندما يأتي، يمر اليومان الأولان في هدوء، ولكن في اليوم الثالث تحدث مشاجرة. ولا يحتاج مبرراً. سمعت أنه على علاقة سيئة بزوج سارادا».

سارادا هي الأخت الكبرى لتانجاماني، كانت تعيش في فيشاكاباتنام. وهي متزوجة من رجل يعمل في شركة شحن بحري.

ذكرت أم تانجاماني الشجار الذي وقع بين الأب والخال جوفيندا. «في الأيام القديمة، كان بيتك هو أول مكان يزوره عندما يأتي في عطلة. لن تعرف أبداً متى سوف يتشاجر مع شخص ما». بدأ صوتها يرتعش.

صاحت تانجاماني، «أمي، أليس وقت استحمامك؟» ولكنها تظاهرت بعدم السماع. تحدثت عن بائع الزيت ابن بولوسي الذي غادر القرية بحثاً عن وظيفة، وفي النهاية وصل إلى بيت الخال جوفيندا. عثر الخال جوفيندا له على وظيفة في الطاحونة. ولكنه طُرد في غضون شهر. وعاد إلى القرية وآثار الجروح منتشرة في جسده كله. كان واضحاً أنه ضُرب بحزام جلدي. وكانت الحكايات التي عاد بها حديث القرية.

«أحياناً، أفكر، لماذا لا أذهب بعيداً مع الطفلين عندما يكون لديهما عطلة».

راقب سيتو الظلام ينتشر فوق بستان جوز الهند والحقل الواقع وراءه.

«سوف تحتاج حماماً، يا سيتو. أوني، خذ حقيبة سيتو إيتان إلى الدور العلوي».

في الليل، جلس في الكرسي المريح بجوار النافذة، يقلب صفحات مجلة قديمة، يفكر بفخر أنه ليس غريباً هنا، بل هو ضيف محترم. أنصت إلى حركة تانجاماني في الغرفة المجاورة. يمكنه أن يميز خطواتها بوضوح.

جاءت إلى الباب لتقول شيئاً لأوني وسألها بلهجة تأنيب، «إذن أنت

مشغولة بشكل رهيب، أليس كذلك؟»

«ماذا كنت تتوقع؟»

«هل تناولت الطعام؟»

«ممم،»

اغتسلت وغيرت تنورتها وبلوزتها ولكن الساري النصفي الأبيض مع الزهور الزرقاء كان رداءها في وقت مبكر.

أحضرت له حليبا في كأس ووقفت للحظة بين مسندي الكرسي النقال، مست ركبتاها ركبتيه. نظر سيتو بحذر إلى أوني الذي كان جاثياً على الأرض، يثرثر بلا توقف. ابتعدت تانجاماني، مست حافة تنورتها الطويلة قدميه.

سمع أبواباً تغلق في الدور السفلي وقعقعة قدور وأوعية معدنية. والرجل العجوز الذي يعمل في الحديقة كان ينفض سجادته، ويسعل محدثاً ضوضاء.

دخلت أم تانجاماني، ووبخت أوني بسبب إزعاجه، وجلست على الأرض، ومدت قدميها. أحضرت تانجاماني لها صندوق التنبول واختفت في الشرفة. هل تشعر بالنعاس، سيتو؟ افرش له الحَشِيّة، يا بنيّ».

«لقد فُرشت بالفعل».

فرش أوني الحَشِيّة لنفسه ورقد عليها. وراح في النوم خلال دقيقة.

«إنه الولد الوحيد وهو متمرد للغاية. ورث عن أبيه الجعجعة وحدة الطبع. العزاء الوحيد أنه ليس سيئاً في الدراسة».

«هو مجرد طفل. سوف يكون على ما يرام حينما يكبر». قال سيتو

ذلك متحدثاً بصيغة الراشد المتمرس في الحياة.

تحدثا إلى وقت متأخر من الليل. جأرت أم تانجاماني بالشكوى من الزوج الذي أعطاها منزلاً، ومالاً، وبساتين جوز الهند، كل شيء فيما عدا العاطفة. آخر مرة جاء فيها، كانت سارادا هنا مع زوجها وأطفالها، لم يتحدث بكلمة واحدة مع زوج سارادا. برغم كل شيء، ما الضرر الذي تسبب فيه ذلك الرجل؟

«الوقت متأخر جداً. لقد جئت في وقت أتوق فيه للإفضاء بهمومي، يا سيتو. على أية حال، لابد أن يكون هناك من أفضي له بهذه الأشياء».

عندما أطفأ المصباح، شعر بحرارة شديدة. خلع الصديري. سمعهم يفرشون الحشايا في الحجرة المجاورة. كانت تانجاماني تتحدث برقة إلى أمها. مد يديه وفتح النوافذ على مصراعيها. صنعت الظلال الطويلة لأشجار جوز الهند أشكالاً غريبة تحت ضوء القمر الباهت.

رقد في الظلام وعيناه مفتوحتان. كانت تانجاماني على بعد خطوات قليلة، على الجانب الآخر من الحائط. هل راحت في النوم؟ تحدثت كثيراً في رسائلها ولكنها الآن هادئة تماماً.

ركز عقله على فكرة واحدة، وهمس في الظلام، تعالي.

هل سمع طقطقة أصابعها على الجانب الآخر من الحائط؟ تنحنح ليعلمها أنه لم يكن نائماً، أنه لم يستطع النوم.

وعندما ساد ظلام حالك، بدا أن صوت تكات الساعة الواقعة في الرواق أصبح أكثر ارتفاعاً.

لن تحب أمه مجيئه إلى بوشبوت. ولا أبوه سيحب ذلك أيضاً. أما الخال جوفيندا، فلن يحتاج إلى سبب حقيقي لبدء مشاجرة. حتى

لو فعل الناس ما يريد، سوف يغضب إذا لم يستشيروه أولاً، إذا لم يشارك في صنع القرار. فكّر سيتو أن المعارضة يمكن أن تكون شيئاً جيداً للمواجهة. سوف يأخذ تانجاماني بعيداً عن هذا البيت حتى لو عارضه الجميع.

لم يعرف متى راح في النوم. استيقظ فجأة مجفلاً، وشعر أن شخصاً ما في الحجرة. سمع صوت رنين رقيق لخلخال. تانجاماني!

اعتراه الخوف أكثر من البهجة. شعر بصدى ضربات قلبه عالية في الظلام. جلس وحملق في أوني، كان غارقا في النوم على الأرض. أمسك يدها وأدرك أنها ترتعد. خاف فجأة من أن يُقبض عليه متلبساً مثل مجرم تحت دائرة من الضوء.

قال برقة، «ألم تنامي؟»

أمسك بها بالقرب منه، غير قادر على الكلام. أصبح رسغاها الرقيقان مستديرين في ذلك الوقت. لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التي أحاطها بذراعيه في منزل الأب.

فكر، هذا معبدي، إنني فقط عابد هنا. ضغط شفتيه على رقبتها وخديها، اللذين يفوح منهما عبير صابون خشب الصندل.

«هل أنت خائفة؟»

«ولماذا أخاف؟»

«ماذا لو استيقظت أمك؟»

«همم». استطاع أن يرى ابتسامتها حتى في الظلام.

أراد أن يقول، «كثيراً ما كنت أفكر ليلاً في الوقت الذي سنكون أنت وأنا معاً بمفردنا. ولكن الآن يكفي أنك قريبة مني. كنت مستعداً

للانتظار حتى تأتي إلى حجرتي ليلا».

«متى ستغادر؟»

«غداً».

كان صوتها رقيقاً، ولكنه استطاع أن يشعر بغضبها وقلقها، «لماذا جئت، إذن؟ لم يكن لقدومك داعٍ ما دمت متعجلاً هكذا».

«إذن بعد غد. ولكن ذلك لا يكفي، أليس كذلك، فالدعوة وجهت لي منك وحدك»؟

«هل ترغب في أن تدعوك أمي؟ هي تعلم أنك تكتب لي».

ربت على كتفيها.

قالت، «سنذهب إلى الشاطئ غداً».

«هل تسمح أمك بذلك؟»

«سنأخذ أوني معنا. سأصر على الذهاب».

قال متنهدا، «الجو حار جداً»، مسحت جبينه ورقبته بطرف ساريها النصفي.

«أبوك لن يوافق عليّ». فكر في العشاق الذين قرأ عنهم في الشعر والروايات وقال، «ليس لديَّ مال. لا أملك شيئاً. سوف يطلبك شباب أغنياء».

«وماذا لو أن هذا يكفي بالنسبة لي؟»

«سوف تأسفين لذلك».

«حقا؟»

استدار أوني في نومه وغمغم.

«اذهبي للنوم الآن، يا تانجام». لم تقل شيئاً ولكن ذراعيها تشبثتا

حوله. شعر فجأة بالخوف. ليست هذه سوميترا. هذه تانجاماني. لا، لم يستطع تحمل أن يكون متهوراً.

«اذهبي للنوم يا تانجام، فقد تستيقظ أمك». كان يعلم أنها لن تفهم، ولكنه قال بهدوء، «لابد أن ننتظر».

قادها إلى الباب، وأبعدها برفق عن ذراعيه. شعر بالفخر بنفسه عندما عاد ورقد على فرشته.

في المساء التالي، ارتدى ثيابه بعناية للذهاب إلى الشاطئ. ارتدى أفضل قميص عنده، ووضع مسحوقاً على وجهه ورطب شاربه الرفيع بلسانه. أخذ كاميرته وخرج ينتابه شعور بالرضا. كان أوني في الفناء. وأحس من نظرة أمها المتضايقة أن تانجاماني خاضت معها شجاراً قبل أن تأذن لها بالذهاب. بذلت مجهوداً لتبتسم وقالت:

«عودوا قبل أن يتأخر الوقت»، وغمغمت، «كأنها طفلة لكي تخرج هكذا».

كان مندهشاً أن يرى تانجاماني مرتدية الساري. قامت بتمشيط شعرها في ضفيرتين وثبتت عليهما حلية من الزهور الورقية المذهبة اللامعة.

تردد سيتو عندما رأى رجلاً عجوزاً قادماً من البوابة.

شرح أوني أنه كان زوج خالته الكبرى. وكان شرطي القرية.

«من هذا؟»

ابتسم سيتو باحترام. قدمت أم تانجاماني سيتو.

غمزت تانجاماني بعينيها، بما يعني «دعنا نذهب». خرجت مع أوني وتبعهما سيتو مرتبكاً.

وشعر بالارتياح عندما وصلوا إلى الطريق. «سوف يخبر عمك الجميع الآن».

قالت تانجاماني بهدوء، حتى لا يسمعها أوني، «دعه يفعل».

ساروا خلال بساتين وحقول أشجار جوز الهند ووصلوا إلى البحر حيث كان الجو ألطف. تخيل وجه تانجاماني، متورداً من أشعة الشمس، وقد أخذ لون الزهور الباهت عند الساعة الرابعة، وشعر بالكراهية نحو شباب المراكبية الأقوياء لطريقة تحديقهم فيها خلال مرورهم.

كان شاطئ البحر خالياً من الناس. والموج يلتف حول أقدامهم مثل ثعابين صغيرة ثم ينسل بعيداً.

«تعالي»، نزل الى الماء ومد يده. كان ذوو البشرة السمراء الذين يعيشون في الأكواخ الواقعة على الشاطئ ينظرون إليهما. تجاهلهم وأمسك يدها.

صرخت تانجاماني بانفعال عندما قامت موجة ضخمة بسحب الرمال من تحت أقدامهم.

جلسا قريبين من بعضهما على الرمال الساخنة. قالت تانجاماني وهي تنظف الرمال من على طرف ساريها الذهبي،

«أمي لم تحب حضوري معك. وقد استسلمت فقط بسبب إصراري».

«هل ألتقط لك صورة؟»

«لا، لن أدعك تفعل ذلك».

«سوف نرى».

«أنا لا أبدو حسنة على الإطلاق في الصور».

«لا أبالي، إنها من أجلي كي أنظر إليها».

التقط أولاً صورة لأوني. وكل الصور الباقية كانت لتانجاماني. تضرع إلى الله أن يكون قد فهم ما علمه إياه بالاكريشنان عن الصندوق القديم للكاميرا منذ عدة أيام.

«لابد أن تمزق الصور التي لا تكون جيدة».

قال أوني، «سيتو إيتا، يجب أن تقوم بتحميض صورتي وترسلها لي».

تحول لون البحر من الأزرق الغامق إلى النحاسي. وامتلأت السماء الرمادية بسحب صفراء وحمراء لامعة.

أراد أوني العودة إلى البيت، «دعنا نذهب يا سيتو إيتا!»

كان سيتو يريد أن يبقى هناك، محدقاً في عينيها اللتين ترتسم فيهما تلك الابتسامة الطفيفة، وحبات العرق على شفتها العليا. نهض على مضض. وساروا يلفهم ضوء الشفق الخافت. وعندما اقتربوا من البيت، أحزنه أن يفكر في أن الساعات القليلة التي كان فيها حامياً لها قد أوشكت على الانتهاء.

قضى ليلة أخرى يستمع لخطواتها، واحتضن جسدها الذي تفوح منه رائحة صابون خشب الصندل، متحدثاً إليها برقة عن المستقبل، قال لنفسه، «إنني معبود الآن».

رأى عينيها الحمراوين وهو يقول إلى اللقاء في الصباح، وسرى الأسى في أرجاء نفسه مثل سحابة سوداء.

«أبلغ أمك أني سألت عنها. وتعال كلما كنت غير مشغول، يا

سيتو».

آلمته عيناه عندما حاول أن يبتسم. استدار إلى الخلف عند حافة الحقل ورأى لمعان التنورة الزرقاء بين أدغال البامبو.

3

قرر سيتو في طريق عودته أن يذهب مباشرة إلى الكلية وليس إلى البيت. كان لديه روبيتان ونصف ويمكنه أن يركب حافلة مباشرة إلى البلدة. ولكن الحافلة التي كان من المفترض أن تصل في الحادية عشرة والنصف لم تصل حتى الظهيرة. أحد الباعة، كان يبيع كتيبات الأغاني الشعبية والقباقيب الخشبية، وضع صينية بضائعه بالقرب من سيتو وجلس يستريح. وعرف سيتو منه أن الحافلة قد تعطلت. ولن تأتي الحافلة التالية قبل الثالثة. وأثناء انتظاره، وصلت الحافلة المتجهة إلى قريته، لم يكن على يقين ماذا يفعل. كان متعباً لوقوفه على قدميه منذ الصباح. وقرر أن يركب، فقط لكي يجلس.

سألت أمه بمجرد وصوله البيت: «من أين جئت، في هذا الوقت من اليوم؟».

نغمة صوتها أنذرته بعدم الكذب. «ذهب باراميسواران إلى بالغات يبحث عنك وقال إنك لم تكن هناك».

«متى ذهب؟»

«أول أمس».

فكر سيتو للحظة، ثم قال: «كان لابد أن أذهب إلى تريشور لحضور اجتماع. بعد ذلك ذهبت مع أحد أصدقائي إلى بيته». هل يذكر اسم

الفتى، اسم عائلته، مهنة والده؟ ويصف البيت؟ لا، لم تكن أمه مهتمة. أضاف، مصادفة حقيقية، «كان صديقي يسكن بالقرب من بوشبوت، لذلك، قمت بزيارتها في طريق العودة».

لم يكن ينظر إلى وجه أمه وهو يتحدث. اعتقد أنها سوف تتوقف عن التجهم وتسأله عن بوشبوت. ولكن كان كل ما فعلته هو أنها فتحت صندوق التنبول الخاص بها وحدقت فيه غير مبالية.

لم يتناول سيتو غداءه. وفجأة انتشر الجوع الشديد في أرجاء بدنه كاللهب.

صعد إلى الدور العلوي. خلع قميصه وثوبه ورقد على الإفريز يستشيط غضباً. ماذا تظن أمي؟ كانت تلك أول مرة يزوره فيها باراميسواران. ويا له من وقت اختاره للزيارة.

أخرج الكاميرا من حقيبته وأخذ يعبث بها. أحضرت بادمو قدح قهوة وتركته على عتبة النافذة. كان ملمس القدح لزجا، على الأرجح لم يُغسل كما ينبغي. وكانت حبيبات القهوة طافية في سائل بلون الماء القذر. ابتلع منه رشفة. كانت له تلك النكهة الكريهة لسكر النخل.

سمع الخالة تسأل أمه: «من هذا الذي بالدور العلوي؟»

«سيتو»

«هل هو في عطلة الآن؟ لم تجب الأم. دفع الباب المتهالك للمرحاض البديل، وألقى بمحتويات القدح وتركه على الإفريز.

لم يشعر بالرغبة في الخروج. فكر في أن يرقد. حاول تثبيت صور آخر ليلتين بوضوح في ذهنه وشعر بكسل ممتع يجري في أوصاله.

في الغسق، نزل وسار في الفناء. كان مصباح قد أضيء وتُرك على

درجات السلم. اضطرب اللهب وانطفأ لأنه لم يكن به نفط. جاء الخال مادهافا إلى الداخل ومعه حزمة من أوراق شجر الساج وأعطاها لبادمو، «خذي هذه إلى الداخل وضعيها في الشرفة الخارجية».

لم يكن السمك يؤخذ أبداً إلى المطبخ مباشرة. جلس الخال مادهافا في الشرفة، وأخرج سيجارة وسأل:

«متى جئت؟»

«هذا الصباح».

خرجت الأم في نفس الوقت الذي نهض فيه الخال مادهافا ليغادر، «هل أنت ذاهب؟»

انتظر الخال مادهافا.

«هل أقدم وجبة العشاء؟»

«لا».

«أرسلوا يسألون عنك من مجمّع إلّام عدة مرات. هل ذهبت هناك؟»

لم يجب الخال مادهافا.

«تلك الكونهاتول الصغيرة المسكينة جرت نفسها حتى السياج، بطنها الكبيرة أمامها، لتنادي عليك».

«وإذن، ماذا بيدي أن أفعل في هذا الأمر؟ لا أستطيع أن أجبر جوفيندان أن يعطيهم الأرز الموجود في صومعته، أليس كذلك؟ أنا لست موظفاً بأجر. وعلى أية حال، لديهم شاب قوي هناك عليه أن يرعى شؤونهم».

«ولكننا جميعاً نعرف أن أوني نامبوديري لا فائدة ترجى منه».

لم يقل الخال مادهافا شيئاً ردا على ذلك.

«لقد جلبت لهم بعض النقود من بيع جوز الأريكا. لا أستطيع الذهاب للمشترين لأطلب المزيد لهم».

«لكنها أوشكت على الولادة. ستنزل علينا لعنة إن ماتت جوعاً».

«تصدقي عليهم إذن، إن كنت مهتمة إلى هذه الدرجة».

رمقت الأم أخاها الأصغر بنظرة طويلة، ثم دخلت. وغادر الخال مادهافا.

غمغمت الأم لنفسها، «غشيم، لا إحساس لديه».

اكتشف سيتو أن الفتحة في السياج بين بيتهم وبيت فاداكيتو قد أغلقت مرة أخرى.

كان يود لو يرى سوميترا. وتساءل كيف حال ديفو المتزوجة حديثاً. عليه الآن أن يتوجه إليها بلقب «العمة».

بدأت الخالة الصغرى تتحدث إلى المرأة الشيرومي التي أحضرت حزمة من أوراق البان بصوت خفيض جداً. اكتشف سيتو أنه كانت ثمة مشاجرة بعد الزفاف بأربعة أيام.

«قولي لنا الآن، هل علينا أن نعبدها، أنا وأختي، فقط لأنها تزوجت أخانا؟ لا يمكننا نسيان الماضي». من الواضح أن بادمو أخطأت ونادتها «ديفو إيداثي».

«يبدو وكأنها زوجة أبينا!».

كان النهر مليئاً الآن، ومن ثم كانت المياه موحلة. لم تصدر أصوات من صهريج إلّام. ربما لم يكن هناك أحد. طلب منشفة. قُدمت له منشفة غسلت ونُشرت في الركن وهي مبللة، فأصبحت رائحتها مكمكمة.

عندما وصل إلى صهريج إلّام، كان هناك شخص فيه. جلس على حجر في بستان جوز الهند. كان يستطيع سماع أصوات مبهمة للناس العائدين إلى بيوتهم من السوق عبر الحقول.

«من هذا؟»

«إنه أنا». وقف سيتو.

«متى جئت يا سيتو؟» كان ذلك أوني نامبوديري.

«هذا المساء. كنت أنتظر أن يخلو الصهريج من الناس».

جلس أوني نامبوديري القرفصاء بجانبه. «هل أنهيت دراستك، إذن؟»

«لا، أمامي سنة أخرى لابد أن أخوض اختبارات البكالوريوس».

صعد شخص من الصهريج يغمغم بأدعية.

قال سيتو، «الصهريج خال الآن»، سار أوني نامبوديري معه.

كان سيتو متردداً في النزول إلى الماء، لذلك بدأ في غسل منشفته وجلس أوني نامبوديري على درجة أعلى.

«لم تكن هنا، يا سيتو، أليس كذلك، عندما ماتت أمي؟»

«فاليا كونهاتول ماتت؟ لم أكن أعرف».

«نعم، في تولام. لم أكن هنا. كنت في معبد أماكافو، لقد استدعوني».

أدرك سيتو فجأة أنه لم يسمع ضحكة أوني نامبوديري المعتادة. لم يتمكن من معرفة انطباعات وجه أوني نامبوديري وهو جالس منحنٍ إلى الأمام، يمسح بيده على شعره المجعد، ولكنه شعر أنه تغير.

«لماذا لا تصبح طبيبا يا سيتو؟» لماذا اعتقد أوني نامبوديري أن هذه فكرة جيدة؟

«هذا مكلف جداً. لا يمكن لمن كان مثلي أن يتحمل نفقات تلك الدراسة».

«الأطباء يكسبون كثيراً من المال. فبالنسبة لولادة زوجتي...». ظلت امرأة أوني نامبوديري في الولادة لأربعة أيام كاملة. واضطروا لإرسال من يستدعي الطبيب ثلاث مرات متعاقبة، وكان يعيش على بعد ستة أميال.

«الطبيب من طائفة فاريار، من شوكابورام. سألني، هل تريد الطفلة أم الأم. كانت الطفلة قد ولدت ساكنة. وكان على ذلك الفاريار أن يعالجها لوقت طويل».

أشعل أوني نامبوديري سيجارة. رأى سيتو أنه أصبح أشبه برجل عجوز.

قام سيتو بغطسة سريعة. كانت المياه باردة جداً. وانشغل بتجفيف شعره، فلم يسمع ما قاله أوني نامبوديري.

«ماذا؟»

ما نوع الوظيفة التي يمكنك القيام بها بشهادة البكالوريوس؟»

«لابد أن أبحث ذلك».

«ما نوع المرتب، على أية حال؟»

ابتسم سيتو لجهل أوني نامبوديري، «يعتمد ذلك على الحظ».

نخر أوني نامبوديري، ثم ضحك ضحكته الغبية المألوفة. «أنتم محظوظون، كلكم». انتهى من حمامه، خرج من الماء وقال: «تلف كشافي؛ انتهت البطاريات».

كان الجو مظلماً تماماً في بستان جوز الهند، لذلك رجعا عن طريق

مجمع إلّام. شعر سيتو بموجة شفقة تملؤه فجأة نحو أوني نامبوديري وهما واقفان معاً في الفناء وهو يستخدم الصيغة القديمة للاحترام، «أدييان، سوف يغادر غداً».

حك أوني نامبوديري رأسه. «أعتقد أن الصحف تقول إن الفلاحين المستأجرين يمكنهم أخذ كل الأراضي لأنفسهم. هل قرأت ذلك يا سيتو؟»

ارتبك سيتو. «لن يستطيعوا الاستيلاء عليها تماماً. سيحصل الملاك على أجرة أقل. ولن يتأثر سوى كبار ملاك الأراضي».

«سألت المحامي. قال إنه لا فائدة من الذهاب إلى المحكمة. ماذا يمكن أن نفعل إذا كانت الحكومة في جانب جوفيندان؟ لم أكن أعرف أن ذلك ما كان يعنيه الاستقلال!»

انتظر سيتو بهدوء لدقيقة. «لابد أن يغادر أدييان».

فكر في كونهاتول المتوفاة، وهو سائر في الظلام. لا يزال يتذكر عينيها المتعبتين تلمعان وهي واقفة في الظلال، خلف الباب، تستمع إلى الجرامافون يعزف أغاني كاتاكالي، تتأرجح شحمتا أذنيها الطويلتان وهي تهز رأسها. ما أسباب موتها؟ نسي أن يسأل أوني نامبوديري.

لقد سمع مصادفة أمّه وخالته تتناقشان حول المشكلات في مجمّع إلّام. لم يكن الخال مادهافا يذهب إلى هناك في ذلك الوقت إلا خلال أيام جني جوز الأريكا. لقد دفع مقدماً لشراء مشتل نباتات كاندان كولانجارا. سيكون لديه خمسمئة روبية قيمة بيع التابيوكا. وكان ينوي كسوة بيت فاداكيتو بالقرميد. سمعت الخالة ذلك من شخص ما. وعندما عرفت الأم، أصابها الجنون.

«دعيه يبني قصرهم لهم، تعوّد التعساء أن يعيشوا على فضلات الآخرين. فوو!»

وبينما كان سيتو يأكل، سألت الخالة بفضول: «قالت أمك إنك ذهبت إلى بوشبوت؟»

«مم،»

«ما أخبارهم؟»

قال دون أن يرفع رأسه عن صحن طعامه، «جميعهم بخير»

«هل يرسل لهم جوفينداان ناير أي نقود؟»

«ربما يفعل. لم أسأل».

«هل البنت الكبرى هناك؟»

«هي في فيشاكاباتنام».

«هناك البنت الأصغر – ما اسمها؟ لابد أنها كبرت الآن».

الصغرى اسمها لا يمكنك أن تتذكريه. آه. من اسمها ستهب زوبعة قوية في هذا البيت.

«أعتقد أنها في الصف العاشر».

«والأصغر ولد، في نفس عمر ابنتي بادمو».

قال سيتو، لتغيير الموضوع، «لم أكن أعلم بموت كونهاتول حتى أخبرني أوني نامبوديري».

«أمر مثير للشفقة لقد ذهبت بسرعة دون معاناة شديدة. كانت محظوظة».

في الليل، نشر فرشته على الإفريز في الشرفة. في الليلة السابقة، نام على فرشة مزدوجة في الحجرة ذات النوافذ الزجاجية.

لم تكن السماء التي استطاع أن يراها الآن من خلال شجيرات جوز الهند جميلة. استطاع بصعوبة أن يصدق ما حدث في الليلتين السابقتين، الليالي التي سمع فيهما همهمات رقيقة جداً. ربما كانت حلماً. ولكن لا. تانجام كانت راقدة هنا، بين ذراعيه. لا يزال يشعر بأنفاسها، دافئة ضعيفة. هنا، بين ذراعيه.

قرر أن يغادر في قطار التاسعة والنصف صباحاً. كانت أمّه في المطبخ، تقطع شرائح موز خام في صينية غربلة.

«أنا ذاهب. أريد أن ألحق بقطار التاسعة والنصف».

«مم».

«أيمكنك أن تعطيني خمس روبيات؟»

رفعت أمه رأسها لتنظر إليه. ثم ألقت بالسكين، ومسحت يديها الملطختين بالموز في الموندو المتسخ الذي ترتديه وذهبت إلى الداخل. أحضرت له ثلاث أوراق نقدية من ذات الروبية الواحدة. «هذا كل ما أملك».

أخذها وخرج، محنياً رأسه لكي لا تصطدم بالباب، قالت أمّه:

«ليس لدينا مال فائض أو ثروة لتعليمك. تذكر أن والدك يشقَى في العمل من أجلك في مكان غريب وبعيد».

شعر بدمه يغلي، سأل بغضب، «وماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك؟»

«إذا رحت تتجول في البلاد في الوقت الذي ينبغي أن تقضيه في الدرس، سوف تصبح رفيقاً ملائماً لأخيك، أنا على يقين من ذلك».

كظم غضبه وحزنه. ترددت كلمات أمه القاسية في عقله مثل ذرات

التراب. لقد كان يحرز أعلى درجة في كل اختبار خاضه بالمدرسة العليا، برغم أنه لم يطلب منه أحد ذلك. في كل نشاط سنوي في المدرسة، كان يصعد إلى المنصة ليتسلم جوائزه. ولم يهتم أحد في المنزل بهذه الجوائز. ولم يتحقق أحد إذا ما دفع مصروفاته أو نفقات بيت الطلبة، أو إذا كان معه مال يكفي للانتقال ذهاباً وعودة.

في اليوم التالي لوصوله إلى الكلية، نجح في أن يقابل كريشنان كوتي بمفرده. خرجا للتجول. في ذلك الوقت، كانت لديه أسرار يريد أن يخبر كريشنان كوتي بها. ولكن عندما جلسا على إحدى النواصي بالميدان، تحت ظل الحصن، شعر بالارتباك.

كانت فرحته مشوبة بالألم. فهو واقع في الحب، والعالم كله ضده. وكان من الصعب أن يبدأ في وصف هذه الحالة، ولكن ما أن بدأ، حتى تدفق الكلام غزيراً.

«من يعارض ذلك؟» سأل كريشنان كوتي.

«أمي لا يعجبها. أبي لا يعلم، ولكنه لن يعجبه أيضاً».

«وماذا عن أخيك».

«سوف يعارض ذلك أيضاً».

«وماذا عن أهلها؟»

«أبوها من المؤكد سيعترض».

تعاظمت الصور المتخيلة بشكل أكثر وضوحا كلما تحدث. قصة حبه يناقشها كل فرد في العائلة. وهو الآن مستعد لأي شيء. قد يحاول أبوها قاسي القلب أن يزوجها لشخص آخر. شعر بالإلهام والابتهاج، بكل هذه العقبات الوهمية.

استمع كريشنان كوتي بانتباه، وهو يحدق في الأفق. قال، «أخبرني بصراحة، هل أنت جاد؟ أم أن هذه نزوة عابرة؟».

كانت عينا سيتو مليئة بالمناشدة. أنت أيضاً، يا كريشنان كوتي؟

«لا تحزن، رأيت كثيراً من الناس في سنك يخلطون بين الأمرين».

«هل تعلم، كريشنان كوتي، كم يوماً مر منذ استطعت النوم بشكل صحيح؟ أنا لا أستطيع حتى أن أركز في دراستي».

وقف كريشنان كوتي «هل تثق تماماً بهذه الفتاة؟»

«بالطبع، مئة بالمئة. ولكن إذا هي أجبرت؟!».

لم يسمح له كريشنان كوتي بأن يكمل. «لا، لا أريد أن أستمع لذلك. ليس هناك ما يمكن أن تقلق بشأنه».

أوجعه أن يفكر بأنه لم ينجح في استثارة تعاطف كريشنان كوتي. سارا في صمت. وعندما اقتربا من بيت الطلبة، قال كريشنان كوتي.

«دعني أخبرك بشيء يا سيتو. أنا لم أبحث أبداً عن الحب. يمكنك أن تتخيل كيف كانت حياتي. كنت بحاجة لشخص أضع ثقتي. في النهاية وجدتها، هذه الفتاة. أحببتها». توقف، حيث كان أحد المعارف يحييهما. وعندما أصبحا بمفردهما مرة أخرى، واصل الحديث، «أنت شاعر، وكل شيء تنظر إليه تضفي عليه مسحة من الخيال. ولكنها، على أية حال، صورة الخادمة في المنزل المجاور، أم لثلاثة أطفال، جالسة على حجر المدق تمشط شعرها، هذه الصورة تلهم معظمكم إلى أقصى حد لكتابة كلمات مثل: إنك حلم بجوهرة زرقاء».

ظل سيتو صامتاً. على الأقل اعترف به كشاعر. هذا في حد ذاته أمر مريح.

بعد أسبوع، وصلت الرسالتان معاً. من نالِيني إيداتي ومن أبيه. قرأ رسالة نالِيني إيداتي أولاً.

«أخبرني رافي أنك جئت إلى بوشبوت. أحزننا ذلك جميعاً لأنك كنت قريباً جداً ولم تزرنا، أعرف أنك ستأتي إلى بوشبوت مرة ثانية. لا تنس أنني التي قدمتك». لم تزعجه شكوى نالِيني إيداتي. بل جعلته سعيداً، لأنها خمنت سبب ذهابه إلى بوشبوت. وفكر، فليعرف العالم كله.

كتب الأب عن نفقات الامتحان. كرر نصيحة أمّه، «لا تتجول هنا وهناك في الوقت الذي يجب أن تدرس فيه». قرأ الرسالة مرة أخرى وكان مسروراً لأنه تعرّف على أحد الأعداء.

كان الأب دائماً غريباً عنه. اقتصرت العلاقة بينهما على الستين روبية التي يبعثها لسيتو كل شهر، والرسالة المصاحبة التي تعدد مشكلاته.

عندما جاء الأب ذات مرة إلى البيت، أراه الجوائز التي نالها لبراعته ومعارفه العامة بشعور عظيم بالزهو. قلّب الأب أوراق سجلات الجائزة، ووضعها على ذراع الكرسي وعلق، «ما أسوأ تغليف الكتب في هذه الأيام».

على الرغم من أنهم لم يقولوا له أبداً كلمة تشجيع، إلا أنهم سرعان ما وضعوا أيديهم على خطأ يعيبه الآن.

سأل كريشنان كوتي. «رسالة من هذه؟»

«أبي».

«هل هناك أي أخبار؟»

لم يجب. وحملق في كريشنان كوتي. أنت لا تصدقني، أليس كذلك؟

انتظر وسوف ترى. لقد بدأت المعركة!

4

بالقرب من معبد أراليكارا، كان منزل طالما أثار إعجاب سيتو وهو طالب بالمدرسة العليا. كان هذا المنزل ملك السيد تشاندراسخاران الذي يجر قدمه العرجاء وهو يمشي، وكان يقع على ضفاف قناة صغيرة وتمتد خلفه صخور عظيمة، كان الأطفال الذين يأتون مع أمهاتهم إلى المعبد يلعبون على الصخور. ونمت على السياج نباتات ذات أزهار صفراء. لم تكن الحديقة كبيرة، ولكنها كانت جميلة، بيت سقفه مكسو بالآجر وسط نخيل الأريكا المحمل بالزهور وثمار الجوز، بهيجة وغضة مثل نسوة يمتلئن بالحيوية، كلما فكر سيتو في عائلة له، كانت صورة هذا البيت ترد على خاطره.

تذكر سيتو بارتياح أنه سوف ينتهي سريعاً من دراسته ويصبح مستقلاً. ثم يمكنه أن يمتلك منزلاً مثل هذا.

في شهر إدافام، كان نخيل الأريكا في هذه الحديقة يتأرجح مع الرياح مثل نساء ذوات شعور طويلة. وفي شهر تشينجام، كانت الظلال تتلكأ بين رقع من ضوء القمر. وفي شهر تولام، عندما تفيض القناة مع الأمطار، يمكنك أن تجلس في الشرفة وتراقب فقاعات الماء فوق مغارس عشب كاروكا، مستمعاً إلى أجراس المعبد تدق والناس يتحدثون بالقرب من حوض المعبد.

«تانجاماني، لابد أن نعثر على اسم لبيتنا».

«قل لي أنت».

«لا، لابد أن تقولي أنت».

«هل أفعل؟ إذن كافيتال»

عندما أرسل والده رسوم الامتحان، كتب قائلاً، قضية مد خدمتي لا تزال محل مناقشة. على الأرجح، لابد أن أتقاعد بحلول يوم واحد وثلاثين من مارس.

اقتصرت قراءة سيتو على كتب الشعر من المكتبة ورسائل تانجاماني. وأصبح عصبياً بشدة مع اقتراب الامتحانات. لم يدون ملاحظات. ولم تكن لديه كتب مدرسية حول الاقتصاديات الريفية والميزانية العامة. إذا استطاع أن يحصل على تقدير من الدرجة الأولى في الجزء الأول أو الثاني، فسوف يحصل على وظيفة مدرس في الكلية، على الأقل.

كتبت تانجاماني أن امتحاناتها سوف تبدأ في العاشر من مارس. كانت تؤدي امتحاناً حكومياً أيضاً. في رده، أعرب عن تمنياته بنجاحها، وكتب أنه سيعمل جاهداً خلال الأيام القليلة القادمة. إنها غلطتك، يا تانجام، إنني لا أستطيع التركيز. إنك تقاطعينني عندما أقرأ وعندما أحاول النوم. سوف أعاقبك بشدة لهذا عندما نلتقي في المرة القادمة.

وشعر بسعادة عندما فكر أنها سوف تبتسم وترتبك من البهجة عندما تقرأ ذلك.

اختتم الرسالة، «أعز مخلوقة، ألن تصلي من أجلي؟»

بمجرد انتهاء الامتحانات، تغير الجو في بيت الطلبة. كان على الطلبة الأكبر سناً أن يتبادلوا تحيات الوداع. حتى أولئك الذين كانوا في المعتاد منعزلين، شاركوا الآخرين. كان من الصعب أن يترك كل الناس الذين قابلهم هنا. شعر أنه لن يجد أبداً مثل هؤلاء الأصدقاء مرة أخرى.

والأصغر سناً الذين كان بالكاد يعرفهم، أرادوا منه أن يكتب رسائل وكلمات حكمة طفولية على الصفحات الملونة للأوتوجرافات الخاصة بهم. كتب عناوين كثيرة، وأعطى عنوانه لأصدقاء عديدين.

عندما عاد من كتابة آخر ورقة، قال شخص ما، «بالا كريشنان يبحث عنك». ذهب إلى حجرة بالاكريشنان.

قال بالاكريشنان بلامبالاة، «لقد انتظرت بالضبط نصف ساعة. هؤلاء الأغبياء لا يدعونك تخرج قبل ذلك. سأقوم بمحاولة لتأدية الامتحان في سبتمبر».

«لماذا تبحث عني؟»

«لقد رتبت لشيء ما في المساء. لا تخرج».

«ما هو؟»

«سأخبرك في الوقت المناسب. لا تخبر كريشنان كوتي. فهو يثير هرجاً ومرجاً».

كان كريشنان كوتي مشغولاً بحزم كتبه في قاع صندوق ثيابه.

«أتقوم بحزم أمتعتك؟»

«ماذا فعلت؟ هل ستحصل على الدرجة الأولى؟»

«لا أعرف. سوف أجتاز الامتحان».

«لا فائدة على الإطلاق من الحصول على تقدير من الدرجة الثالثة. يمكنك أن تعمل على الحصول على الماجستير، أو تجد شخصاً يوصي بك للحصول على وظيفة، هذا كل شيء. ألا يستطيع والدك الحصول لك على وظيفة في الولاية؟»

«إنه على وشك التقاعد».

«ولكن من المؤكد أن له اتصالات. ما لم تكن ستواصل المزيد من الدراسة، فمن الأفضل أن تعمل في شركة يملكها رجل أبيض».

لم يقل سيتو شيئاً. عندما ذهب كريشنان كوتي لتمشيته المعتادة في المساء، لم يذهب سيتو معه. خرج معظم الطلاب للاحتفال. ووجد أرافينداان ودانييل جون في حجرة بالاكريشنان. أغلق بالا كريشنان النوافذ، وأوصد مزلاج الباب وأخذ حفنة زجاجات صغيرة من الدولاب، مثل تلك التي يبيعها مندوبو مبيعات الأدوات الطبية في القطارات. كان هناك خمس منها، عليها ملصقات جميلة الشكل. قرأ سيتو روح الموز، روح الفراولة، روح الطماطم.

«لا تقلق، إنه خمر».

«ولكن هذا محظور». أول ما خطر على بال سيتو أن ذلك يعد انتهاكاً للقانون.

«الحظر لا يُطبق على هذه، إنها تُباع في كل المحلات. وهي من أفضل الأنواع».

وصف دانييل الخصائص المميزة لعدة أنواع من الكحول. فقد كانت تُقام حفلات متكررة في بيته. بعد جولتين أو ثلاث، كان والده يدعوه، «اجذب كرسياً، وتناول كأساً صغيراً».

قال بالاكريشنان، «التودي، نبيذ النخيل، أفضل بالنسبة للجسم».

«زرني في بيتي. سأقدم لك أفضل تودي».

فتح بالاكريشنان زجاجة من زجاجات الأرواح، وصب بعضها وملأ الكأس بالمياه من القدر الفخاري، وقدم الكأس إلى دانييل.

احتسى دانييل ملء فمه وقال، «رائحته جميلة. ليس سيئاً على

الإطلاق».

كان هناك كأس واحد فقط، شرب أرافينداان، وملأ الكأس مرة أخرى ومد يده به إلى سيتو.

«لا أرجوك، إنني لم ألمسه أبداً من قبل».

«إذن المسه الآن».

قال له أرافينداان، «رشفة واحدة من هذا ثم نفثتين من سيجارة».

تردد سيتو، «لا».

قال بالاكريشنان، «لم أكن أهتم بمثل هذه الأشياء على الإطلاق. أصر صديق في مدينتي على ضرورة أن نشرب في نفس اليوم الذي أعلنوا فيه قانون الحظر. وقال لي: من تكون الحكومة حتى تقرر لنا ما نشربه».

«ولكن ليس جيداً أن تجعل منها عادة».

نظر سيتو إلى السائل الأصفر الباهت الذي كانت له راحة عشب الليمون وقال، «هاتها».

ولكن بالاكريشنان خطف الكأس، وأفرغه في جوفه وأشعل سيجارة، لاحظ سيتو أنه لم يبد على أحد منهم أي دهشة.

«أنا ضد تحريم الخمر. لن يستطيع القانون أن يجعل من كل واحد منا مهاتما غاندي».

بدت عينا أرافينداان أضيق. تبادلت الأيدي الكأس مرة أخرى.

بدا بالاكريشنان وقد واتاه إلهام مفاجئ، «يقول صديقي، هل الحكومة ستطعمك إذا كنت تموت جوعاً؟ هل يتعهدون بإعطائك وظيفة عندما تنهي دراستك؟ هم وقوانينهم!»

شعر سيتو بأنه على مسافة بعيدة منهم. ثنى كوعيه على اللحاف المنشور فوق السرير المصنوع من حبال الليف وأنصت. عندما فتح بالاكريشنان الزجاجة الأخيرة من الرائحة، وصب السائل في كأس صغير، وخلطها بالماء ومدها، قَبِلَها سيتو. لم يكن طعمها سيئاً. شرب النصف وأعطى بالاكريشنان الكأس.

«يكفيني هذا. اشرب أنت الباقي».

أخذ سيجارة من علبة دانييل. كم كان الأمر مريحاً، شعر بأنه على ما يرام. نهض.

«أراكم فيما بعد».

خرج بالاكريشنان معه وهمس بأن راماكريشنان الحارس قد رتب من أجل ذهابهم إلى مكان ما في كالباتي تلك الليلة. سوف يتكلف ذلك خمس روبيات.

«أتأتي؟»

«لا».

«إنها من الطائفة البراهماتية، وصغيرة».

«لن آتي».

فتح النافذة في حجرته، مد فرشته ورقد. ماذا لو بدأ رأسه يدور؟ عاد كريشنان كوتي. كان سيتو مندهشاً لأنه شعر بصفاء ذهني كامل.

ماذا سوف تظن تانجاماني بشأنه؟ سوف ينتهي امتحانها الآن. هل سوف تجتازه؟ إذا هي حصلت على علامات عالية، سوف تصر على الذهاب إلى الكلية. لم يحب سيتو فكرة تركها دائرة الحماية في البيت. تخيل كيف أن الأولاد سوف يتعقبونها بالدراجات، وكيف سيراقبونها

وهي تخرج من مبنى الفتيات مع صديقاتها.

«فيم تفكر؟»

ابتسم. «في الواقع، كنت أدعو».

«لكي تنجح؟»

«لا، لأن ترسب فتاتي».

حدق كريشنان كوتي بشكل يدل على عدم الفهم. شرح له، إذا نجحت، سوف تذهب إلى الكلية. ماذا لو تغيرت بعد أربع سنوات في المدينة؟

ضحك كريشنان كوتي وقال محتجاً، «الأنانية، أليست هي اسمك يا سيتو؟»

في اليوم التالي ودع بعضهم بعضاً. عندما ذهب إلى حجرة بالاكريشنان للحصول على عنوانه، همس إلى سيتو، «كان لابد أن تأتي، كان الأمر مأمونا تماماً. ذلك النذل راماكريشنان كان يمكنه أن يبلغنا بذلك من قبل».

غادر كريشنان كوتي وسيتو معاً في الصباح التالي. ساعدهما أصدقاؤهما في شحن أمتعتهما على عربة يجرها حصان. كان الأصدقاء الذين أنهوا أوراقهم النظرية لا يزالون ينتظرون استكمال امتحاناتهم العملية. وبدا التجهم على الجميع وهم يتصافحون، حتى أولئك الذين كانوا في العادة يتسمون بالفظاظة وتبلد المشاعر.

نزل كريشنان كوتي عند محطة الأوتوبيس وسأل سيتو: «متى أراك ثانية؟»

«في يوم ما، ربما قريباً جداً، وربما بعد عدة سنوات. ربما لن نلتقي

أبداً بعد ذلك. هذه الأشياء ليست مؤكدة».

«أوه لا تقل ذلك، إنك تبعد فقط أربعين ميلاً. يمكننا أن نلتقي دائماً. سوف أكتب لك».

ابتسم كريشنان كوتي، «أنا لم ألتق منذ سنوات بأشخاص يقيمون على بعد نصف ميل فقط».

لم يعرف سيتو ماذا يقول.

«حظاً سعيداً!»

«أنا لا أعتقد في الحظ، لذلك لن أتمنى لك نفس الشيء».

بحث في جيبه عن نقود ليعطي سائق «الجوتكا». قال سيتو، «سوف أدفع أنا،»

«لا سوف نتشارك. عليك أن تعطيه ثماني أنّات الآن». راقبه سيتو بغضب وهو يعد النقود. لقد اشتركا في حجرة لثلاث سنوات وأفضى كل منهما للآخر بأسراره. هل عليه أن يعيد حساباته من أجل ثماني أنّات الآن؟.

وكأنه كان يقرأ أفكاره، قال كريشنان كوتي، «أنا أؤمن بالتعاطف والمودة. والأفضل ألا يكون أحدنا مديناً للآخر. ثماني أنّات تعتبر ديناً، حتى بيننا».

وقف سيتو وقد التبس عليه الأمر، لا يعرف ماذا يقول. وضع كريشنان كوتي يده على كتفه وقال، «اذهب الآن، لا تجعل القطار يفوتك».

سارت العربة الهزيلة يجرها الحصان ببطء طوال الطريق الذي بدأ الأسفلت يذوب عليه من شدة الحرارة. وبدت علامات السوط

مثل خيوط من الدم فوق ظهر الحصان. وعندما كان السوط يطرقع متوعداً، رأى سيتو ارتعاش اللحم الأسود الجريح والسوط يصفِّر عبر الهواء. ورفض الحصان بشجاعة، تلك الشجاعة المتولدة عن اليأس، أن يسرع الخطى وسار ببطء إلى الأمام، يجرجر حوافره.

5

نزل من القطار في الساعة الثالثة والنصف. ونظراً لأنه كتب في وقت مبكر إلى أمّه، كان تامي، الصبي الشيرومان في المحطة. أصبح أكبر، ولكن لا تزال له نفس الأسنان الكبيرة والشعر الشائك. كان والد تامي هو الذي حمل صندوق ثيابه إلى المحطة في تلك الليلة المطرة منذ أربع سنوات، سمع سيتو أن الرجل العجوز لم يعد يعمل. لقد أصبح الحكيم الذي يلجأ الشيرومان لاستشارته.

كان النهر امتداداً لانهائياً من الرمال. وكانت هناك بحيرات راكدة من المياه الموحلة حيث كان فيضان المياه قد توقف. كان يشعر بحرارة الرمال، حتى وهو يرتدي صندله. سار تامي بلا مبالاة فوق الرمال الحارقة حاملاً الصندوق الصفيح المليء بالكتب والملابس وفوقه فرشة ملفوفة.

كان الأب جالساً على الكرسي النقال في الشرفة، كان سيتو عندما يعود إلى المنزل يلازمه دائماً شعور بالقلق. ولكن هذه المرة كان يشعر بالثقة. لقد أصبحت رجلاً الآن. أنا ذاهب لأبدأ حياتي.

وبينما كان يساعد تامي في إنزال الأمتعة، نهض الأب من كرسيه، بصق في ساحة الدار وقال، «ألم تكتب أن امتحاناتك سوف تنتهي أول

أمس؟» قال ذلك بنغمة تعني ما الذي أبقاك يوماً إضافيا؟

«نعم، كانت الامتحانات قد انتهت».

أول شخص رآه عندما دخل كانت الخالة الصغرى. «متى جاء أبي يا خالتي؟»

«أمس، جاء هنا بعد زيارة بيته. وهو ليس مضطراً أن يعود إلى العمل».

بدا أنهم سعداء لأنه تقاعد. كانوا يعلمون أنه جمع ما يكفي من المال. يمكنهم الآن كسوة السقف بالقرميد. كانت أمّه دائماً تريد قطعة أرض بالقرب من النهر حتى يمكنهم زراعة ما يكفي من الأرز للاستخدام طوال العام، ما لم يفشل المحصول.

«لماذا يقيم في أماكن غريبة ويعيش حياة صعبة؟ لقد تقدم به السن وأصبح غير قادر على فعل ذلك الآن». كان سيتو يعلم أن ما تأمله أمه في الواقع كما قالت هو سقف مكسو بالقرميد وقطعة أرض بالقرب من النهر.

جلس سيتو على عتبة النافذة في المطبخ وقال، «أنا لم أعط تامي أي شيء».

«ممم، سوف أعطيه شيئاً».

صبت أمّه الشاي الذي أعدته للأب في كوبين، وقدمت واحداً لسيتو.

«بادمو، خذي هذا إلى الشرفة».

نقلت الإناء الألومنيوم إلى الركن، ووضعت علبتي الشاي والسكر القديمتين الرثتين على الرف وجلست عند باب المطبخ، تحك ذراعيها.

«ممم، أوليس ذهباً، ذهبًا حقيقياً، ما أحضره إلى البيت عندما تقاعد. أدعو فقط ألا أتحدث أكثر من اللازم».

وجدت الأم من الصعب أن تتحكم في غضبها. «لقد جاء بعد أن استضافته أخواته وأطعمنه. عرفت، رغم ذلك».

استفزها سيتو. «لابد أن يكون لديه مال في البنك. كيف يمكنك أن تعرفي؟»

قلدت أمه لهجة الأب وأسلوبه، «لماذا أحتاج الثروة؟ عندي ولدان على أية حال».

ساهمت الخالة بتصريح عميق المغزى. «الإنجاز مسألة قدرية!» كان لديها مثال لتوضيح هذا. فالخال مادهافا بلا وظيفة، ولكنه استطاع أن يعيش على زراعة التابيوكا وموز النينثرام. ومنح فاداكيتو سقفاً مكسوًّا بالقرميد وملأ حديقتهم بشتلات مزروعة حديثاً.

كان قميص الأب وصديريه معلقين في الحجرة بالدور العلوي، وكانت الحقيبة الجلدية على الرف. حاول سيتو أن يفتحها، ولكنها كانت مغلقة. وحينئذ رأى الزجاجة نصف الفارغة تحت السرير. وفاحت من الزجاجة المقلوبة بجوارها رائحة الكحول.

أسرع بالنزول عندما سمع الأب يصعد السلم وهو يسعل. وقف على جانب السلم لكي يسمح له بالمرور. توقف الأب وسأله، دون أن ينظر إلى عينيه مباشرة:

«متى سوف تظهر نتيجتك؟»

«خلال شهرين».

كان التفكير الذي يسيطر على عقله أنه لم يعد لديه مكان لا يزعجه

فيه أحد. سار جيئة وذهاباً بالساحة، شاعراً بالغثيان. نزل الأب مرة أخرى، رقد على مقعده المريح، يمسح رأسه بمنشفته ويبصق في الفناء.

«وكأنه من السهل جداً أن تنفق على فتى هذه الأيام حتى يُنهي دراسته الجامعية. يوجد كثير جداً من الناس الأغنياء فيمن حولنا، ولكن كم منهم يعلمون أطفالهم؟ لم أفعل كل هذا على أمل أن أستفيد من الأبناء فيما بعد. لا أريدهم أن يعتقدوا ذلك».

عندما بصق مرة أخرى، سقطت البصقة على الشرفة. راقبه سيتو، يملؤه شعور بالتوتر والاشمئزاز.

لمن يوجه الأب الاتهام؟ إليه هو؟ إلى الأم؟ إلى العالم؟

«لقد بذلت ما يكفي لتعليم أحدهما. لو استخدمت هذا المال لشراء بستان جوز الهند، لكنت بالتأكيد أربح مئة روبية في الشهر الآن».

قالت أمه: «وكان أولاد وبنات أخواتك سيتمتعون بكل ذلك. لماذا تلومنا؟» كانت قد جاءت للتو إلى الشرفة. صمت الأب. تنحنح، وتمخط، ونهض. ألقى نعليه عن العوارض الخشبية محدثاً جلبة وخرج.

فكر سيتو في الديون التي تحدث عنها كريشنان كوتي. لقد احتفظ بحسابات لكل المال الذي أرسله له الأب. قال لنفسه إنه لابد أن يسددها. لابد أن الوالد قد استنفد رأس ماله بالفعل. لاحت في ذهن سيتو صورة المرابي سيد وهو يقوم بجولات لجمع فوائده.

كان يتباهى بوالده أمام العديد من أصدقائه. وفكر بقلق في كل أولئك الذين أعطاهم عنوانه.

ماذا لو جاء دانييل إلى هنا!

أهلا، التقِ بوالدي.

هذه أمي.

انتقل إلى الحجرة الجنوبية ونادى بادمو لتحضر له المصباح. قالت أمّه، «لقد أنهيت امتحاناتك، أليس كذلك؟ لن يضرك ألا تقرأ لمدة يوم واحد. لم تمر ثلاثة أيام منذ اشتريت زجاجة كيروسين. وليس هناك قطرة واحدة باقية».

رقد سيتو في الظلام على رف خشبي ذي صرير وغمغم، «البيت، ما أحلى العودة إلى البيت!»

القسم السادس

يترقب العبّارة وهي تزحف ببطء فوق مياه النهر، قادمة من الشاطئ البعيد.

يخطر على باله فجأة أن المركب دائماً ما يكون على الشاطئ البعيد في كل مرة يبدأ فيها الرحلة. وكلما نزل من القطار تحت حَرّ الشمس بعد الظهر وجاء إلى الشاطئ الآخر، يجد العبارة تتهادى في مرساها على هذا الجانب.

هل يحدث هذا هنا فقط؟

هل يحدث هذا لي أنا فقط؟

بينما ينتظر القطار الذي ينطلق باتجاه الشرق، يقول الحمال، إن القطار المتجه إلى الغرب من المقرر أن يمُر هنا. ينصت بانتباه إلى الجرس. جيد، فالقطار المتجه إلى الشرق هو الذي تعطل. وضع الحقيبة على كتفه، وهو يستعد لأن يشق طريقه إلى داخل القطار، إلا أنه يرى القطار قادماً على الخط الثاني! عليه أن ينتظر ممتعضاً حتى يصل القطار المتجه إلى الغرب، يلفظ حشداً من البشر، ويستوعب حشداً آخر، وأخيراً ينطلق في طريقه.

مركبي دائماً على الشاطئ الآخر، وقطاري على الخط الثاني!

وبينما هو جالس في الأوتوبيس، يشعر بالحرارة والعطش، ينتظر أن يُفتح مزلقان السكة الحديد المغلق، فُتحت البوابة التي على الجانب

الآخر أولاً. ينتظر، نافذ الصبر، مرور صفوف وصفوف من السيارات. قال لنفسه يحدث ذلك لأني في هذه الحافلة.

1

ذات مساء، كانت هناك أصوات شجار في فاداكيتو.

قالت الأم: «التعساء، لقد عادوا إلى ذلك مرة أخرى. ألا يمكن للجيران أن ينعموا بالراحة والسلام».

استغرق الأمر من سيتو بعض الوقت ليدرك أنه كان شجاراً. ارتفع صوت ديفو إلى حد العويل وبدأت العمة تصرخ. وظل صوت سوميترا خفيضاً. وبعد ذلك سمع الخال مادهافا يصيح، «سوف أطردكم جميعاً».

تحولت الصيحات إلى نشيج، وقفت خالته عند الباب الشمالي، تستمع وتنقل تعليقات مباشرة للأم.

عندما هدأ الجميع، قالت الأم بازدراء: «إنهم أسوأ من الرعاع. ليس ثمة من يقبل القيام برعاية هؤلاء سواه».

كان سيتو يخشى الخروج. فالجميع يسأل، «ألم تعثر على وظيفة بعد؟»

«أبحث حالياً عن وظيفة».

«في أي مجال؟»

سوف يرد، السكة الحديد أو الجمارك، للهروب من أسئلة أخرى.

كل يوم، يقف على باب مكتب البريد، يمد رقبته ليعرف إن كانت هناك أية أظرف رسمية بين تلك التي يختمها رجل البريد. حاول أن

يبدو غير مبال، وهو حريص ألا يُظهر تلهفه على أن يكون النداء التالي على اسمه هو. ثم يغادر متظاهراً بأنه عرج على مكتب البريد مصادفة. يتصبب وجهه وجبينه عرقاً، ويدعو ألا يلاحظه أحد. وأثناء عودته سائراً إلى البيت، يحافظ على السير تحت ظلال شجيرات الباندانوس، قد يسأله شخص ما:

«إذن يا سيتو مادهافان، ألم تعثر على وظيفة بعد؟»

الناس لهم أفكارهم الخاصة عن الوظائف. يظهر معظم الناس شعورهم بالسعادة لسماع أنه يحاول الحصول على وظيفة في السكك الحديدية. ذلك يعني أجراً جيداً. إذا أصبح ناظر محطة تيرور أو ثانور، يمكنه أن يجني مئة روبية في اليوم بسهولة. في المحطات الأكبر، من الأفضل أن تعمل في قسم البضائع أو الطرود. ليس عليه أن يتسلم المال بشكل مباشر، فالرشاوى التي يدفعها من يأتون لحجز أماكن لبضائعهم يتقاسمها جميع الموظفين. كان القرويون لديهم حكايات كثيرة عن الذين جنوا ثروات من ثمرة عملهم في السكك الحديدية.

كان قد استطاع أن يتجنب الناس حتى تظهر النتائج.

في النهاية توقف عن الذهاب إلى مكتب البريد. إذا كان هناك شيء يخصه، سوف يحضره ساعي البريد في الصباح التالي. وصل سيل من الرسائل من أصدقائه بمجرد عودته إلى البيت، ولكنه سرعان ما تضاءل. ووصلت رسائل تهنئة بمجرد إعلان نتائج الامتحانات. وكتب له الذين نجحوا عن خططهم المستقبلية.

لم تحرك التهاني مشاعره. حصل على الدرجة الثانية في الجزأين الأول والثاني ودرجة ثالثة في المواد الإضافية.

اجتاز كريشنان كوتي الامتحان ولكنه حصل فقط على الدرجة الثالثة. ولم تصل رسائل منه. فكر سيتو في أن يكتب له عدة مرات، ولكنه أجّل ذلك. فكر في أنه سوف يكتب له بعد أن يعثر على وظيفة.

كانت رسائل تانجاماني تأتي على نحو منتظم. كان يحتاج أربع آنّات أسبوعياً ليرد عليها. لقد تعود أن يرسل إليها ظرفاً معنوناً، لذلك لم يستطع أن يتوقف عن ذلك الآن. سوف يسأل أمه عن روبية أو اثنتين لإرسال استمارات تقديم الوظائف. عليه أن يسير ستة أميال لمقابلة موظف إعلان في جريدة رسمية أو طبيباً في مستشفى حكومي، يصدق على نسخ شهاداته. كانت أمه عادة تعطيه النقود لاستمارات التقديم بدون أي أسئلة. فيما عدا مرة واحدة، عندما سألت.

«ألم يكن أول أمس فقط عندما قلت إنك ذاهب لتقديم شهادة؟»

«تلك كانت واحدة أخرى».

نظرت إليه باستياء، ولكنها لم تجرؤ على الاحتجاج نظراً لأن ذلك يتعلق بمهنته.

رأى تانجاماني مرة واحدة بعد ظهور النتائج، عندما ذهب ليرى أباه بشأن الوظيفة. سألت أمه، «هل هو من أجل وظيفة في العزبة؟»

«ممم».

لم يكن مع أمه نقود تعطيها له من أجل الرحلة، لذلك أرسلت بادمو إلى مجمّع إلّام. لم يكن لديهم نقود أيضاً. كونهاتول الصغيرة نفسها اضطرت لاستعارة مبلغ من المال من النساء اللاتي يأتين للاستحمام في الصهريج.

اقترحت خالته إرسال بادمو إلى بيت الأم أندور ميناكشي. وثبتت

صحة تخمينها بوجود نقود أكيدة لديهم، حيث إن القدور الفخارية التي يصنعونها تُباع بأسعار جيدة.

كان سيتو قلقاً من أن تطلب منه أمه أن يؤجل ذهابه عدة أيام، لقد كتب بالفعل إلى تانجاماني أنه قادم لرؤية أبيه، وسوف تكون بانتظاره.

عندما وصل إلى بيت الأب. كانت تانجاماني وأوني قد وصلا بالفعل ذلك الصباح.

كان يعلم أن ناليني أيداثي وأخوات أبيه يراقبنه عن كثب. لذلك فقد ظل بعيداً عن تانجاماني. وفي المساء، كان جالساً بالقرب من شجرة القثاء الهندي، يتحدث إلى أوني، عندما رآها بالقرب من سقيفة المضرب.

حاول أن يتابع حركتها حول البيت. وواتته فجأة فرصة سانحة.

دمدمت العمة فاليا، «ترى هل يوجد نفط في المصباح بالدور العلوي. لم يتم تنظيفه منذ أيام. أفترض أن لديك صداعك المعتاد، يا ناليني، لا تدفعيني إلى قول شيء يجب أن لا أقوله. اذهبي ياتانجام وأحضري لي المصباح».

قال لرافي، «نسيت، هناك شيء أريد أن أريه لك». أراد أوني أن يصعد معه إلى أعلى، لذلك طلب منه أن يحضر له الجريدة من حجرة الابن وأسرع إلى البيت. كان محظوظاً، لم يكن هناك أحد. كانت العمة فاليا في الشرفة، توبخ ناليني إيداتي. «أنت وصداعاتك! من يرغب في رؤية وجهك الكئيب؟»

صعد بهدوء وانتظر. صدر صرير ينم عن صعودِ شخص على الدرج. تانجاماني.

جرت وألقت بنفسها بين ذراعيه مثل طائر صغير يسعى إلى الحماية.

«هل وصلتك رسالتي؟»

«نعم، هذا الصباح. تحركت في الحال».

«لابد أن أغادر غداً».

«ألا تأتي إلى المنزل؟»

«ليس هذه المرة، ياتانجام».

«كنت أنتظر منذ عدة أيام. أنت لا تهتم بي. أليس كذلك؟» قطبت وجهها مثل طفل. ظن أن عينيها مبتلتان.

«ذلك لأنني لا أستطيع المجيء. أرجوك أن تفهمي ياتانجام».

ضرب على كتفيها وقال، محاولاً أن يجعل صوته مفعماً بالحزن، «لماذا نعطي الناس سبباً للكلام؟ أنا مستعد لأي شيء يقولونه عني، ولكنهم إذا تحدثوا عنك». حملق بثبات في نقطة غير مرئية خلفها، آملاً أن تدمع عيناه.

سمعا وقع أقدام بالخارج وانفصلا على الفور. كانت ناليني إيداتي.

شعر بتوتر شديد. صعدت إلى أعلى بهدوء مثل القطة.

«أشعر بصداع. سوف أرقد بعض الوقت».

«لمست سيتو أثناء مرورها وذهبت إلى الحجرة. نزل على عجل دون أن يتحدث إلى تانجاماني. لم يكن ليلوم إلا نفسه. كان ينبغي أن يكون على حذر.

وبينما كان في طريقه إلى الفناء يمسح جبينه، سأل رافي، «أين هي يا سيتو إيتا؟»

«ماذا؟»

فجأة تذكر الكذبة التي قالها لرافي. «أردت أن أريك صورة فوتوغرافية. لكن يبدو أنني نسيتها».

صاح الأب، «هل أخذت حمّاما، يا سيتو مادهافان؟»

«نعم».

«يمكنك أن تنام هنا».

في حجرة أبيه. لم يعلق على ذلك. نزل الأب وبدأ يذرع الساحة جيئة وذهاباً. انتظر سيتو، مستنداً على العمود الأسمنتي، آملاً أن يقول شيئاً.

«ماذا حدث للوظيفة في مدراس؟»

«لم يردوا».

«ممم».

ظن أن الموضوع قد أغلق عندما سأل الأب، «أية وظيفة هي؟»

«وظيفة معلم في مكتب إدارة التعليم بمديرية التعليم العام. إذا حصلت عليها وعملت لسنتين يمكنني أن أتم شهادة الماجستير على نفقتي الخاصة».

«هناك الكثير من الإدارات الجيدة الأخرى. لماذا لا ترسل لها طلبات؟»

انتابه غضب مفاجئ. عندما أراد أن يشترك في صحيفة إنجليزية، لم يسمحوا له. قالوا له إن باراميسواران سوف ينظر في الصحف ويخبره إذا كان هناك شيء مناسب. لذلك عليه أن ينتظر كل مساء في الحقول بانتظار كريشنا المعلم بالمدرسة الابتدائية لكي ينظر في صحيفته القديمة

لثلاثة أيام مضت بحثاً عن وظائف شاغرة.

بعد لحظة، ألمح لأبيه، «على أية حال ليست هناك جدوى في أيامنا هذه من مجرد إرسال طلب. أنت بحاجة لمعرفة شخص من ذوي النفوذ».

إذا استطاع فقط الحصول على وظيفة كاتب في عزبة رجل أبيض. أولئك يبدؤون بمرتب يبلغ مئة وخمسين على الأقل. بالتأكيد يمكن لأبيه أن يكتب إلى شخص يعرفه؟

تناول عشاءه مع أبيه. وكلما مرت بهما ناليني إيداتي لم يرفع عينيه عن ورقته.

بعد العشاء، جلس منفرداً بنفسه في نهاية الشرفة، جاءت إليه ناليني. «لماذا تجلس في الظلام؟»

«فقط أحب ذلك».

«هل أحضر مصباحاً إلى هذه الناحية؟»

«لا».

جلست على الأرض تحت النافذة المفتوحة. عرف أنها تريد التحدث إليه. نهض وقال، «أظن أنني سأذهب للفراش مبكراً اليوم».

«لماذا، ألا تشعر أنك على مايرام؟»

«أشعر بصداع».

ابتسمت ناليني إيداتي، «أنا أشعر بصداع طوال الوقت، تقول أمي إنه مجرد تخيلات. وتعتقد خالتي أنني أختلق مبرراً لأتجنب شغل البيت».

كانت غرفة زوجة أخيه خالية. ولكنهم فرشوا له حشية في الحجرة

الخارجية، على الأرض، بجانب سرير أبيه. هل كان ذلك لأن الأب طلب منهم ذلك؟ أو أنهم اتخذوا هذا القرار لأن تانجاماني كانت في البيت؟

نام أوني ورافي في الشرفة الأمامية، حيث دعواه ليلحق بهما.

أُشعِلَ مصباح في الظلام أمام صورة كريشنا في حجرة الأب، كانت رائحة الفتيل المنطفئ لا تزال عالقة في الغرفة، مختلطة برائحة كحول ضعيفة.

كلما أوشك سيتو على الدخول في النوم، أصدر سرير الأب صريراً. فكان يستيقظ مجفلاً. وراح الأب يسعل بشكل مستمر ويصيح، «يا جورو فايورابا» أو «آه، يا إلهي!» هل كان الأب معتاداً على ترديد الصلوات وهو نائم؟

في الصباح، وضع سيتو ملابسه في حقيبته وقال «إنني مغادر».

«لماذا هذه العجلة؟ يمكنك الذهاب غداً». قال الأب ذلك، ولكن بلهجة تدل على أنه في الواقع لا يبالي.

«ربما تكون هناك بعض المعلومات في البريد».

لم يصر الأب. وأعطى لسيتو خمس ورقات نقدية من فئة الروبية الواحدة، وقال، «سأكون هناك الأسبوع القادم».

طلبت ناليني إيداتي وعماته منه أن ينتظر ويتناول الإفطار قبل أن يغادر. قدم كل أنواع الاعتذار. كان عليه أن يلحق بحافلة التاسعة والنصف. وكان عليه أن يتسلم شهادتين في الطريق ويرسلهما فوراً عن طريق مكتب التسجيل.

تناول الشاي وغادر، وكأنه في حالة احتجاج. وبينما يسير في المجاز

الضيق في الحقل، رأى تانجاماني تحت شجرة البابايا بالقرب من سقيفة المضرب.

2

عاد الأب إلى البيت بعد أسبوع، وسأل كالعادة، «ماذا حدث بالنسبة لطلبك؟»

أي طلب؟ قدمت طلبات كثيرة جداً.

«لا شيء حتى الآن».

جاء آبو ناير من كوناتوبارامبيل بشيء من الأنباء. كان نارايانان ناير، قاضي المحكمة العليا، في بلدته في عطلة. كان شخصاً كريماً وقد زكى كثيرين للحصول على وظائف جيدة. كان الأخ الأكبر لآبو ناير يدير مكتب نارايانان ناير وسوف يتحدث مع القاضي عن سيتو.

عندما كان الأب معلماً بالمدرسة كان القاضي تلميذه. طالما سمع سيتو أباه يقول ذلك.

قال آبو ناير، «تعال إلى البيت مبكراً في الصباح واذهب مع أخي، سوف يفعل ما تقتضيه الضرورة».

تحدث آبو ناير والأب عن ثروة القاضي الكبيرة، وسماحته، وعاداته الغذائية. صعد سيتو إلى أعلى التل ورأى القطار قادماً فوق الجسر وعليه صندوق البريد الأحمر. تأخر البريد. بالتأكيد سيكون هناك شيء يخصه اليوم، كان يأمل ذلك، وهو يراقب ساعي البريد كوتينارايانان يمر كل يوم.

أرسل طلبات لكل الشركات التي يعرف عناوينها. وهو الآن يحفظ

الصيغة الرسمية عن ظهر قلب، ويمكنه أن يكتبها دون تفكير. «علمنا بوجود بضع وظائف شاغرة في شركتكم، أرجو أن... ».

بعض هذه الشركات، وبشكل عام الشركات البريطانية، ترسل بطاقات اعتذار. على الأقل كانوا من الذوق بحيث يضعون نهاية لعذاب الانتظار.

سار عبر بستان المبوزيا إلى الصخور العلوية. كانت المسافة الممتدة المغطاة بالحشائش تغطيها الآن حقول البطاطا الحلوة.. ووقفت بعض المواشي ترعى منعزلة على جانب التل، الذي كانت تتلكأ عليه الشعاعات الأخيرة من الشمس الغاربة، لتجعل من المستحيل على الظلام أن يسود. نزل من التل وسار عائداً إلى البيت. وبين أشجار المبوزيا، التقى بسوميترا.

«متى عدت من منزل أبيك؟»

بدت سوميترا أكثر سُمرة في الضوء الخافت. وبدت بلوزتها واسعة جداً عليها.

«يوم الجمعة. إلى أين أنت ذاهبة يا سوميترا؟»

«ذهبت إلى بيت ماني. لقد نضجت براعمها. وأنا شريكة في جزء منها».

لاحظ ظلالاً قاتمة تحت عينيها.

«لا أراك أبداً هذه الأيام يا سيتو».

لم يجب. لتغيير الموضوع، سأل، «ماذا كان سبب الضوضاء؟»

«هي مستمرة طوال الوقت. كل ما في الأمر أنك لم تسمعها من قبل، يا سيتو».

«مع من تتشاجر؟»

«أنا أحاول أن أكون صبورة. ماذا أفعل إذا صممت أختي الكبرى على الشجار؟ عندما تتمادى كثيراً، أقول شيئاً أنا أيضاً».

«ماذا لدى أختك ضدك؟»

«كيف لي أن أعرف؟»

ظل سيتو صامتاً. سألت هي، «ألا تذهب لجلب البريد الآن؟».

«ولماذا أفعل ذلك؟»

«أنا فقط أسأل، غالباً ما أراك تذهب. ولكن حتى إذا وقفت عند البوابة، لا تلاحظني». حاولت أن تتكلم بشكل تلقائي ولكن سيتو استطاع أن يتبين الأسى في صوتها.

«لم أرك يا سوميترا».

«أنت لا ترغب».

حل الظلام على أجمات البامبو وعلى أوراق الممبوزيا.

«متى ستحصل على وظيفة يا سيتو؟»

«أحاول الحصول على واحدة»

«الأولاد يستطيعون دائماً أن يذهبوا بعيداً إلى أي مكان، إنهم محظوظون للغاية». مشت إلى الأمام وسألت، دون أن تلتفت إلى الخلف، «هل سآتي معك يا سيتو، عندما تحصل على وظيفة وتذهب بعيداً؟»

لم يستطع رؤية وجهها. هل كانت تحاول إغاظته؟

«لا تكوني ساذجة».

«أنا جادة. إذا كنت تخجل مني، يمكنك أن تقول للناس دائماً إنك

أخذتني معك من القرية لأطبخ وأنظف لك».

شعر بخيبة أمل من نفسه، لأنه لم يستطع أن يضحك بصوت عال ويتظاهر بأنها كانت نكتة.

سارا في الظلام، متجاورين ومتقاربين، دون أن يلمس أحدهما الآخر. وقف سيتو عند المنعطف المؤدي إلى بيته. كانت سوميترا قريبة جداً منه. شم الرائحة البغيضة لعرقها ورائحة شعرها الذي جمعته في عقدة قبل أن يجف جيداً.

فكر مستغرباً أن سوميترا كانت ذات يوم لهباً يتقد في دمه، وأعصابه، ويسري في مسام جلده. الآن، لا يشعر بأي إثارة، ولا تتسارع ضربات قلبه وهي واقفة إلى جواره.

ربت على كتفيها وكأنه يطمئنها.

«لابد أن أذهب».

أمسكت أصابع يده اليسرى. «متى أراك ثانية؟»

«سوف أراك».

«متى؟»

«لابد أن أجد وقتاً لذلك، أيتها الصغيرة».

ظلت ممسكة بيده. سار معها، وقد تملكه القلق. عبرا من السياج المكسور، ولم يقم بمحاولة لتحرير يده. بدت شجرة الساج العتيقة وقد تجردت من أوراقها تشبه الهيكل العظمي لراكشاسا. سحب يده من قبضتها، ووضع ذراعه حول خصرها ولمس وجنتها برقة.

«لقد حل الظلام يا سوميترا. اذهبي إلى البيت الآن».

ابتسمت سوميترا. «كنت دائماً أعرف أن ذلك كل ما يهمك».

لم يستطع احتمال فكرة أنها بدأت تفهمه. جذبها نحوه بقسوة، «ماذا تقولين، ماذا؟»

وراح يغمغم بكل أنواع الكلمات التي لا معنى لها، لم يكن حتى متأكداً من أنها سمعته.

عندما جذبها أسفل إلى الأرض المنداة والمغطاة بالأوراق الجافة، لم تحتج.

كانت قطرات المطر الباقية على هيكل الراكشاسا بعد وابل أمطار الصباح تتساقط عليهما. كانت تملؤه القسوة، لا الإثارة.

«سيتو، انتظر، هناك شوك». لم يعرها التفاتاً.

هبت رياح شديدة من بين ورق الشجر، محدثة ضوضاء غريبة.

اتكأ على جذع شجرة الساج الذي نخره السوس، وودعها. ظن أنها ستذهب بهدوء في الظلام.

فركت مرفقيها، واقتربت منه وحدقت فيه، وكأنها تحاول أن تتحقق من وجهه في الظلام.

«لماذا عدت بهذه السرعة من عند والدك؟»

«هكذا».

«ألم تذهب إلى بوشبوت؟»

«مم».

«بالتأكيد ذهبت».

«نعم؟»

«أتعتقد أنه لا أحد يعلم؟»

«يعلم ماذا؟»

كانت تغمره السعادة. إذن سوميترا كانت تعلم. لن تستطيع أن تتهمه الآن بأنه كان يخدعها، شعر وكأنه تحرر من كل مسؤولية.

«هل تفعل هذه الأشياء مع تانجاماني؟»

«لا تتكلمي بهذه الطريقة!» رفع يده وكأنه سيضربها، «الوقت متأخر جداً يا سوميترا. اذهبي الآن».

أسرع مبتعداً دون أن ينتظرها. استغرق الأمر بعض الوقت ليعثر على الثغرة المفتوحة في السياج، في الظلام.

رأى والده في الفناء، وبسرعة دار عن طريق الجنوب، متظاهراً بأنه جاء للتو من صهريج مجمّع إلّام، قال الأب، «الأفضل لك أن تستيقظ مبكراً غداً. يمكننا أن نعود قبل أن يشتد الحر».

«إلى أين نحن ذاهبون؟»

«عبر النهر، لنرى مينون. لا أريد أن يلومني أي شخص على أنني لم أفعل كل ما في وسعي».

سمع صوت أبيه من الظلام في الغرفة الجنوبية. «ألا يكفي أنني علمته، الآن عليّ أن أعثر له على وظيفة أيضاً. يتوقع مني أن أفعل كل شيء من أجله. ينبغي أن يكون الأولاد قادرين على إدارة شؤونهم بأنفسهم. وأن يكونوا أذكياء، لا أحد يعطي وظيفة للسائلين».

قال سيتو لأمه، «دعي أبي يذهب بنفسه. لن أذهب».

نهضت الأم استعداداً لخوض معركة. «لماذا نهدر أشياء طيبة على كلب؟ أغلق حجرتك على نفسك مع كتبك السخيفة واعصر بثراتك لتمضية الوقت».

دفع سيتو الباب غاضباً، ودخل الغرفة.

3

سأله أبوه عند البوابة، «هل أحضرت كل شهاداتك؟»

«لا، أيجب أن أحضرها؟»

غمغم الأب بشيء غير واضح. قال، «سأذهب وأحضرها».

واستدار بالفعل عندما أوقفه الأب، «لا ترجع الآن».

ثم قال الأب بشيء من الحزن والامتعاض، «لقد استدرت راجعاً على أية حال، اذهب وأحضرها الآن».

صعد السلم على عجل، دخل وأخذ المظروف الذي يضع به الشهادات من الصندوق الصفيح. وقال لنفسه بحزم إنها مجرد خرافة غبية القول بأنك ما أن تشرع في مهمة، فلا ترجع عنها. مثل قديم أحمق. ولكنه عندما تذكر أن الأمر يتعلق بمهنته نفسها، شعر بالخوف. واسى نفسه – وكأن كل إنسان في العالم يعيش بمثل هذه المعتقدات!

كان قميص الأب المنشّى تنشية زائدة تظهر عليه بأكمله بقع زرقاء هنا وهناك. وظلت صدريته الطويلة ذات الإطار الأسود تنزلق من على كتفه، فكان عليه أن يتوقف كل عشر ياردات ليعيدها ثانية. كان يسير سريعاً جداً وقد أمسك في يده المظلة، وطرف الموندو الذي يرتديه.

عندما ذهب سيتو إلى الفراش، كان قد قرر عدم الذهاب لمقابلة أي شخص بشأن الوظيفة، حتى إذا كان الحاكم نفسه. ولكن شجاعته تضاءلت تدريجياً. ماذا لو انفتح له باب الحظ؟ قد تفتح له توصية القاضي طريقاً الى عالم جديد. من الغباء أن يكون عنيداً، فليس هناك ما يخسره. ماذا لو ندم على ذلك فيما بعد؟ في النهاية قرر الذهاب ومقابلة القاضي.

وبينما كانا يعبران الحقل إلى الطريق، قابلا الخال مادهافا. تنحى جانباً وسأل الأب باحترام، «إلى أين؟»

«سنعبر النهر».

فكر سيتو في أن الخال مادهافا بدا أنيقاً إلى حد ما. ارتدى موندو مزدوجاً وصديري جديداً من الواضح أنه اشتراه من البلدة، وليس من النوع المحلي الذي يبيعه الخياط. كانت به درزات حريرية بيضاء على الأكمام والرقبة.

كان النهر هادئاً بعد الفيضان في شهر تولام. كانت العبارة على الشاطئ البعيد. وبينما كانوا ينتظرون، سأل الناس، «إلى أين يذهب الأب والابن؟».

شعر سيتو بالارتباك عندما راح أبوه يشرح بالتفصيل أنهما ذاهبان لرؤية القاضي مينون بشأن الوظيفة. لماذا كان يريد أن يخبر كل شخص بهذا؟ ولم يتوقف الأمر على ذلك. استمر في إخبارهم عن كيف أنه كان معلماً لمينون منذ زمن بعيد.

عمل الأب في أماكن عديدة خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة. ولكنه ظل قروياً في حديثه ومواقفه.

قال رئيس البريد إنه كان في بيت القاضي قبل أن يصبح قاضي المحكمة العليا. «هو موسر جداً. يقولون إنه بنى منزلاً فخماً في مدراس، مكاناً مدهشاً. ليس هناك شيء لا يستطيع أن يفعله لك».

التقط الحديث من هذه النقطة رجل جالس على ماسورة المياه، «لا يمكنك أن تتهمه بعدم مساعدة القرويين. لقد كان هو الذي وجد وظيفة لتشاتوكوتي ابن سانكوتي. وهو الآن أمين في محكمة أوتابالام».

كان سيتو قد رأى الرجل العجوز في المنطقة المجاورة لمكتب البريد، ولكنه لم يكن يعرف اسمه.

على أية حال، لقد جعل الأب قضية وظيفته موضوعاً مفتوحاً للمناقشة بين القرويين.

قد يسأل أحدهم عما يحتويه المظروف الذي في يده. فإذا هو أخبرهم، سوف يرغب كثيرون من بينهم في الاطلاع على الشهادات. لن يفهم أحد منهم ماذا تعني هذه الشهادات، ولكنهم قد يناقشون نوعية الورق، والألوان والحروف المطبوعة. قام بسرعة بدس المظروف داخل قميصه.

وصلت العبارة وعبروا إلى الضفة الأخرى. تساءل المنتظرون على الجانب الآخر «إلى أين يذهب الأب وابنه؟».

يا للحظ التعس، لا يوجد حمار. كان لابد أن يكون هناك أب وابن وحمار!

كان حوض النهر الذي يُستخدم لزراعة الخضراوات في الصيف، مليئاً الآن بمياه موحلة من أمطار شهر تولام. كانت القنوات القديمة مغطاة بالطين. تباطأ سيتو عندما وصلا إلى الحقل الذي كان محروثاً استعداداً للمحصول الصيفي. وتأخر عن الأب الذي سبقه بمسافة كبيرة.

تجاوزا البناية التي كان فيها دكان زوج خالته. بدت كما هي فيما عدا أن دكان التموين أصبح يشغل فقط نصف المكان. وتحول النصف الآخر إلى دكان لتقديم الشاي. رأى رجلاً من طائفة المابيلا، بلحية دائرية، جالساً أمام دكان التموين. مرّا بأكواخ النساجين، ووصلا إلى

الممر الضيق، وعبرا عدداً من المجمعات السكنية بغير لافتات وبدون جدران أو أسوار قبل أن يصلا إلى المعبد. خلع الأب نعليه، ووقف على أول درجة حجرية للمعبد، وشد صدريته حول خصره، وضم راحتي يديه، وأغمض عينيه.

لم يكونا قادرين على رؤية المعبد عند الدرجات المتهدمة. كانت هناك شجرة تين بنغالي ضخمة تعوق رؤيته بالنسبة لهما.

تساءل سيتو في نفسه، هل يجب أن يصلي؟ أغلق عينيه للحظة. يا بهاجافاتي اعتن بي، أو يا إلهي. ذلك يكفي. الإيمان في العقل، والعقل قد يتعب ويضمر.

تأكد الأب أنه خلفه ثم استأنف المسير. رأيا بوابة البيت الضخمة المكسوة بالقرميد على حافة الحقل بعد أن سارا نحو ميل. استدار الأب وقال «هذا هو البيت».

كان الناس متجمعين في الفناء. اشتدت حرارة الشمس. خرج نامبيسان من البيت، وقد وضع خلف أذنه زهرة الريحان المقدس، وعلى جبينه علامة كبيرة بمعجون خشب الصندل، وفي يده كوب ورقي. سأل الأب، «هل هو موجود؟»

«نعم».

رصت قدور فخارية ضخمة على جانبي الممر، زرعت فيها نباتات الكروتون الملكية. شعر سيتو أن عيون الجميع في الفناء المبلط بالإسمنت تترقب الوافدين الجدد. وشعر فجأة بالخوف وهما يصعدان إلى الشرفة. لابد أن يكون الرجل ذو الشعر الرمادي الذي يضع نظارة على عينيه ويتمدد على الكرسي المريح في الحجرة الواقعة بعد الشرفة

مباشرة، هو القاضي مينون. كانت الغرفة مليئة بالبشر. ظل سيتو خلف والده.

وقف الأب عند الباب وقد ضم كفيه في انحناءة احترام. وردت على خاطره فجأة قصيدة المركب التي تعلمها في الصف الرابع. «يضم إلى صدره زميله في الدراسة الذي تفوح من صدره رائحة العرق». الأبيات من قصيدة رامابوراتو فارير حول كوتشيلان، التي اعتاد المعلم كريشنان تلاوتها[1].

ولكن هذا لم يكن زميل أبيه في الدراسة، بل كان تلميذه. انتظر سيتو نافدَ الصبر أن ينهض القاضي. أن يأتي ويأخذ بيد أبيه ويمضي به إلى الداخل. ربما لم يكن القاضي مينون قد رأى الأب جيداً. ولكن الأب كان يقف عند الباب بالضبط، لا يمكن أن يكون قد ضل رؤيته. ربما لم يتعرف عليه. تحرك سيتو متجهاً إلى نهاية الشرفة.

استمر الأب واقفاً هناك مفعماً بالأمل وراحتاه مضمومتان. ثم عاد ببطء نحو سيتو. حدق سيتو في الحديقة. لابد أن يكون المنتظرون بالخارج يراقبونه هو وأباه. لم يجرؤ على الالتفات والنظر. ماذا يحدث لو كان هناك شباب آخرون هنا جاؤوا من أجل الحصول على توصية؟

كانت هناك درجات سلم مؤدية من الشرفة إلى الفناء الشرقي. فكر سيتو أن المطبخ لابد أن يكون في مكان ما هناك. تعرف على الشخص الذي جاء للتو، الأحدب، الذي يرتدي منشفة طويلة حتى ركبتيه. كان هو المدير. جوفيندان ناير. رآه الأب أخيراً وذهب ناحيته، وقد

---

(1) كوتشيلان Kuchelan: في الميثولوجيا المالايالامية، هو صديق طفولة الإله كريشنا، وبطل كثير من القصص التي تروى عن صداقتهما. [المترجمة]

بدا عليه الارتياح.

دفع جوفينداان ناير إناء نحاسياً نحو الباب، وجاء إلى الأب. راقبهما سيتو بامتعاض وهما يتحدثان. تخيّل أن تلتمس توصية من هذا الخادم العجوز الأحدب. بذل مجهوداً ليبتسم وهما قادمان نحوه.

طلب جوفينداان ناير من الأب أن يجلس على الدكة الموجودة في الشرفة. تردد الأب ولكنه جلس نتيجة إصرار الرجل.

تحدث جوفينداان ناير بصوت منخفض، «الناس يتدفقون منذ الصباح. ولكن هذا شيء طبيعي، حيث إنه يأتي مرة واحدة فقط دون موعد. سأذهب وأخبره».

وتوجه إلى سيتو بتأنيب رقيق، «لماذا لا يمكنك أن تجلس قليلاً؟»

رفض سيتو. يمكنه أن يتجنب الناس في الشرفة إذا وقف بالقرب من الدكة. شق بعضهم الطريق لهذه الناحية، نظر إليهم وعاد ببصره ثانية.

أخذت مجموعة من الجراء الصغيرة المغطاة بالوحل في اللعب والعراك فيما بينها بالقرب من الحفرة التي اعتادوا إلقاء أوراق الموز المستعملة فيها، كانت قد بدأت للتو في فتح أعينها. ورقدت بالقرب منها كلبة هجين هزيلة الجسد وعيناها مغلقتان.

كان العرق يتصبب على ثوب سيتو. أخرج مظروف الشهادات. كان مبللاً. فتح المظروف بعناية شديدة. كانت شهادة الجامعة جافة، ولكن الحبر انتشر على شهادة السلوك التي أعطاها له أستاذه.

أول مرة قرأ فيها الشهادة، كان منتشياً. ذهب إلى بيت البروفيسور متأخراً في إحدى الأمسيات ليودعه. كان البروفيسور يعاني من مرض

الربو وكان دائم التحدث بصوت خافت أحزن سيتو. أحضرت الابنة الصغرى له أوفالتين. وكان سيتو قد طلب منه شهادة. وضع البروفيسور نظارته وطلب من ابنته دفتر الرسائل. استغرق نصف ساعة لكتابة الشهادة. وعندما عاد سيتو إلى حجرته وقرأها، شعر بابتهاج شديد: نابغة، مبدع، رجل المبادرة والقيادة - كان سخياً بالكلمات. حتى أنه لم ينس أن يثني على أسلوب وتعبير الشعر الذي كتبه سيتو لمجلة الكلية.

أظهر الشهادة في السر لأصدقائه، وكان يشعر بفخر شديد عندما يرسل صورة طبق الأصل منها مع طلبات الوظائف. هذا أنا!

أدرك الآن أن أحدا لم يقرأها. وربما أخذت مكانها بين الأوراق التي يكنسها أولئك الذين يقومون بتنظيف حجرات ومكاتب المديرين في المؤسسات الضخمة.

خرج جوفينداان ناير متعجلاً من المطبخ ومعه قدحان من الشاي وضعهما بالقرب من الأب. «هنا، تفضلا بعض الشاي. خمس دقائق. مادهافا مينون معه المحامي من أوتابالام. سرعان ما سيذهب».

أخذ سيتو القدح على مضض، أُريق بعض الشاي. أفرغ الكأس بسرعة ونظف بركة الشاي المُراق على الدكة بقاع القدح.

توقفت الجراء الصغيرة عن اللعب وبدأت في مص حلمات الكلبة الهجين وهي راقدة على جانبها، وفمها مفتوح.

الناس يدخلون ويخرجون. خرجت امرأة عجوز ترتدي روكا، وألقت بجديلات الشعر التي كانت تلفها حول أصابعها إلى الفناء. انتظرا، متوقعين أن يخرج جوفينداان ناير في أية لحظة.

«كم الساعة؟» سأل الأب، وأدرك سيتو أنها المرة الأولى التي يتوجه فيها الأب إليه مباشرة بالحديث منذ أن غادرا البيت هذا الصباح.

وشعر بإغراء أن يجيب قائلاً لا أملك ساعة. ولكنه نظر إلى الشمس وقال، «لابد أن تكون الحادية عشرة».

عندما كان طالباً، لم يكن لديه أبداً مال كاف. كان دائماً يفكر أنه يحمل على كتفيه عبئاً ثقيلاً وأنه محمل بمشاعر الاستياء والامتعاض نحو كل شخص بسبب ذلك. لكنه الآن يدرك أن تلك الأيام كانت حقاً أيام سعادة. فطوال فترة دراسته، كان قادراً على أن يرفع رأسه عالياً ويعطي إجابة عندما يسأل عما يفعل.

«ماذا تفعل؟»

«أدرس لنيل شهادة البكالوريوس».

فكر في أشياء عديدة وهما ينتظران ظهور المدير. في الأحاديث التي حفظها عن ظهر قلب لأجل جماعة المناظرات في المدرسة العليا. طلاب اليوم هم مواطنو الغد. من هذا الجيل الشاب، سوف يظهر في المستقبل مهندسونا وأطباؤنا وزعماؤنا السياسيون.

من كتب كل ذلك من أجله؟

تصفيق. كان يستمع إلى هذا التصفيق متحمساً، في حفلة المدرسة السنوية.

تدفق الجمهور إلى المنطقة الفضاء بين السقيفتين. كان المدعوون دائماً في الصف الأمامي. نبض قلبه بسرعة وهو يستمع للمدير يقرأ قائمة الفائزين بالجوائز من المرحلة المؤقتة، التي علقت بجوار شرفة القاعة الرئيسة.

الصف السادس. الجائزة الأولى للبراعة العامة، سيتو مادهافان.

وبينما يشق طريقه خلال الممر بين حشود من الأولاد والبنات، بدأ طلاب الصف السادس فصل أ في التصفيق. وصفق معهم الآخرون حتى انتشر التصفيق في إيقاع ثابت مثل ضربات الأمواج.

عاد ونظر إلى أوراق جائزته، وظل يستمع إلى القائمة ينادى بها.

المعرفة العامة، الأول: سيتو مادهافان، الصف السادس أ.

تسلم جائزته وشبك راحتيه أمام الرئيس والحاضرين. قال مدير المدرسة، «انتظر، لا تعد لمقعدك».

نظم الشعر، الجائزة الأولى.

هتف أصدقاؤه بشدة وهو يصعد المنصة مرة أخرى. وتكرر التصفيق.

جمع المعلم بيشاروتي الطلبة لبدء مجلة بخط اليد وقال لهم، «سيتو مادهافان له مستقبل مشرق».

لقد انتظر المستقبل المشرق أن يظهر للعيان.

اعتاد كل رفاقه في الكلية أن يذكروا أن سيتو هو الطالب الوحيد الذي لم يكن يخشى الامتحانات. كانوا بالكاد يحرزون خمسة وثلاثين، مهما استغرقوا في قراءة كتبهم، بينما كل ما كان يحتاجه سيتو أن يقلب الصفحات.

لك مستقبل مشرق.

لماذا لا تحاول التقدم للدراسات العليا؟

جاء جوفيندان ناير مرة أخرى. «تعالا، إذا انتظرنا كل شخص أن يغادر، سوف نضيع وقتكما ووقتي».

وضع الأب مظلته على الدكة، وخلع نعليه، وعدل الصديري الذي يرتديه، وتبع جوفينداان ناير. حاول سيتو أن يخفي قلقه وارتباكه. كان هناك ثلاثة رجال في الحجرة الكبيرة بجانب القاضي. رأى سيتو القاضي لأول مرة عن قرب. كان يرتدي قميصاً أبيض بنصف كم ويضع منشفة على كتفه. بدت عيناه خاليتين من الحياة من خلف نظارته السميكة.

«نعم؟» اعتدل ونقل بصره بين جوفينداان ناير والأب.

وقف الأب ويداه مضمومتان.

قام جوفينداان ناير بتقديمهما، «هما جيراني بالمنطقة الواقعة عبر النهر».

وقف سيتو محني الرأس.

أضاف جوفينداان، «لقد قام بالتدريس لبعض الوقت في مدرسة أثيراتاكودو».

بدأ الأب القول «لقد كنت...». وقبل أن يكمل. خلع القاضي نظارته، وحك عينيه وقال، «ماذا في الأمر؟»

«إنه ولدي. حصل على شهادة البكالوريوس، ولم يجد وظيفة حتى الآن».

«ألا يمكنك أداء تدريب المعلمين؟»

أدرك سيتو أن القاضي يخاطبه. لم يجب. حاول جاهداً أن يبتسم وأن يبدو عليه الاحترام.

«ذلك أفضل شيء تفعله. ثم يمكنك أن تجد وظيفة في كيرالا».

قال الأب، «لا يهم أين يعمل. فقد تقاعدت بالفعل». شعر سيتو

بالقلق إن كان الأب سيبدأ بالحديث عن مشكلاته.

«ليس الأمر كما كان في الماضي. من الصعب أن تجد وظائف خارج كيرالا الآن».

«علاماته جيدة. لقد أحضرنا شهاداته». مد الأب يده بالظرف.

مسح القاضي وجهه بالمنشفة وابتسم. «لا فائدة تُرجى من النظر فيها. ليس لدي سلطة لأن أمنحه وظيفة. والتوصيات غير مسموح بها».

كان جوفينداان ناير قد وضع الكرسي المريح جانباً باحترام، ثم ذهب إلى الداخل.

«تمام، إذن، سوف أضع الأمر في اعتباري».

ثم التفت نحو الرجل البدين الأصلع على يساره وسأل، «إذن ماذا كان الدافع العاجل؟»

دعا سيتو في داخله أن يكون لدى الأب الحاسة الجيدة لأن يغادر في هذه اللحظة، قبل أن يطلب منهم القاضي المغادرة. شكراً لله، ضم الأب راحتيه مرة ثانية مستأذناً بالانصراف.

كان سيتو غارقاً في عرقه عندما خرجا. جعل النسيم العليل القادم من بستان الموز الدم يندفع عائداً إلى وجهه.

ارتدى الأب نعليه وأخذ مظلته. لم ينظر سيتو في وجهه. خرج جوفينداان ناير من المطبخ وعلى وجهه علامات الرضا.

«ماذا، هل أنت مغادر؟»

«نعم، لابد أن نذهب».

«لا، لا، إنه وقت تناول الغداء. يعد الغداء هنا في الساعة الحادية

عشرة. من فضلكما تناولا الطعام. لن يمانع أحد».

تجاهل الأب هذه الدعوة، وقال إلى اللقاء لجوفينداان ناير.

«هل قلت له كل شيء؟»

«أمم».

«ما رأيه؟»

قال الأب وهو غير مبال. «قال إنه سيضع الأمر في الاعتبار».

«إذن هذا يكفي. ذلك ما يقوله عادة. ولكنه دائماً يلتزم بوعده. فهو يحمل الكثير من المحبة لكل من ينتمي إلى القرية. سوف أذكره مرة أخرى غداً قبل أن يغادر».

ابتسم سيتو لجوفينداان ناير ولحق بأبيه.

كانت أشعة الشمس حارقة. توقف الأب بالقرب من المعبد مرة أخرى وخلع نعليه كي يصعد الدرج. استمر سيتو في السير دون أن ينتظره.

4

سمع كثيراً عن هذه البلدة التي تبعد نحو ستين ميلا عن بلدته، ولكنها المرة الأولى التي يأتي إليها. كان هناك طلبة معه في الكلية من هذا المكان. حاول أن يتذكر من كانوا وأخذ ينظر في وجوه الذين يمر بهم دون أمل كبير.

كانت تتساقط أمطار خفيفة. وظلت برك راكدة من أمطار الأمس الشديدة متجمعة في المطبات الموجودة بالطريق. سار على جانب الطريق ليفسح للعربات التي تحمل المسافرين الذين وصلوا بالقطار.

وتناثرت مياه موحلة نتيجة مرور عربة كارو يجرها حصان، لحسن الحظ لم تطله. وفي الوقت الذي بدأ فيه الأشخاص الذين تناثرت عليهم المياه في تعنيف السائق، كانت العربة قد أصبحت على مسافة أبعد بالفعل.

رأى لافتة الفندق وراء ماسورة الصرف مباشرة. مكتوب عليها، فندق جوبيلي، مأكل ومبيت. بدا مكاناً متواضعاً، لذلك دخل. نعم هناك غرفة. كانت الأجرة روبيتين ونصف روبية.

كانت الحجرة مقصورة داخل عنبر للنوم فصلت مقاصيره بحواجز من الأسبستوس، لا تكاد تزيد عن حجم صندوق. فرش فتى الفندق قطعة قماش زرقاء فوق الفرشة القذرة والملوثة ببقع زيتية. كانت هناك نافذة واحدة صغيرة في السطح المغطى بالقرميد. فتحها. امتدت الأسطح البنية الرثة لمنازل المدينة على مدى ما يمكن أن يصل إليه البصر.

لابد أن يحضر مقابلة في اليوم التالي. كان مطلوباً منه أن يبلغ بوجوده في التاسعة بمكان التجمع.

كم من مرات عديدة فعل هذا!

سمع أنه سيتم اختيار أكثر من مئة مرشح، ولهذا كان مفعماً بالأمل. أقل مؤهل كان مطلوباً منهم هو شهادة الثانوية العامة، لذلك لن يكون هناك كثير من الطلاب الحاصلين على البكالوريوس. سوف يدفعون راتباً يبلغ خمسين روبية خلال فترة التدريب التي تستغرق ستة أشهر. بعد ذلك سوف يحصل على مرتب يبلغ مئة وخمس روبيات. ذكرت بطاقة المقابلة أن أولئك الذين اختيروا سيغادرون فوراً إلى

المزرعة. حتى أنهم ألحقوا بالأوراق قائمة طويلة بالأشياء التي يجب أن يأخذوها معهم: دلو، مكنسة، زوجان من الشورتات الكهادر القطنية يدوية الصنع، قميصان كهادر، فرشة ملفوفة، صحن كبير وآخر صغير.

بدأ يأسف على طوابع البريد التي كان ينفقها في كل مرة يبعث فيها بطلب.

شعر بالعصبية والارتباك عندما جاءت بطاقة المقابلة. إذا حصل على وظيفة ولم يقبلها، فسوف تحدث ثورة غضب. كيف يمكنه رفض وظيفة حكومية!

تخيل الزوار يسألون عنه والديه.

«أين سيتو الآن؟»

«أين المكان الذي ذكر لي اسمه».

«إلى أي مدى وصل في دراسته؟»

«لقد حصل على شهادة البكالوريوس».

«ما هي وظيفته؟»

قد يقول الأب، إنه في مشروع التخطيط القومي. ولن تعرف أمه، لذلك سوف تقول، «هو موظف حكومي قروي أو شيء من هذا القبيل».

كان يدعو بحماس عظيم قبل المقابلة أن يحصل على منصب معلم في الكلية. كان ذهابه إلى مدراس حدثاً كبيراً في القرية.

في المحطة، أعطى صدقات لكل متسول قابله، أملاً في أن يكون دعاؤهم داعماً له.

كتب إلى معارفه في مدراس، حتى إلى دانييل. الذي كان يحضر درجة الماجستير الأكاديمي بإحدى الكليات المسيحية. كان عصبياً حتى وصل القطار إلى المحطة المركزية. رأى دانييل ينتظره وانتابه شعور بالارتياح. رتب دانييل له أن يقيم في بيت الشباب كضيف وحصل على إجازة من العمل في اليوم التالي. كان يعرف كل ركن وزاوية في المدينة. أخذ سيتو إلى مكتب مديرية التعليم العام في سيارة أجرة، متمنياً له الحظ السعيد ووعد أن يعود خلال ساعتين.

كان المرشحون المتحدثون بلغتي التيلوجو والتاميل أكثر من المتحدثين بالمالايالامية. وكان المدير مالايالاميا. وكان هناك مرشحون يرتدون البدلات الكاملة والقمصان والسراويل الجبردين وأربطة العنق اللامعة. وبعضهم يتحدث الإنجليزية بلهجة أمريكية. شعر سيتو بالخوف من أن يتحدث مع أي منهم. وتساءل، كم منهم حصل على درجات من المستوى الأول؟ وبرغم أنه حصل فقط على المستوى الثاني، واسى نفسه بأنه حصل على سبع وخمسين بالمئة.

كانت المرة الأولى التي يرتدي فيها سروالاً. اشترى سروالاً قطنياً أول أمس من سوق مور مقابل سبع روبيات ونصف روبية. ونعلين بست روبيات. شعر بأنه كان عارياً. ماذا لو كان السَّحّابُ مفتوحاً؟ وشعر بأن جلده مسلوخ في مكان احتكاكه بأشرطة النعل الجديد. ونظر بحسد إلى الشباب المنتظرين تحت الشجر وقال لنفسه إنه لم يكن من المهم أن يرتدي بدلة وربطة عنق. المدير الجيد لابد أن يزدري مثل تلك الأشياء. وسوف يعلم أن ما يحتاجه المعلم هو المعرفة والبساطة، وأن الجهلاء فقط هم من يرتدون الأزياء الأنيقة.

نودي على الأسماء بالترتيب الأبجدي.

كانت مقابلته في الحادية عشرة. فتح الباب بعصبية، وارتعش صوته عندما قال صباح الخير.

أشاروا له بالجلوس.

هل كان هذا مينون، المدير؟ لقد ذكَّر سيتو بكوروب الساحر من كالاديكوثو. الذي اعتاد أن يأتي كثيراً إلى منزله عندما كان طفلاً.

قيل له إن الاستناد بكوعيه على المنضدة يعتبر سلوكاً غير لائق. لم يكن لمقعده مسندان وشعر أن يديه تزدادان ثقلاً نظراً لأنه مضطر أن يبقيهما متدليتين إلى جانبيه. كانت الورقة ذات اللون الأخضر الخفيف على المنضدة هي الطلب الخاص به.

«الشهادات».

أخرج الظرف.

عمن سوف يسألون؟ مارلو؟ ميلتون؟ دونيه؟ كان يأمل لو أنه أحد الشعراء المحدثين.

كان السؤال الأول، «كيف فاتتك الحصة الأولى؟»

هذا سؤال لم يتوقعه على الإطلاق. لم يستطع الإجابة. لم يكن هناك سبب. أدرك أنه لابد أن يقول شيئاً.

«لا أعلم».

في العمود الذي يشير إلى المواهب والمميزات، كان مكتوباً أنه يكتب الشعر.

«أتكتب شعراً؟»

«نعم، يا سيدي».

«عن ماذا؟»

شعر برطوبة في راحتي يديه. لم يستطع أن يتكلم.

«أخبرني باختصار عن آخر شعر لك».

يا إلهي، إذاً هو فقط استطاع أن يتذكر قصيدة.

آه. يا واهب السعادة، عندما تأتيني والطيات الزرقاء لتنورتك بادية للعيان، يعزف قلبي موسيقى الناي.

تصغي أفاعي الحزن، وتتجمع حولي.

لا، لن يستطيع أن يشرح كل ذلك بالإنجليزية، قال، دون أن ينظر إلى أعلى.

«كانت آخر واحدة كتبتها ترجمة لإحدى قصائد طاغور».

دفع المدير الشهادات ناحيته وقال. «هذا كل شيء، يمكنك أن تذهب».

شعر بدوار في رأسه وهو خارج. لم ينظروا حتى في شهادة السلوك التي كتبها أستاذه بمثل هذه العناية.

أسرع بالنزول دون أن ينظر إلى المرشحين الذين كانوا لايزالون ينتظرون دورهم. كان دانييل على البوابة. أمسك بسيجارة وسأل،

«كيف كان الأمر؟»

«ليس سيئاً».

أشعل السيجارة وشعر أن أعصابه المشدودة بدأت ترتاح. طافا حول المدينة وشاهدا فيلماً هندياً في الليل. تناولا عشاء في مطعم خافت الإضاءة حيث تعزف موسيقى خفيفة. حكى له دانييل عن فتاته الجديدة. جاءت إلى بيت الشباب الخاص به للعشاء ذات مرة مع

ابنة عمها التي كانت في كلية الملكة ماري. بعد ذلك، تقابلا في كنيسة. تحدثا معاً على الهاتف لعدة مرات والآن يتقابلان كل أحد. حاول كثير من الناس طرحه أرضاً ولكنهم لم ينجحوا.

طرحه أرضاً؟ كان تعبير دانييل جديداً بالنسبة له.

كان لديه شعور بالارتياح عندما ودع دانييل وأصدقاءه واستقل قطار بريد مانجالور المزدحم، فائق السرعة، برغم أنه كان يعلم أن عليه أن يعود إلى أيام انتظار ساعي البريد التي لا تنتهي.

والآن ها هو هنا، وأمامه مقابلة أخرى.

على الأقل في مدراس، كان دانييل مصاحباً له. هنا، لم يكن يعرف أحداً. ظل يسير على جانبي الطرق المزدحمة، شاعراً ببعض الخوف. كان غريباً تماماً هنا. كان مركز التجمع، الذي عليه أن يذهب إليه من أجل المقابلة، يبعد نحو 200 متر تقريباً عن مكان إقامته.

في المساء، ذهب إلى الشاطئ. صف طويل من السيارات كان يقف بالقرب من الممشى، تحت أشجار الكازوارينا. كان الشاطئ الرملي الممتد قد خلا من زواره. وهبت الرياح على الموجات الهادرة فجاءت محملة بقطرات الندى. هل كانت هذه البقعة هي التي لمحت فيها السفن الشراعية للرحالة البرتغالي فاسكو دا جاما الشاطئ؟ لم تكن لديه رغبة في استكشاف المدينة.

اضطر للسؤال عن الطريق مرتين أثناء عودته إلى الفندق. كانت الحجرة الضيقة مظلمة، ورطبة وذات رائحة كريهة. سمع صوت زجاجات صودا تُفتح خلف الأسبستوس الرقيق، وأصوات ترتفع بشكل مطرد.

«تعالي، جربي ذلك، إنها جيدة».

«مم، مم». كانت تلك امرأة.

«فقط تجرعيه، مرة واحدة».

«سوف أشعر بالغثيان».

«هراء».

تساقطت قطرات المطر على السقف المغطى بالقرميد. دفعت الرياح النافذة، فأغلقتها بعنف، ثم فجأة انفتحت على مصراعيها.

تزايد هطول المطر. وعلا هديره، وخمدت الأصوات في الغرفة المجاورة.

فكر في سوميترا، وشعر فجأة باشتياق لرؤيتها. نادراً ما يراها الآن. كانت هناك مشاجرات طوال الوقت في فاداكيتو. سوميترا وديفو، سوميترا وأمها، الخال مادهافا وديفو.

أصبح الخال مادهافا نادراً ما يأتي إلى البيت في هذه الأيام. سمع سيتو أنه كانت هناك عروض زواج لسوميترا. كاد أحدها أن يتم بالفعل. كانت الأبراج متفقة. ونالت الفتاة محبة عائلة الفتى. لكن الخال مادهافا قام بزيارة بيتهم في مودوتالا، وبعد عودته قال إنها ليست زيجة ملائمة.

كان السبب الذي ساقه هو أن أم وأخت الفتى تعملان خادمتين لعائلة غنية. سمعت أم سيتو هذا وسألت، «وماذا كانت نساء فاداكيتو يفعلن في مجمع إلّام؟ هل كن مجرد زائرات؟»

«كان ذلك منذ زمن بعيد. هم الآن عائلة زوجة مادهافان ناير».

أخذت الأم والخالة الصغرى تتهامسان في المطبخ. «من المحتمل

أنه لا يحب فكرة وجود رجل آخر هناك». وتدريجاً، تضاءل الهمس حتى أصبح غير مسموع.

رقد سيتو مستيقظاً يسأل نفسه، لماذا لم يستطع أن يركز تفكيره في تانجاماني. لقد تسلم رسالة منها فعلاً منذ بعض الوقت وعلم أنها سوف تشعر بالحزن لأنه لم يرد.

ماذا يمكنه أن يكتب؟ أنه لم يحقق أي شيء؟ أنه لن يدخل أبداً فصلاً في كلية مدنية كمعلم متلهف؟ وأنه لن يتقدم لنيل شهادة الماجستير على حسابه الخاص، أو يصبح محاضراً بالجامعة، ولا سوف يكتب أطروحة علمية، أو يحصل على جائزة التفوق وتُنشر له صورة في الصحف.

5

تجمع المرشحون كلهم في شرفة الدور العلوي لمركز التجمع. يرتدي معظمهم قمصان القادي. تساءل سيتو في نفسه، إن كان بعضهم، ممن جاؤوا قبلاً إلى مكتب مديرية التعليم العام مرتدين أطقم بدلاتٍ مستعارة من الجبردين، قد جاؤوا هنا يرتدون قمصان القادي والموندوهات.

جاء رجل وسيم حسن المظهر وسأله، «هل أنت سيتو مادهافان؟»

«نعم».

«لقد رأيتك في بلغات، كنت عادة آتي إلى بيت الطلبة مع أرافينداان».

كان أرافينداان زميل سيتو في الدراسة. وكان جوبي قريبه.

«ماذا يفعل أرافينداان الآن؟»

«أدى امتحانه في سبتمبر ومرة أخرى في مارس، ولكنه لم ينجح».

حصل جوبي على شهادة الثانوية العامة، ثم عمل في أماكن متعددة، في مخزن تعاوني، وفي معلف بترولي، وفي جمعية نول يدوي. كانت كلها وظائف مؤقتة.

«أخبرني رئيس الكتبة أنه لم يتقدم الكثير من الخريجين. وبالتالي أمامك فرصة طيبة».

كان جوبي يعرف كل شيء عن الوظيفة، يحصل الموظف درجة أولى على مئة وعشرين روبية. وفي سلسلة المراتب الأعلى، لديك فرصة للترقية كموظف تعليم ثانوي أو موظف تطوير الأحياء حيث إن خمسين بالمئة من الموظفين من الإدارة.

كان جوبي ينتقل من مجموعة إلى مجموعة. ظل الحشد يزداد، كم كان هناك؟ ثلاثمئة؟ أربعمئة؟

كان جوبي عصبياً جداً. ماذا سوف يسألون في المقابلة؟

وقف سيتو في نهاية الشرفة. كان يمكنه رؤية الغسالين يغسلون في الميدان المفتوح، ورجال شرطة يمارسون التمارين الرياضية في فناء المبنى المجاور.

شق جوبي طريقه خلال الزحام، وأخذ يد سيتو وقاده إلى ركن مهجور. وهمس، «سوف يسألوننا عن الخطة الخمسية».

«من قال لك؟»

«لا يهم ذلك. ولكني لا أعرف أي شيء عن هذه الخطة الخمسية. ماهي؟»

«أنا لم أدرسها أيضاً».

«ما الفرق بين خطة الخمس سنوات الأولى والثانية؟»

«لا أعلم».

«يا إلهي، لقد انتهينا».

سأل جوبي المرشحين الذين اعتقد أنهم أذكياء.

لاحظ سيتو الملابس متعددة الألوان ترفرف على الحبال مثل رايات المهرجانات وفكر في نفسه، من يهتم بذلك، دعهم يسألون عن أي شيء يريدونه.

عاد جوبي مبتهجاً، «لقد حصلت على ما أريد».

«مم؟»

«الصناعة هي أهم عوامل الخطة الخمسية الأولى. وركزت الثانية على الزراعة، والصناعات الصغيرة وكهربة القرى».

«حقا؟»

«ماذا لو سألوا عن الخطة القومية للتمديد؟ أيعني ذلك التعجيل بتطوير القرية؟»

«ربما».

«استمر، قل لي ماذا أقول إذا سألوا».

شعر سيتو بالتوتر. بدا أن جوبي يوحي بأنه يريد الاحتفاظ بالمعلومات لنفسه.

«هيا الآن، أخبرني. لن أخبر أي شخص آخر».

«إذا طُبقت الخطة الوطنية للتمديد، سيتم إمداد جميع القرى بالكهرباء، وبمتنزهات للأطفال، وطرق جيدة، ووظائف لكل شخص. باختصار، ستصبح بلدنا جنة. ستتدفق فيها أنهار اللبن والعسل. يمكنك أن تقول لهم ذلك».

تساءل جوبي إن كان سيتو يمزح. لا، تبدو عليه الجدية.

«لدينا خطة توظيف قومية في قريتنا. أرسلوا حفنة من النساء يتجولن في سيارة جيب إلى مختلف الأماكن. ولكن بالطبع سوف أقول لهم ما قلته إذا سألوا». بدأ جوبي يردد ما قاله سيتو.

بدؤوا يدعون الناس للدخول، حاول جوبي أن يستشف من أولئك الذين أنهوا المقابلة عن الأسئلة التي طُرحت عليهم. نودي على جوبي قبله. وعاد مبتسماً.

«انتهى الأمر!»

«ماذا كانت الأسئلة؟»

«كانت جميعها باللغة المالايالامية. سألوا عن كيفية تحسين حالة الاقتصاد الهندي، اقتبست من كلمات غاندي. السبيل الوحيد لكي يتقدم الفقراء في الهند هو من خلال الزراعة. الزراعة التي تستخدم كل أنواع السماد الطبيعي. أعتقد أن موظف قطاع الدخل القومي هو الذي يدير المقابلة».

وأخيراً نودي اسم سيتو، كم طال عليه الانتظار كي يُفتح أمامه هذا الباب! من بين أكوام الورق الأصفر المتراصة التي تملأ المنضدة، حاولت عيون رمادية متعبة أن تحدق فيه النظر وكأنها من داخل بئر.

داخَله شعور بأنهم جميعاً متشابهون، ضجرون وغاضبون في نفس الوقت. لم يشعر سيتو بأنه عصبي مثلما كان في مكتب المدير.

«إذن فأنت خريج؟»

«نعم».

«لماذا تقدمت لهذه الوظيفة؟»

هل تريد أن تعرف؟ لأنني لم أجد أي شيء آخر. لأنني وصلت إلى نهاية المطاف. لأنني اعتقدت أنه إذا حصلت على الوظيفة، سوف أكسب على الأقل خمسين روبية. لأنني أردت التهرب من الأسئلة عن محاولاتي للعثور على وظيفة. لأنني أردت الهروب والابتعاد عن عائلتي.

«على رسلك، أجب عن سؤالي!»

«أنا». فكر في الأمر لدقيقة. «أرغب في الخدمة بالقرى. أعتقد أن أعظم خدمة يمكنني أن أقدمها لبلدي هي أن أعمل في القرى التي تحتاج للتنمية. لخدمة عوامل مثل المجاعة، والبطالة، والمعتقدات الخرافية...».

صوت من كان هذا؟ عاد بذهنه إلى جمعية المناقشة في المدرسة. هل يريدون أن يسمعوا المزيد؟

«أعتقد أنه من الواجب على كل شخص متعلم أن ينتشل إخواننا في القرى ويخرجهم من الظلام الذي يغرقون فيه».

تركزت أعينهم المتعبة بأناة عليه. توقف للحظة، متسائلا عما إذا كان يستمر في الحديث. قال الموظف، «تمام. سوف نتصل بك».

خرج مسرعاً، ولكن جوبي التقى به في الشارع.

«انتظر، أنا قادم أيضاً. كيف سار الأمر معك؟ لابد أنك قد أحسنت».

«نعم، فعلت». ابتسم سيتو. وعادا إلى فندق جوبيلي.

قال جوبي إنها سوف تكون حياة غاندية حقيقية. لا شاي أو قهوة، لا سجائر. أداء الصلوات في الصباح، ثم العمل الميداني. هل سيطلبون تنظيف الغائط؟

«لا أعرف».

«سمعت أننا قد نضطر لذلك».

قال جوبي، «أنا لا أمانع في القيام برعي الماشية، أو الحفر، أو شرب الباناكام بدلاً من القهوة أو الشاي. ولكن إذا طلبوا مني تنظيف الغائط...؟»

«لابد أن تفعل ذلك حينئذ. قال ذلك المهاتما غاندي، أليس كذلك؟»

فجأة تحول وجه جوبي، الذي كان مشرقا وسعيداً، إلى الاكتئاب. خفض عينيه وأطبق صامتاً.

6

قائمة بمواعيد القطارات قُصّت من إحدى الصحف وألصقت بالقرب من الطاولة. فكر سيتو في الذهاب إلى المحطة قبل موعد القطار بخمس عشرة دقيقة. رتب لجلب عربة لنقل حقائبه. اشترى تذكرته، وما أن دخل حتى عرف – من علامة بالطباشير على لوحة الإعلان السوداء – أن قطار البريد السريع رقم اثنين متأخر ستين دقيقة.

كان الرصيف مزدحماً بصورة فظيعة. بدا أن من ينتظرون لاستقبال المسافرين القادمين أكثر عدداً من أولئك المسافرين بالقطار. طلب من الحمال أن يضع أمتعته على الأرض عند كشك الكتب. وذهب الحمال العجوز قانعاً بالأربع أنّات التي دفعها له. شعر أنه كان يجب أن يعطيه أربع أنّات أخرى. لعله لم ير في الواقع قطعة النقود التي وضعها سيتو في كفه المتغضن؟

عادة يعبّر الحمالون عن استيائهم كثيراً. كانت المرة الأولى التي يرى سيتو فيها واحداً لم يحتج أو يشْكُ. ربما لم يسمع هذا الزميل أبداً عن الحمالين وسائقي الجوتكا في أولافاكود!

وقفت فتاتان جميلتان ترتديان ملابس قصيرة أمام كشك الكتب، تتصفحان المجلات الإنجليزية. كانتا تتحدثان بلهجة إنجليزية مماثلة لتلك التي تتدرب عليها الراهبات. وقف حارسهما متوسط العمر بصبر على مسافة غير بعيدة، ممسكاً في يده بورقة نقدية من فئة عشر روبيات.

قالت إحداهما وهي التي تبدو الأكبر، «أنت تشترين هذه. سوف أشتري رواية لدينيس روبنز».

«هل لديك رواية *قلب مجروح*؟» تحدثت بالمالايالامية بطريقة تشعرك وكأنها ترتكب جريمة.

«عجلا يا فتاتيّ» قال الرجل وهو يرخي ربطة عنقه.

«دقيقة واحدة، يا أبي!»

«هل لديك *مصير العشاق*؟ لا، لقد قرأت هذه».

أخرج البائع كل ما عنده من روايات دينيس روبنز، قلب يحترق، فتاة وحيدة، القضية المشؤومة. لا تريد أيا منها.

«أي كتاب جديد لهرمينا بلاك؟»

رفع سيتو رقبته، ليقرأ في العناوين على حامل الكتب ورقية الغلاف المليئة بالغبار، والمرتبة خلف بائع الكتب.

ربت شخص ما على كتفه. جوبي.

«يا لك من رفيق، كنت أبحث عنك في كل مكان. حتى أنني

تساءلت عما إذا كنت ذهبت بالحافلة». أخذ جوبي صحيفة من الطاولة وتصفحها، متظاهراً بأنه سوف يقرإها.

كان جوبي هو الذي أحضر الأخبار إلى الفندق قبل يوم بأن قائمة المرشحين المختارين قد علقت على اللوحة، وكان اسم سيتو من بينها.

لم يكن سيتو مندهشاً. فعلى أية حال، لم يأت إلى هنا إلا من رُفضوا في الأماكن الأخرى.

كان جوبي متحمساً. «هناك أربعون فقط في هذه القائمة. قال العامل إنه ستكون هناك قائمة ثانية. ولكني لا أستطيع أن أتحمل التفكير في برنامجهم التدريبي. اللعنة! هل تظن أن بإمكاننا شراء دلو ومكنسة بعد أن نصل إلى هناك؟»

لم يُجب سيتو.

«ألا تظن أننا يمكن أن ننتظر حتى نصل إلى هناك؟»

«أفترض ذلك».

«سوف نشتري من هنا قميص قادي من أجل الزي، إنه أرخص. وسوف نسافر سويا».

«سوف نرى».

«لماذا أنت راقد؟»

ضغط بيديه على صدغيه، وأغلق عينيه وقال، «أشعر بصداع، سوف أرقد هنا لبرهة».

ابتعد جوبي. تساءل سيتو إن كان يستطيع النوم لبعض الوقت. بدا أن أشياء من جميع الأنواع تزحف على الوسادة، التي كانت صلبة كالخشب، ومصقولة بالزيت والعرق أيضاً.

نهض، غيّر ثيابه، وارتدى قميصاً وخرج. كان الشارع الإسمنتي متوهجا من حرارة الشمس.

اسمي هناك، بين كل المحظوظين الذين وقع عليهم الاختيار. الاسم الذي انتظر هذه المرة ليدخل في قائمة المحظوظين! رغب في الضحك وأيضاً البكاء. ها هو هنا، وأمامه يوم للاحتفال!

تردد وقتاً طويلاً في مركز التجمع قبل أن يصعد إلى الشرفة. هل كان أيٌّ من المتقدمين هنا أو هناك؟ لقد جاء إلى المقابلة وكأنها كانت مسألة عرضية. تأكد أنه لم يكن هناك أحد ثم صعد إلى لوحة الملاحظات. نعم، رأى اسمه هناك في الحال على القائمة المطبوعة!

سار حتى حل الظلام وكان جائعاً، ثم ذهب إلى فندق للمسلمين. لم تكن هناك منضدة شاغرة في الدور السفلي، بمنطقة المطعم العامة. كره أن يجلس على مائدة عليها غرباء. لاحظه المدير فقال، «يوجد مكان في الدور العلوي».

في الدور العلوي، كانت هناك مقاصير صغيرة بفواصل من الزجاج الملون. كانت القاعة خالية. وهناك مراوح تدور فوق المقاصير. فتح نادل بدين قصير القامة مقصورة خالية، وأدار المفتاح الكهربائي للمروحة. كان المكان مخصصاً لأربعة أشخاص. مسح النادل المنضدة وانتظر أوامره.

«ماذا تطلب؟»

«ماذا لديكم؟»

كانت زجاجات الصودا تُفتح بجلبة في الغرفة المجاورة. رائحة الشراب الكحولي تفوح وأصوات مبهمة تطفو من خلف الحاجز

الذي يعلو حتى الكتف.

أزال الفتى المنديل القذر الملفوف حول رأسه وربطه حول رقبته، ولفظ بسرعة دون تفكير أسماء الأطباق المختلفة. كان بديناً وأزرق العينين، ولو كان يرتدي ملابس نظيفة، لكان من الممكن أن تظنه من أفراد طائفة الإمبرانديري البرهميين. كان يذكِّر سيتو بزميله بالان الذي كان يتسكع مع لاعبي كرة القدم في الكلية، والذي لقبه زملاؤه «بليموث».

كان هذا يوم الاحتفال. سيجارتان. ثم برياني. قام بعمل حسبة سريعة - لديه سبعون روبية ككل، بما فيها ما اقترضه من الخال مادهافا. قمصان قادي، وشورتات، ودلو، وطبق.

سأل الفتى بابتسامة ذات مغزى، «لا شيء آخر؟»

«ماذا لديك؟»

«شراب وطني»

فتح رئيس النادلين في المطعم نصف الباب وسأل، «ألم تأخذ الطلب بعد يا آبو؟»

سأل الفتى، «صودا أو ماء مثلج؟»

«ماء مثلج».

أحضر الفتى له سيجارتين وصندوق ثقاب على طبق بلاستيكي. أدرك سيتو ماذا كان يعني عندما وصلت الزجاجة الكبيرة ووصلت رائحة العرق الوطني النتنة إلى فتحتي أنفه.

قال مندهشاً، «هذه؟»

«إنها فقط ربع زجاجة». لم يغادر الفتى. حسناً إذن، إذا كان ذلك ما

أراد! احترق حلقه وسقف حنكه مع الرشفة الأولى. واشتعل اللهيب في جوفه.

قال، دون النظر إلى أعلى، «أحضر الطعام».

أحضر الفتى البرياني وسأل، «ما رأيك؟»

أفرغ كأس الماء في حوض الغسيل، ودفع الكأس نحو سيتو، «دعني أحصل على جرعة أيضاً»

سكب سيتو نصف كأس وهو مبتهج، ذلك يعني أن لديه كمية أقل ليبتلعها. شربها الفتى في جرعة واحدة، ومسح ذقنه ورفع رأسه.

سأل سيتو، «أليس لديكم تحريم هنا للمسكرات؟»

ومض وجه الفتى أزرق العينين. وتورد وجهه. «المفتشون في الغرفة المجاورة. انتهوا بالفعل من شرب ثلاث زجاجات». وخفض صوته، «ألم تأت إلى هنا مع المحامي ذلك اليوم؟»

لم يجب سيتو. التقط شرائح البصل المنقوعة في الخل من طبقه وأكلها. حبس أنفاسه، وكشر، ثم تجرع الكأس وشعر بأنه أحسن حالاً. لم يتذوق بالفعل الرائحة المثيرة للاشمئزاز. ذهب الفتى وبدأ يأكل، اشتعلت النار داخله وتصبب العرق على جبهته. أصابته الجرعات القليلة الأولى بالغثيان. شعر برأسه ثقيلاً وبقدميه غير مستقرتين. غسل يديه في الحوض، ومسح بهما على شعره وأشعل السيجارة الثانية.

أحضر الفتى الفاتورة. روبيتان ونصف. نظر ثانية ليتأكد. نعم، روبيتان ونصف.

«وروبية إضافية من أجل الشيء الآخر. ليست متضمنة في الفاتورة».

وضع سيتو خمس روبيات في الطبق. وقف الفتى متكلفاً الابتسامة، ومثبتاً كوعيه على المنضدة. قال سيتو غاضباً، «أعطني الباقي».

ترك أربع أنّات بقشيشاً وغادر. أنيرت المصابيح الزيتية وابتسمت له المدينة. تزايد الزحام في الشوارع. التزم في سيره بجانب الشارع، وهو يشعر بعدم التوازن. أراد أن يعود سريعاً إلى غرفته ويكتب إلى أبيه، وإلى أمه، وإلى باراميسوارا إيتان. بفضل بركتك، سأبدأ الآن في أكل ملح الحكومة[1].

ولكنه عندما فتح باب غرفته الأسبستوس المطلي بالجير، كان كل ما يرغب فيه هو أن يلقي بنفسه في الفراش. فكر في الرسائل. عليه أن يكتب إلى تانجاماني أيضاً. يمكن الانتظار حتى يصل إلى مركز التدريب.

استيقظ فقط عندما طرق جوبي الباب.

انتهى جوبي من قراءة الورقة، حام حول حجرة انتظار السيدات لبعض الوقت، وعاد. «دعنا نذهب إلى الجانب الآخر. مجموعتنا هناك».

كان سيتو لايزال يفكر في الليلة الماضية. كان يحلم بأنه تشاجر مع شخص ما. لم يستطع تذكر وجهه.

---

(1) «أكل ملح الحكومة» تعبير منتشر بين القرويين في بعض مناطق الهند، حيث يرى الفلاحون الفقراء أنهم يأكلون «ملح وأرز السيد» الذي يعملون له، بما يعني ما نقوله في بعض البلدان العربية «لحم أكتافهم من خيره». وقد استخدم الجنود الهنود في الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الأولى هذا التعبير كثيراً في رسائلهم إلى ذويهم، وهذا مسجل في رواية شهيرة للكاتب ملك راج أناند صادرة عام 1939 تحت عنوان *Across the Black Waters*. [تشكر المترجمة الكاتب الهندي الأستاذ سيد قدسي وأيضاً مؤلف الكتاب، إم تي، لمساعدتهما في تفسير هذا التعبير].

ازدحم الجانب الآخر من الرصيف بالأولاد الذاهبين إلى مركز التدريب، يجلسون على حزمهم وصناديقهم. كانت هناك جبال من الأمتعة – دلاء، مكانس، حشايا ملفوفة من مختلف الأنواع، صناديق.

«أين صندوقك وفرشتك؟»

«بالقرب من كشك الكتب».

«دعنا نحضرها هنا». أحضر جوبي الصندوق الفولاذي والفرشة الملفوفة بنفسه.

«قطار البريد سيكون مزدحماً».

«لن يكون هناك مكان لنا جميعاً في عربة واحدة. سوف نصعد في أي مكان يتسع لنا».

كان جوبي يعرف الكثيرين، ويقدمهم واحداً واحداً إلى سيتو.

سأل نيدونجادي من تيرونافايا، «ألست خريجاً؟ لماذا لم تحصل على دبلوم تدريب المعلمين؟ كان ذلك يمكن أن يضمن لك معدل أجر عالياً».

قال سانكارانكوتي من بارابانانجادي، «لا يمكنني أن أتحمل التدريس. كان يمكنني الحصول على شهادة المدربين التقنيين إذا حاولت. ولكنها دراسة مثيرة للضجر».

ويعتقد فينكاتاسوامي من كوزهيجامبارا أن وظيفة معلم بالمدرسة الثانوية بالقرب من المنزل ستكون أفضل من هذا. حاول الحصول على واحدة على مدى سنتين. أنت تحتاج لدرجات جيدة جداً لتضعك الحكومة على القائمة. وإلا فلابد أن تكون لديك توصية. وإذا أردت وظيفة في مدرسة تدريب تُدار بواسطة الإدارة، فعليك أن تدفع.

قال شاب يرتدي قميصاً قطنياً خشناً «قادياً»[1]، «يمكنك دائماً أن تدخل مدرسة أساسية».

«بالفعل»، قال نيدونجادي، منتقلاً من كومة فرشات ملفوفة إلى صندوق ثياب سيتو. «المدرسة الأساسية تأخذ خمسمئة روبية أيضاً. ولكنهم لا يسمونها رشوة، لديهم بعض الأسماء الأخرى لذلك. دفعت ابنة جدتي لتدخل مدرسة ابن الوزير سانكارا مينون».

ابتسم سيتو، «يمكنك أن تسميها سامبهافانا، هدية لإعادة بناء الأمة».

«لا، لا، سامبهافانا هي باللغة المالايالامية، لن يستخدم شعب «السارفودايا» هذه الكلمة مطلقاً[2]. فهم يظنون أن الناس لن تفهم إذا سميت صناعة الأكواخ «كوتيل فايافاسايام». ويصرون على تسميتها «جراموديوج». ماذا يقولون على كلمة «الأساسي» يا أستاذ راماكريشنان؟»

أعجب سيتو بنيدونجادي، بعينيه الضيقتين وعلامة دهان خشب الصندل من حمامه الصباحي التي لا تزال تبدو طازجة على جبينه.

قال راماكريشنان صاحب القميص القادي بلا مبالاة، «نايي

---

(1) الأقمشة الكهادر أو القادي (Khadi, Khadar): هي أقمشة صنعت من القطن على أنوال يدوية، وقد اكتسب هذا الاسم معاني ضمنية أكبر منذ نادى المهاتما غاندي باستخدام هذا النوع من الأقمشة المحلية لمقاومة غزو الصناعة الإنجليزية للسوق كأحد وسائل المقاومة السلمية ضد الاستعمار. [المترجمة]

(2) السارفودايا Sarvodaya: مصطلح يعني رفعة الجميع أو التقدم للجميع، وهو مصطلح صاغه غاندي ثم استخدمه الغانديون المحدثون للتعبير عن الحراك الاجتماعي في الهند بعد الاستقلال. [المترجمة]

تاليم»[1] وسار نحو آخر الرصيف ليبصق ويمخط.

قال جوبي متذمراً، «إنه سارفودايا متعصب. هم يقولون إن أباه جيفانداني، لديه نوع من الهوس بالولاء مدى الحياة لمبدأ السارفودايا».

«حسناً، ماذا يمكن أن يعطي الإنسان أكثر من حياته؟»

«يمكن للمرء دائماً ألا يفعل شيئاً. أو أن يكون كسولاً ويذهب لينام. أو يدبر حيلة للتدليس أو الخديعة!»

عاد راماكريشنان على استعداد للمناقشة. «لقد درست في مدرسة أساسية. وأنا فخور بها. هذه الموضة الجديدة التي تطرد غير اللائقين لأي نوع من الوظائف...».

قاطعه جوبي. «انظر يا صديقي، ما اسم ذلك المشروب الذي يضعون فيه الكزبرة؟»

كان نيدونجادي يعرف. «إنه يُسمى جابي. الجابي الخاص بمهاتما غاندي».

«آه، نعم. جابي. هل سيهلك السارفودايا لو شرب أحد الشاي بدلاً منه؟»

لن يستسلم راماكريشنان. إنه شراب مناسب للهنود. كثير من عظماء الرجال أثنوا عليه. غاندي، فينوبها بيهيف، شانكار راو ديو، كيلاباجي.

«أتحب أن تسمع نكتة؟» كان هذا نيدونجادي. «كانت قريتي إحدى القرى المتبرعة. وكان الكثير من القرويين جيفاندانيين.

---

(1) «نايي تاليم»: وتعني «النظام الجديد للتعليم»، وهو ما دعا غاندي إليه لتحقيق التقدم والحياة أفضل. [المترجمة]

أحدهم، ويدعى كوتيسانكاران، بعد أن أصبح جيفانداني لعامين، يبيع الآن مشروب العرق. وهو يكسب جيداً جداً. استطاع أن يكسو منزله بالقرميد، ولديه ما يكفي من المال. ولكن ليس ذلك ما أردت قوله. جاء شانكار راو ديو إلى منطقتنا ليتسلم التبرع. هل رأيته؟»

قال راماكريشنان وهو يتحكم في غضبه، «نعم، أعرفه. لقد زارنا في البيت. أبي كان يعرفه في واردها».

«سأقول لك لمصلحة أولئك الذين لا يعلمون. هو يرتدي فقط موندو، بدون قميص. يحلق ذقنه مرة كل ثلاثة أشهر. كان من المفترض أن يقيم مع رجل عاد من سنغافورة، لديه مرحاض بصهريج عفن. محظور استخدام مثل هذه المراحيض على السارفوديين. ظل يكبح نفسه ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع، حفروا له حفرة في المجمع».

ولما بدأ الجميع يحتجون، غير راماكريشنان من لهجته وضحك ببلاهة، «سوف تكتشف عندما يبدأ التدريب. يمكنك أن تمثل شخصية أصحاب الأرض الأغنياء حتى ذلك الحين».

«سوف نرى. هناك عدد كبير منا نسبياً، على أية حال».

كان كثيرون لديهم شكوك ومخاوف فيما يتعلق بالحياة في مركز التدريب.

«هذا فقط لمدة ستة أشهر، بعد ذلك سنكون مستقلين».

كان فينكاتاسوامي متعاطفاً تماماً، «من المؤسف أن يضطر خريجو الجامعات للخضوع لعمل يدوي من أحط الأنواع».

قال جوبي مواسياً سيتو، «نحن الدفعة الثانية، تذكر؟ الخريجون لديهم فرصة جيدة للترقية».

دعا توماس من كونامكولام، سيتو على كوب من الشاي ولكنه رفض. «هيا، لم تجذب فرامل القطار بعد».

ذهب فينكاتاتشالام ونيدونجادي برفقتهم أيضاً، وكذلك فعل راماكريشنان. وقال جوبي مازحاً، «سوف نرى إن كانوا سيقدمون لنا مشروب الجابي».

أخيراً جاء القطار، بعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة. ازدحم الرصيف فجأة بالناس. خرج الحمالون بقمصانهم الزرقاء المتسخة، وعلى رؤوسهم عمامات حمراء، خرجوا من حجراتهم وأحاطوا بالأمتعة مثل النسور.

جاء حمال عجوز يعرج نحوهم. بهت قميصه الأزرق وتحول إلى اللون الرمادي وحال لون عمامته إلى البرونزي. كان من الصعب أن تصدق أن شفتيه كانتا ذات يوم متوردتين. كان يحك وجهه، حيث نمت بقايا شعر رمادية في الثلم المنتشرة على تجاعيد بشرته. وكشف عن أسنانه المتآكلة بابتسامة وهو يسأل، «هل أحمل أمتعتك أيها السيد؟»

قبل أن يتمكن سيتو من الإجابة، قال جوبي، «لا، هناك ما يكفي منا».

شعر سيتو بالأسف للرجل العجوز الذي انتظر لبعض الوقت، وفمه لايزال مفتوحاً بابتسامة هزيلة، ثم ابتعد ببطء وهو يعرج ليضيع في الزحام.

كان القطار مزدحماً أكثر من المعتاد، وكان على مجموعتهم أن تتفرق في ثلاث مقصورات. وجد سيتو نفسه مع جوبي، وراماكريشنان وتوماس.

«أين نيدونجادي؟»

«في المقصورة الأخيرة».

كان من الصعب أن تجد مكاناً للجلوس. شق جوبي طريقه إلى مقعد شاركه مع سيتو.

إذن كانت هذه بداية الرحلة التي تنتهي بتولي مكانه في العمل. لم يكن سيتو سعيداً. داخلته حالة من القلق الكئيب كسحابة مطر قاتمة يتغير شكلها وتتبدل هيئتها وهي لا تتوقف عن الحركة داخله. وبّخ نفسه. ستة أشهر. إذا أنت استطعت أن تتدبر حالك بخمسين روبية في الشهر على مدى ستة أشهر، سيكون لديك مهنة وتصبح شخصاً مستقلاً!

وجد جوبي شخصاً آخر ذاهباً إلى مركز التدريب. كان طويلاً وأسمر اللون، بشعر مجعد ونظارات وعلامة التئام نتيجة حرق على خده الأيسر. ظل جوبي يسأله أسئلة وفي النهاية طوى نسخة الهندوسي التي كان يقرؤها، وخلع نظارته، ومسح زجاجها، واعتدل في جلسته.

قال جوبي. «أوني نارايانان خريج أيضاً، لا تعرفان بعضكما، أليس كذلك؟»

سأل أوني نارايانان، «من أية كلية؟»

أخبره سيتو.

قال، «ذهبت هناك عام واحد وخمسين».

«كنت هناك آنذاك».

جاء أوني نارايانان من ثريجور لحضور المناظرات بين الكليات. في ذلك العام فاز شخص من ثيفارا بالجائزة الأولى وفاز أوني نارايانان

بالثانية. في العام التالي فاز بالكأس في إرناكولام.

سأل سيتو، «في أي عام أنهيت دراستك؟»

كان يسبق سيتو بعام واحد.

«ألم تعمل في أي مكان؟»

«حاولت ولكن لم أصل إلى شيء». حل الصمت على الشاب الذي فاز بالكؤوس لكليته في المنافسات التناظرية. ثم قال، «في الواقع، كنت أفكر. يقولون إن الخبرة من سنتين إلى ثلاث سنوات ضرورية لأي وظيفة. ولكن إذا لم يعطك أحد وظيفة كيف يمكنك أن تحصل على خبرة؟ وومضت عينا أوني نارايانان من خلف نظارته.

«الطريق الوحيد البديل هو أن تولد في طائفة دنيا، مثل البولايا أو البارياه من طوائف المنبوذين. ولسوء الحظ، أنا لست كذلك. أو عليك أن تكون فتاة... فتاة جميلة جداً».

سأل، «هل تعرف أنطوني؟ لقد ترك كليتنا والتحق بكليتك».

«لاعب كرة القدم؟»

«نعم. كنا زملاء فصل واحد. كان يقيم في المنزل المجاور لي. استغرق ثلاث سنوات ليمتحن الشهادة المتوسطة، ثم جاء إلى كليتك». كان سيتو قد رآه. أشار شخص ما إليه معبراً عن إعجابه به عندما اختير لاعباً للجامعة.

كانت صورة أنطوني منشورة إلى جوار الشعر الذي نشره في مجلة الكلية. كان يرتدي سترة عليها اسم الجامعة ويضع وشاحاً حريرياً منقطاً حول رقبته.

«إنه مع مافاتلال الآن. كل ما تحتاجونه هو التفوق في الرياضة،

ويمكنكم أن تحصلوا على راتب يبلغ سبعمئة روبية. سوف يحصل على علاوة بعد الموسم التالي في كالكوتا. أخبرني أخوه أن جميع النوادي تتقاتل للحصول عليه».

«ألم يذهب إلى خارج البلاد؟»

لقد لعب في الفريق الهندي في بانكوك وعاد نجماً.

بدا أوني نارايانان يزداد توتراً عندما وصف كيف رُفع أنطوني عالياً لأنه كان يلعب كرة القدم. ثم أخبر سيتو عن شخص آخر من زملائه نجح بالكاد في التخرج. وأصبح الآن المدير المساعد في مؤسسة لإنتاج المطاط لرجل أبيض. ويحصل على راتب يبلغ سبعمئة روبية علاوة على أجر إضافي يماثل أجر أربعة أشهر. وسيارة جيب.

واسى سيتو أوني نارايانان قائلاً، «إنها فقط مسألة حظ».

«حظ بالفعل! أنا أعرفه جيداً. إنه أحمق كبير. لا يمكنه أن يكتب جملة واحدة بالإنجليزية بدون أخطاء. لقد تملق ممتحنيه ورشاهم للحصول على خمسة وثلاثين بالمئة. كان والده يعمل في سنغافورة وكانت أمه سيدة مجتمع. لقد قدموا نبيذاً وعشاء إلى المدير العام للمؤسسة وأقنعوا وزير العمل بعد إلحاح بأن يزكي اسمه للحصول على هذا المنصب. ماذا يحتاج أكثر من ذلك؟ لا قيمة لأي شيء آخر، حتى لو كان أمياً».

حدق سيتو في الماء في الخلف، وأحس باختناق في حلقه.

«ألم تحاول الحصول على دبلوم تدريب المعلمين؟»

«ليس الأمر سهلاً. حاولت العمل كمعلم غير مدرب. هل سمعت عن أوني كريشنان ناير المسؤول عن التعيينات في مكتب التوظيف بالمنطقة؟»

«لا».

«لن يلين حتى لو جاء شخص بتزكية من الرئيس. يبدو أنه من النوع الذي قد يواجه فرقة الإعدام رمياً بالرصاص في نظام الرجل الأبيض. المعلمون الذين يريدون التحويل لابد أن يذهبوا لمقابلته في منزله. وإذا كانوا ذكوراً، فهو يقبل نقوداً. لو كنت قد عملت في مدرسة عليا لبعض الوقت، كنت سأحصل على شهادة تدريب المعلمين. ولكن كيف يمكن لشخص أن يحصل عليها وإدارة الأمور في أيدي أناس مثله؟»

ساد صمت مفاجئ في المقصورة. تذكر سيتو أن هناك مسافرين آخرين أيضاً. لابد أن أوني نارايانان قد أدرك ذلك أيضاً. لأنه فتح جريدته مرة أخرى. نظر سيتو إلى بساتين جوز الهند والحقول وهي تمر أمامه.

ها أنا قادم، ها أنا قادم، ها أنا قادم.

استجمع القطار سرعته. استمع إلى الإيقاع الثابت للعجلات الحديدية، في اللحن الذي تعزفه على القضبان. شعر بكلمات تتشكل من الموسيقى، ها نحن قادمون، لإيقاظ القرى الغارقة في الظلام!

لابد أن تانجاماني نائمة الآن في الدور العلوي، بعد الغداء، فوق الأرضية النظيفة في بيتها، شعرها مبعثر على البلاط الإسمنتي الأحمر.

كان ينبغي أن يكتب إليها. لقد حلمت بك، يا حبيبتي، في رحلتي إلى الحرية.

أطلق القطار ضوضاء صاخبة بابتهاج ثم عاد إلى أغنيته مرة أخرى.

ها نحن قادمون، ها نحن قادمون!

7

تنتظر المزرعة الشهيرة قدومهم في مكان ما عبر النهر وبين التلال. أول مكان يعمل به على الإطلاق. شعر بسعادة عندما رأى الخط المألوف للمصاطب الهندية الغربية المتاخمة للنهر على مسافة غير بعيدة. وبينما ينظر إليها من أعلى التل، على الناحية الغربية من بيته، ومن خط السكة الحديد، ومن شرفة الدور السفلي لبيت الطلبة، كانت أشكالها المبهمة تبدو له دائماً التخوم التي تصنع حدود حياته.

وصل القطار في الرابعة. رتب جوبي لحمل الأمتعة على عربة يد. ارتفعت الروح المعنوية لدى المسافرين الشباب المتعبين وهم يسيرون في موكب خلف العربة. بدأت السماء تمطر رذاذاً عند وصولهم إلى موقف الحافلات. وقفوا يحتمون من المطر تحت السقوف المائلة للمحلات الصغيرة الشبيهة بالصناديق على جانب الطريق.

اشترى سيتو نصف علبة سجائر حتى لا يتضايق صاحب الدكان الذي يحتمون في شرفته. قدم العلبة إلى أوني نارايانان، الذي رفض. فهو لم يدخن أبداً من قبل، ويعتبر ذلك نوعاً من الترف لا يمكنه التفكير فيه حتى يبدأ كسب ماله بنفسه.

كان أوني نارايانان يذكِّر سيتو بكريشنان كوتي، فيما عدا أن طريقته في التعبير أكثر لطفاً، بينما كان كريشنان كوتي يبدو صارماً دائماً.

وبينما كان يشعل سيجارته من المصباح الزيتي المعلق فوق العمود الخيرزاني، تساءل: تُرى هل خطر على بال كريشنان كوتي في أي وقت؟

اكتشف جوبي أن هناك حافلات تذهب كل ساعة للمكان الذي يقصدونه، المزرعة، وأن واحداً من المقرر أن يبدأ رحلته الآن. تبدأ

الرحلة من المدينة وأكثر من نصف المقاعد شاغرة. وحدث تزاحم من أجل المقاعد. شعر سيتو بالحزن والاشمئزاز وهو يرى رفاقه، الذين سافروا جميعاً معاً، والذين يقصدون نفس المكان، فجأة يتعاركون مع بعضهم.

هكذا نتعارك من أجل مساحة لأقدامنا على ممر الوقوف. نؤذي ويركل بعضنا بعضاً لكي لا نتخلف عن الركب.

أجبر التدافع أوني نارايانان على العودة أدراجه. وعندما وصل في النهاية إلى باب الخلاص، أعلن قائد السيارة بطريقة تخلو من اللطف، «لم تعد هناك مقاعد خالية».

صاح الذين نجحوا في الدخول على جوبي من أجل أمتعتهم.

شحن جوبي كل الأمتعة وأغرقته مياه الأمطار. وعندما أُغلق الباب، صاح بألفاظ بذيئة. قال سيتو مواسياً، «سوف نذهب في الحافلة التالية».

بقي جوبي وأوني نارايانان وسيتو وآخران لم يعرفوا اسميهما. أشعل سيتو سيجارة أخرى وقرر الانتظار في شرفة المحل، ولكن جوبي ما كان ليقبل الهزيمة. تناقش مع السائق حتى أذن له بالوقوف في الحافلة. فدخل الآخرون أيضاً، كان عليهم أن يقفوا ويحتفظوا بتوازنهم لمسافة ثلاثين ميلاً.

وبينما كانت الحافلة تشق طريقها عبر الشوارع الضيقة، بدت البلدة أصغر مما تخيلها. كان معظم لاعبي كرة القدم في الكلية من هنا. أنعم سيتو النظر، وهو يحني رأسه، وهم يقتربون من جسر على السكة الحديد.

النهر، الذي انفجرت مياهه متحررة من التلال، هدأ واستكان فجأة قبل وصوله إلى البحر المخيف.

تزحزح نيدونجادي جانباً وأفسح لسيتو مكاناً صغيراً ليجلس.

امتدت التلال من الشاطئ البعيد. كان الطريق غير المنتظم، المليء بالأخاديد ملتفاً حول المرتفعات الجدباء. تلألأ الممر المبتل مثل قناة من العرق تجري على صدر فتاة من طائفة الشيرومي!!

خلف القرية كانت تقع مجمَّعات ضخمة. ثم جاءت بساتين أشجار الكاشو. وانبعثت رائحة الرطوبة والأوراق القديمة في الهواء. واختفت بقايا أشعة الشمس في رقع الظلال المغطاة بالأوراق الجافة.

تعمقت كثافة الظلال المظلمة للمدرجات الغربية النازلة إلى النهر بين أجمات الأشجار وفوق التلال الجرداء. وذابت قطع السحب الصغيرة فتحولت إلى كتل رقيقة من الضباب في الحزام الأزرق الداكن خلف سلسلة التلال.

غطت كتل الضباب المسافة سريعاً. توقفت الحافلة. وتحولت كل العيون إلى البوابة. ها هي البوابة إلى الحياة الجديدة التي كانوا ينتظرونها.

فاريكا فاريكا ساهاجير!

فيرارام يوفاكال!

تعالوا تعالوا يا إخواني

أيها الشباب الشجعان!

لم يستطع سيتو أن يتذكر من الذي بدأ يدندن بلحن الأغنية الشهيرة للحزب الشيوعي.

أصبح جوبي قائداً لهم مرة أخرى، واندفعوا لتفريغ الأمتعة.

كانت هناك لوحة ضخمة يظهر عليها اسم المزرعة مثبتة على دعائم إسمنتية في بداية الطريق الطيني الأحمر. وتحتها، لوحة صغيرة باسم مركز التدريب مثبتة على دعامة خشبية.

تذكّر، تقدم بقدمك اليمنى.

التزم الجميع الصمت وهم يدخلون من البوابة. وضعوا الأمتعة على شرفة أول مبنى رأوه. ذهب عدد منهم يبحثون عن المكتب.

زحفت نباتات الفلفل المتسلقة فوق الأشجار الضخمة. ووُضعت صفوف من اللوحات الإرشادية الصفراء لشرح البنود التفصيلية.

عاد أولئك الذين ذهبوا ليسألوا عن المكتب، «يجب أن نذهب جميعاً إلى المقرات السكنية».

«من قال ذلك؟»

«هل رأيت المدير؟»

«أين المقرات السكنية؟»

«هناك!» لم يكن أحد يعلم بالضبط أين هي. رأوا رجلاً يرتدي قميصاً كاكي اللون وعمامة يتجه نحوهم، تتدلى من يده حزمة كبيرة من المفاتيح الحديدية. انشرحت صدورهم مرة أخرى. ها هو شخص يدلهم إلى أين يجب أن يذهبوا.

وجد سيتو من الصعب أن يسير حاملاً صندوقه الصفيح وفرشته الملفوفة. ساروا عبر حديقة شجر البابايا وبستان مزروع بشتلات جوز الهند. كانت المقرات السكنية في نهاية الممر.

مبنى طويل ذو سقف مكسو بالقرميد. كانت الأرضية الإسمنتية الخشنة محددة على شكل مربعات.

استدار ذو القميص الكاكي. وقال، «أربعة في كل غرفة».

ذهب سيتو إلى الغرفة الثالثة. تفوح منها رائحة ماء الجير وطلاء الورنيش. عندما فتح النافذة الكبيرة، امتلأت الحجرة بضوء أبيض. كان أوني نارايانان، وجوبي، وفنكاتاسوامي ونيدونجادي جميعاً في نفس الحجرة. وعندما سمع فينكاتاسوامي أن هناك مكاناً آخر شاغراً، ذهب إليه.

كان سيتو جائعاً ومتعباً للغاية. لم يكن أحد منهم قد تناول غداء. دفع سيتو فرشته أمام الحائط وجلس عليها.

وبينما كانوا يحاولون تقييم الغرفة، عاد الرجل ذو القميص الكاكي. أخذ أوني نارايانان القفل والمفتاح منه. ناداه سيتو وهو يغادر، ولكنه لم يسمع.

«هاي!»

تحول العامل الهندي، وهو ينظر باستياء.

«أليس لديكم مقاعد أو مناضد أو أثاث من أي نوع؟»

«لا. القواعد لا تسمح بذلك».

ذهب جوبي إلى الباب. «ولا حتى أسرة؟»

«تقول الأوامر إن عليكم إحضار الفرشات».

«لقد أحضرناها. ولكن ماذا عن الأغطية؟ هل سنفرشها على هذه الأرضية الإسمنتية؟»

بدا العامل غير مبال. «تلك هي القواعد. يمكنك أن تتحدث معه بنفسك».

غمغم جوبي، «هل مهاتما غاندي قال إن الأشخاص المصابين

بالروماتيزم لا يمكنهم النوم على الأسرة؟»

كان هناك بئر قريب، وحمامات. كانت المراحيض الغاندية تبعد نحو مائتي متر. وكانت غرفة الطعام مرئية من الشرفة. أما قاعة المحاضرات، فكانت بجوار المبنى الإداري الطويل.

شعر بسخونة في جبينه وصداع في رأسه. دخل الفتيان من الغرفة المجاورة، ولكنهم ذهبوا عندما قال إنه يعاني صداعاً.

حل الظلام سريعاً وكان البرد بغيضاً. أضاء شخص ما المصباح الكهربي في الشرفة ودخل شعاع من الضوء.

جاء الآخرون وقالوا: «علينا أن نتجمع في السابعة».

«كم الساعة الآن؟»

«السابعة إلا عشر دقائق». بدؤوا في تبديل ثيابهم واستعدوا للذهاب.

«ألن تبدل ثيابك؟»

نهض سيتو وقال، «أشعر بتعب شديد، أريد فقط أن أغطي نفسي وأنام». بالخارج كانت الرياح الباردة تنخس مثل الإبر.

تعاركوا من أجل المقاعد الأمامية على الحصير المفروش في القاعة. جلس سيتو بالقرب من الباب. عندما هبت الرياح محملة بقطرات المطر، ارتعش.

كانت المنصة خالية. وعُلقت على الجدران صور محاطة بإطارات للقادة الوطنيين، وزينت بأكاليل القادي. الساعة السابعة. وبينما كان الانتظار يطول ويتمدد، ظهرت غمغمات غاضبة سرعان ما ارتفعت إلى زئير.

أشارت عقارب الساعة المعلقة بجوار الصورة الملونة لغاندي وهو يقف طاوياً يديه، إلى السابعة والنصف. صوت وقع أقدام على الشرفة الخارجية. نهض الجميع. في ضوء المصباح الساطع المعلق فوق المنصة، رأوا رجلاً يرتدى سروالاً قطنياً من القادي، وقميصاً بنياً فضفاضاً. وأضاف الشارب الهتلري تحت أنفه المفلطحة المزيد إلى قبحه.

«أجلسوا». جلس الجميع.

كان الرجل على المنصة يذكِّر سيتو بصورة كرتونية رآها بأحد الإعلانات.

بدأ حديثه بالمالايالامية «من اليوم أنتم موظفون حكوميون».

وضع سيتو يده على صدره. هل به حمى؟ ارتعش، ربما كان البرد.

مسؤوليات موظف الحكومة، ومقدار المال الذي ستنفقه الحكومة على هذا المخطط التدريبي، ونوع الانضباط المتوقع خلال فترة التدريب. حاول سيتو أن يركز انتباهه. وجد سيتو أن اللهجة الخشنة لشمال غرب الهند مسلية. وتشتت انتباهه. إعادة بناء الأمة، والمهاتما، ومستقبل الهند، وأخيراً، التعليمات.

عليهم أن يحضروا إلى المقر في السابعة والنصف، وسيكون هناك عمل ميداني حتى الظهر. بعد ذلك هم أحرار ويمكنهم الذهاب إلى البلدة لشراء ما يريدون. ولكن عليهم العودة قبل الثامنة.

كان سيتو يشعر بجوع شديد. وشعر بالندم لأنه لم يشتر طبقاً عندما وصلوا إلى صالة الطعام. وكان هناك آخرون مثله. ولكن أحد الخدم خرج وأحضر أوراقاً كبيرة من شجر الساج. قُدم لهم خبز التشاباتي وحمص مقشور أخضر ساخن، يتصاعد منه البخار. أعلن معلم

صغير، «الابتهال أولاً. على الجميع أن يشاركوا».

وضع الحمص المقشور.

نبتهل إليه أن يحمينا معاً

نبتهل إليه أن يرضى عنا معاً

نبتهل إليه أن نعمل معاً بحماس وهمة

تظاهر بأنه يحرك شفتيه معهم وهم يترنمون بابتهالاتهم إلى الكاتوبانيشاد.

أوم شانتي! شانتي![1]

عاد سيتو إلى حجرته، ورقد وغطى نفسه بموندو مستعمل. ظن أنه سوف ينام في الحال. ولكنه لم ينم. كان الجميع يكتبون رسائل إلى أهاليهم. جذب صندوقه الصفيح نحوه، وجلس مربعاً قدميه وبدأ في الكتابة. إلى أمه، وأخيه الأكبر باراميسوارا، وأبيه.

كان يعلم أن عليه أن يكتب إلى كريشنان كوتي، وبالاكريشنان، ودانييل. ولكن ماذا يكتب؟ أصدقائي الأعزاء دعوني أنقل لكم الأخبار السعيدة حيث وصلت إلى هنا لأخدم في قُرانا.

تخيل بادمو تتلعثم وهي تقرأ رسالته لأمه. ستصل الخالة الصغرى مباشرة حال انتهائها. «هل هي من سيتو؟ أقرئيها ثانية يا فتاة» وقد تعلق قائلة: «أخيراً، إنه يكسب رزقه الآن».

ستكون الأم هادئة، متحفظة في التعبير عن مشاعرها كالعادة، تصلي في صمت كما تفعل دائماً. سوف تقول «لابد أن أرسل أربع أنّات إلى المعبد يوم الجمعة لتقديم قربان من الزهور، مخصص لطالعه».

(1) دعوة للسلام تتلى في نهاية الطقوس الدينية الهندوسية. [المترجمة]

أما الأب، فلن يتحدث عنه على الإطلاق. ربما يتحدث أخوه الأكبر باراميسوارا عنه إلى زوجته.

فرش كل منهم فرشته. أصبح سيتو أقل شعوراً بالبرد الآن. شعر بكسل مستعذب واختفى الصداع الذي كان يشعر به.

كان الظلام حالكاً بالخارج ولا شيء يمكن رؤيته من خلال الأشكال غير الواضحة للشجيرات. كانت الرياح الغربية تزأر خارج النوافذ المغلقة.

«هل أطفئ النور؟»

«انتظر»، جذب سيتو الصحيفة التي أحضرها في طريقه وجلس مستنداً على الحائط ليقرأ.

حذره جوبي، «الأنوار تُطفأ في التاسعة، تلك هي التعليمات».

تظاهر سيتو بأنه لم يسمع. لديه سيجارة واحدة متبقية. لفها بين راحتي يديه لتدفئتها، ثم أشعلها.

لم يكتب إلى تانجاماني. كيف يبدأ؟ ربما تكونين متضايقة مني. أكتب لك هذه الرسالة في عزلة الليل، في مكان بعيد للغاية على التلال، أستمع إلى موسيقى الظلام والرياح العاصفة.

طرق الباب شخص ما.

قال: «أدخل»، معتقدا أنه أحد رفاقه من الغرفة المجاورة.

لم يتعرف على الشخص الذي دخل على الفور. نظر متفحصاً في الوجه الذي يضع نظارة طبية ويتلفع بكوفية، ويرتدي سترة طويلة الأكمام، وموندو مرتباً جيداً. المدير!

ألقى سيتو السيجارة ووقف.

«ما اسمك؟»

«سيتو مادهافان».

استيقظ الآخرون وقفزوا على عجل واقفين.

«تُطفأ الأضواء في التاسعة. تلك هي التعليمات».

«لم أكن أعلم. سيدي».

«أنت موظف حكومي. الجهل بالقواعد لا يغتفر».

ظل سيتو صامتاً.

«في أي مدرسة درست؟» أخبره سيتو.

«هم. التدخين ليس مسموحاً به في المجمع. أتعرف ذلك؟»

«ولكن هذه حجرتي. يا سيدي. في الحجرة.. ».

اهتز الشارب الصغير الكثيف تحت الأنف المفلطح. تحرك نحو الباب، استدار وسأل، «ماذا قلت اسمك؟»

«سيتو مادهافان».

تجمع الآخرون حوله عندما غادر المدير، بمن فيهم الجيران من الغرفة المجاورة.

«قلت لك، أن تطفئ النور، ألم أقل لك؟»

كان سيتو متوتراً. «اغرب عن وجهي. ما هذا، مخيم نابليون العسكري؟ حتى هناك، لا توجد قواعد مثل هذه إلا في حالة الحرب».

ذهب الآخرون. وأغلق الضوء ورقد، ولكنه لم يستطع النوم. شعر بقلق شديد. تسلل البرد من الأرضية الإسمنتية كالدودة خلال الغطاء الخفيف.

استيقظ مجفلاً في اللحظة التي كان فيها على وشك الدخول في

النوم. عوى ابن آوى في مكان ما. هدأت الرياح. لم يكن ثمة صوت إلا الخشخشة الهادئة لنخيل جوز الهند.

هزه شخص ما لإيقاظه. كانت السماء مظلمة، لم يصدق أنه كان ضوء النهار.

«الساعة السابعة والربع. انهض».

«السابعة والربع؟»

نهض. فرك عينيه، نظر إلى الخارج من النافذة وسأل، «ألم يكن من الممكن أن توقظني في وقت مبكر؟»

«فعلت ذلك، مئة مرة».

قالوا له وهم يغادرون، «استعد بسرعة. سنكون في صالة الطعام».

نظف أسنانه بالفرشاة، وغسل وجهه وغير ثيابه متعجلاً. عندما وصل إلى المطعم وجده خالياً. لم ينتظر القهوة. أين يجب أن يحضروا من أجل العمل الميداني؟ لم يكن الخدم في المطعم يعرفون. نظر حوله في ارتباك، لا يعرف أين يذهب، ثم جرى نحو المكتب. دله العامل الهندي على الطريق.

لعن نفسه وهو يغذ السير. لماذا يجد نفسه دائماً وحده؟

وشعر بالارتياح عندما لحق بهم على بُعد حوالي أربعمئة متر.

كان المدير هناك، كذلك المعلم الذي قاد الصلوات في اليوم السابق. توقف المدير عن الحديث حال وصول سيتو.

سار سيتو ورأسه محنية نحو الطلبة. سمع صوت المدير، «انظر هنا».

بالتأكيد لم يكن يتحدث إليه؟

«قلت، انظر هنا».

توقف سيتو، وأدرك أن كل العيون كانت عليه.

«يمكنك أن تذهب». تحول المدير نحو المعلم وقال، «اعتبره غائباً».

أراد سيتو أن يقول شيئاً. أنا آسف، سيدي. من الغد... تعثرت الكلمات في فمه.

سار مبتعداً، ورأسه محنية. تؤلمه عيناه، ولكن غضبه طغى على الألم. ثلاث دقائق. تأخر فقط ثلاث دقائق. ألقى نظرة على ساعة آخر شخص في الصف.

عاد أصدقاؤه في الحادية عشرة ليجدوه لا يزال في الفراش.

«هل تناولت قهوة؟»

«نعم»

لم يذكر أحد حادثة الصباح. أراد كثير منهم أن يذهب إلى المدينة.

جاء العامل الهندي بعد ساعة. «سيتو مادهافان مطلوب في المكتب».

نهض سيتو. همس جوبي، «لا ترد عليهم. سيكون من الأفضل لو تعتذر».

كان سيتو يضحك. «إنها محاكمة عسكرية، أليس كذلك؟ سوف يحكمون عليّ بالإعدام».

دخلت سيارة إلى مدخل المبنى لدى وصوله إلى المكتب. خرج من السيارة شاب سمين أبيض البشرة ودخل وهو يهز مفاتيحه.

قال العامل الهندي، «انتظر حتى يغادر». وأضاف، برغم أن سيتو لم يسأل، «إنه ابن السيد كونهابووتي»

انتظر، مستنداً على العمود في الشرفة. عشر دقائق، خمس عشرة. عندما خرج الشاب كان المدير معه. تحرك سيتو جانباً. كان متأكداً أن المدير قد رآه. دخل المدير السيارة مع الشاب وقال للعامل الهندي، دون أن يلتفت إلى سيتو.

«كونهيكانا، أنا ذاهب إلى المقر السكني».

جاء أصدقاؤه ليعرفوا ماذا حدث. قال العامل الهندي مواسياً، «سوف يعود حالاً».

وقت الظهيرة. سأل سيتو العامل، «أين تكون المقرات؟»

«سوف يعود الآن».

«نادني عندما يحضر. سوف أكون في غرفتي».

جاء العامل بعد نصف ساعة.

لم يرفع المدير عينيه عندما دخل سيتو. ذهب إلى المنضدة وقال بهدوء، «سيدي!»

«ألا تعرف إنك موظف حكومي؟»

«نعم، يا سيدي».

أطفأ سيجارته في منفضة السجائر ومال إلى الأمام. شم سيتو رائحة خفيفة لمشروب كحولي.

«إذا كان أشخاص مثلك لا يمكنهم أن يمتثلوا للقواعد هنا، الأفضل لك أن تبقى في منزلك».

ارتعش سيتو. «كيف لي أن أكون ضد....».

«ألا تعلم أنك موظف حكومي؟»

يا إلهي، كم مرة؟

«من أعطى أشخاصاً مثلك درجات؟»

لم يتمالك سيتو نفسه. «أبوك!»

شعر سيتو بذراعيه تزدادان قوة. ارتعد المخلوق الطويل، النحيف الذي أمامه. وبعد لحظة صمت، صاح المدير.

«اخرج!»

«قررت أن أذهب بدون أن تقول لي ذلك».

«قلت، اخرج!»

شعر سيتو بالدماء تصعد إلى رأسه وهو خارج. وغامت عيناه.

كان هناك أشخاص كثيرون في الشرفة. لم يستطع أن يميز وجوههم، ولكنه كان مدركاً أنهم يصحبونه إلى غرفته. وضع يديه على كتفي أوني نارايانان وجوبي. «ساعداني. أريد أن أغادر على الفور».

لم يسمع ما قالوه. التقط بعض الزملاء أشياءه. ساروا معه في صمت في موكب حزين. لم يتحدث أحد حتى في موقف الحافلة. حاول أن يبتسم وهو يخرج رأسه ويلوح لهم من النافذة.

«وداعا!»

أغمض عينيه ووجوهم تتحرك مبتعدة عن مدى رؤيته.

«وداعا!»

القسم السابع

صار النهر يزداد جفافاً. يقف دقيقة على الضفة الرملية، التي تبدو مختلفة كلما رآها. لم تعد هناك جداول ماء يجري. يفكر، أنا هنا مرة أخرى بعد كل هذه السنين، على ضفاف نهر الزمن الذي يتدفق بلا نهاية.

أين معبد بهاجافاتي المتداعي الذي اعتاد الأولاد رعاة الأبقار أن يلعبوا فيه ألعابا بالحجارة، لا يزال يستدعيها في خياله بكل وضوح، النقوش الخشبية البالية، القراميد العفنة، وتمثال يالي، المخلوق الأسطوري، راقد وأنفه مدفون في الرمال.

صفوف من الآلات الشبيهة بالمراكب التي تستخدم في سحب المياه تتحرك فوق قطع الأراضي المزروعة بالخضر التي انتهكت النهر حتى منتصفه. والسقف القرميديّ الذي كان يمكن رؤيته بمجرد الصعود على الجسر لم يعد موجوداً، ولا الطريق المحفوف بأشجار التمر الهندي المغطى بالنباتات المتسلقة بكثافة. وعلى ضفتي النهر تنتظر مقدم الرياح الموسمية، في شهر «إدافام» (مايو-يونيو)، جذور الأشجار التي تنتظر الموت تمتد في الخواء كأصابع هيكل عظمي.

يظل السؤال الذي يريد أن يتجنبه يتردد على ذهنه: هل أنا فقط الذي تغيرت؟

لقد عدت أخيراً إلى شواطئ هذا النهر الذي استنزفه الزمن.

يبحث في وجوه الناس الذين يعبرونه في الطريق الضيق في رجاء، منتظراً بمشاعر مختلطة من الخوف والفرحة أن تطفر ذاكرة وتنير ابتسامة على وجوههم الذابلة. ولكنهم يخفضون أصواتهم عندما يرونه، فهم يرونه شخصاً غريباً، ويرفعونها مرة أخرى عندما يهربون من حجاب الصمت الذي يغلفه. يندفع بقلق وشوق نحو المجموعة التالية من الأصوات البشرية.

يسير لاهثا يتصبب عرقا على ما بدا امتداداً لا نهاية له من الرمال، يقترب الرجل الذي يحمل صندوقه الصفيح إلى جانبه. «لقد بدؤوا يبنون الجسر، أيها السيد. عندما تأتي في المرة القادمة، يمكنك أن تأخذ عربة لعبور النهر».

لا يعيره اهتماماً، ويخاطبه الرجل مرة أخرى بلقب «السيد». «كم من السنوات مرت منذ جئت لآخر مرة، أيها السيد؟» انهمر المطر ليغسل هذا الامتداد الرملي آلاف المرات منذ جئت لآخر مرة.

1

استيقظ عندما سمع النغمة الموسيقية لجرس النداء مرتين. كان الاستدعاء له. فالجرس يرن مرة واحدة لمينون، ومرتين له.

دفع الباب المستوي مع الجدار للغرفة مكيفة الهواء. كان السيد جالساً وقد وضع رجليه على حافة النافذة واستند بأحد مرفقيه على المنضدة خلفه، يقرأ رسالة. أنزل رجليه، واستدار، ووضع الرسالة في جيبه.

«هل الرصيد النقدي مضبوط؟»

«نعم».

«ماذا عن الألف التي أخذتها أول أمس؟»

«وضعتها في الحساب المعلق».

استمع بانتباه: فواتير، خطابات ائتمان، سحوبات على المكشوف، مسؤول، غير مسؤول. وبينما استدار لينصرف، استدعاه السيد مرة أخرى.

«أيها الكاتب!»

فكر، لم يعد لي اسم. الموظف مينون يدعوه بالكاتب. والآخرون جميعاً يعرفون أنه كاتب السيد سرينيفاسان.

غرق السيد في التفكير. مر بأصابعه بين خصلات شعره الرمادي، وبدا أنه يحاول أن يتذكر شيئاً نسيه. وانتشرت ابتسامة باهتة على وجهه المليء بندوب الجدري. كان عندما يبتسم تلمع عيناه الحمراوان بطريقة توحي بالجنون.

«وكيف هو البيت، أيها الكاتب؟»

«حسن».

«أين تأكل؟»

«في فندق».

«سوف أرسل فتى من المخزن ليعمل لك».

كانت ابتسامته خليطاً من الامتنان والاحترام، وكأنه يقول، أنت كريم جداً.

عاد إلى مكتبه، وقام بترتيب الخطابات التي ينبغي الرد عليها. كان يعاني من صداع هائل. لم يستطع تركيز عينيه على الورق. ليلة متأخرة

أخرى تأخذ ضريبتها منه.

كان مع راجيتان في الليلة السابقة حتى منتصف الليل، في غرفة فندق من الدرجة الثالثة اعتاد النزول فيها. كان لقاؤه الأول براجيتان، سمسار السيارات، عندما جاء لرؤية السيد. كان الجميع يدعونه راجيتان. بدأ راجيتان يدعو سيتو لغرفته في كل مرة يلتقيان في أي مكان. أحب سيتو التحدث معه؛ فهو يعرف أكثر كثيراً مما يعرفه المتعاملون في السيارات عادة. وكان مهتماً بموضوعات مثل أيزنهاور وخروتشوف وسبوتنيك.

أرسل راجيتان يدعو رامان، الذي كان رجلاً قصير القامة، متين البنية، في وجهه ندوب من أثر سكين.

«ماذا لديك لنا؟»

قال لسيتو: «هو معروف باسم أسيد رامان. كان في السجن ثلاثة أشهر، وخرج فقط قبل أمس».

«لدينا نوع من الدرجة الأولى، راجيتا».

«لا أريد شيئاً من ذلك. أعطني نصف زجاجة من النوع الرديء».

استدار الرجل، وأزاح الموندو الذي يرتديه جانباً، وتناول زجاجة كبيرة من جيب سرواله القصير. «خذ زجاجة كاملة يا راجيتا. ولن تحتاج أن تناديني مرة أخرى».

عندما بلغت الساعة العاشرة، توقف راجيتان عن الكلام عن قادة العالم. «هل تعرف بابامال؟»

«لا».

«وماذا تعرف إذن، يا خريج الجامعة؟»

بعد نصف زجاجة كان يصبح شخصاً أليفاً. وفيما بعد، سوف يعتذر.

كانت بابامال تنتمي لكويمباتور. عنوانها الدائم الآن هو «فندق دلهي»، وهذا يعني أن بابامال تحتفظ بملابسها، ومرآتها، وعلبة مساحيقها، في صرة في مكان ضيق تحت بئر السلم الخارجي لفندق دلهي. والرسالة التي تُرسل إلى هذا العنوان سوف تصل إليها. وكانت ترسل حوالات مالية بانتظام طوال السنوات الخمس عشرة الأخيرة لابنها ماريموتون الذي يدرس في كويمباتور. كان راجيتان يكتب لها العنوان.

عندما نزل سيتو أخيراً من العربة في منتصف الليل عند بوابة المسكن الجديد الذي أعطاه إياه السيد الذي يعمل لديه، شعر وكأن فيضانات تضطرم في بطنه. استند إلى عمود في الشرفة، يتأرجح. وقد ترددت في حلقه مرارة القيء.

«مينون، هل يمكن أن تعطيني ليمونة؟»

صعد الدرجات شاب يرتدي شورتاً أصفر داكناً، وقميصاً ذا مربعات، وسأل مينون باللغة المالايالامية إن كان السيد موجوداً. دُهش سيتو. كان الزائر رجلاً أبيض. رافقه مينون باحترام، ثم عاد وقال:

«هذا هو السيد ويلسون».

«هل هو من الوجهاء؟»

«كان أبوه كذلك. ولديهم مزرعة بُن كبيرة جداً في ويناد».

كان عصير الليمون منعشاً. خرج الوجيه وقال بروح طيبة لمينون:

«لا تنسني يا مينون».

وخرج السيد من المكتب. «هل هناك أية شيكات بحاجة لتوقيعي؟»

«لا».

انبعث صرير غير مريح عندما لفت أبواب المرآب على محاورها. ودار محرك السيارة الجيب. كان سيتو دائماً يعرف صوت الجيب الخاصة بالسيد عندما تُنقل التروس عند المنحنى على الطريق.

نظر مينون من النافذة، «السيد هو الذي يقود السيارة اليوم».

يقضي مينون معظم وقت فراغه عند النوافذ. كان الطريق مرئياً من النافذة الشمالية، وفناء بيت السيد من النافذة الجنوبية. وكان مينون يعرف كل من يأتي لرؤية السيد، ومهنة كل منهم، ونوع سيارته.

«سيارة السيد راريشان من نوع إمبالا. وهذا موديل أحدث من الهاجيار، لكن السيارة البنز التي يملكها السيد أغلى ثمناً».

كان المكتب على أطراف المجمّع، فوق المرآب. وإذا جلس سيتو مستنداً إلى الخلف في مقعده، يستطيع رؤية قمم أشجار البونسيانا في الفناء. وما أن يأتي بريد الظهر، وينتهي من الرد على كل الرسائل، يصبح حراً. يمكن أن يستريح في مقعده ويراقب الببغاوات تتشاجر على أفرع الأشجار، أو يستمع إلى ثرثرة مينون ونميمته.

كان مينون هو أول من استقبله بالتحية عندما أتى هنا. كانت على جبهته علامة معجون خشب الصندل، أسنانه الأمامية بارزة، مما جعله يبدو وكأنه يبتسم دائماً، وكان يبدو شخصاً أنيساً لا ضرر منه. ومن ثم سرعان ما جمعت الصداقة بين سيتو وبينه. وكان الكاتب كاروناكاران، الذي تقاعد من عمله في إدارة الأشغال العامة، مسؤولاً عن المكتب.

كان شخصاً نحيفاً وداكن اللون كقلم رصاص مبري، ولم يكن يبتسم أبداً. وبدت عيناه الذابلتان قصيرتي النظر خلف النظارات مليئتين بحزن لا قبل لأحد باحتماله.

ذات يوم، سأله سيتو: «هل أنت مريض؟» لكنه لم يتلق إجابة.

كان مينون هو الذي وجد لسيتو مكاناً في الكوخ المجاور للقناة كريهة الرائحة على أطراف المدينة. وكان مينون ينتقل بحرية بين المكتب وبيت السيد. ويبدو أكبر من عمره الحقيقي. قال راجيتان لسيتو كيف استطاع مينون أن يسيطر تدريجياً على السيد. ووجد سيتو من الصعب تصديق ذلك.

قال راجيتان: «أعطاه السيد ألف روبية عند زواج ابنته الكبرى، كما تعلم».

ولم يكن سيتو ليفشي إلى مينون ما عرفه عن هذه الموهبة. أشار عليه راجيتان بأن التعامل بمودة مع مينون سيكون مفيداً.

كان المحاسب، نامبيار، يأتي عادة في الساعة الواحدة. حيث إنه يعمل بعض الوقت في أماكن متعددة. وكانت حساباته لضرائب الدخل تخلو من الأخطاء. وقد أخذ العمل بعد الكاتب كاروناكاران، وكان الكاتب شديد الذكاء. عندما أرسل شيكاً بمبلغ ألفين وثلاثمئة روبية إلى فندق نسيم البحر لتغطية فواتير أسبوع، وجه التوبيخ إلى موظف الفندق الذي جاء بالفواتير. فقام صاحب الفندق بإبلاغ السيد بذلك. وعندما استجوبه السيد، توجه الكاتب إليه بالنصيحة وكأنه صديق قديم. وفي اليوم التالي، لم يأت الكاتب إلى العمل. قص مينون كل ذلك على سيتو.

«فهل وجد السيد خطأ من جانبه؟»

«أوه، لا. كان كل ما قاله هو أنا لا أشرب النقود التي كسبها والدك. هذا كل شيء».

خرج مينون لتناول الغداء. قام سيتو، وأزاح الستارة عن النافذة ونظر إلى الخارج. كان قد سمع أن بيت السيد قد بُني أثناء فترة مزاد الخشب في كورج. كانت الأعمدة الدائرية في مقدمة المنزل من خشب الورد اللامع الذي يتحدى الزمن. وكانت النافذتان تغطيهما ستائر معدنية. وعلى المقعد المريح في الشرفة الأمامية غطاء من جلد النمر المرقط. ويرقد قط سيامي أنيق ناعساً تحت شجرة البونسيانا. ورأى الموندو الرث الذي ترتديه الخادمة العجوز وقدمها الحافية المحرفشة خلف الستائر المعدنية المسدلة إلى نصفها. ثم رأى قدماً وردية اللون في خُف أحمر تغوص في السجادة الحمراء في القاعة. ولفة من تنورة تحتية من الساتان الأصفر تحت الحاشية الذهبية لساري بلون كريمي.

بدأ قلبه يدق بسرعة عندما خرجت إلى الطرف الجنوبي للشرفة، بالقرب من النباتات المزروعة في الأصص. كانت حركاتها أشبه بحركات راقصة تؤدي رقصتها أمام جمهور خفي.

السيدة لاليتا سرينيفاسان!

على غير علم منها، كان يراقبها متى ما خرج مينون، وقلبه مليء بخشية وسرور سري.

كان يستطيع رؤيتها بوضوح الآن حيث لم تعد مختفية خلف الستائر المعدنية. كانت البلوزة السوداء المطرزة بزهور ذهبية تزداد إحكاماً في كل مرة تحاول تسوية الخصلات النافرة من شعرها الخالي

من الدهانات.

بدت أجمل الآن مما هي في الصورة التي رآها لها بالأمس في إحدى المجلات، تقف مع مجموعة من زوجات نادي الروتاري، يلوحن بالمكانس أثناء «أسبوع تنظيف المدينة».

دخلت سيارة حمراء متألقة إلى رواق المدخل. وبسبب الأعمدة، لم يستطع أن يرى سوى أرجل البنطلون الأصفر القاتم. تحرك إلى النافذة الأخرى. إنه السيد ويلسون. أخرج منديلاً من جيبه، ومسح رقبته المحمرة. ولم يستطع سيتو أن يسمع ماذا قال. كل ما استطاع أن يراه هو الخف الأحمر على طرف السجادة.

عاد سيتو إلى مقعده بمجرد أن خرج السيد ويلسون. لم تكن هناك أية ببغاوات اليوم على أشجار البونسيانا.

سمع مينون يتنحنح بالخارج ورائحة سجائره البيدي تأتي من بئر السلم. لم يدخن مينون أبداً أمام سيتو.

سأل مينون بمجرد دخوله: «هل ستذهب إلى الغداء أيها الكاتب؟»

كان يكاد يموت جوعاً، لكن لا يزال يشعر بطعم مرارة في فمه.

«هل يمكن أن ترسل شخصاً لإحضار كوب من القهوة وثمرة موز؟»

ذهب مينون إلى النافذة. «هل عاد السيد؟»

«لا».

«رأيت السيارة من فندق نسيم تقف هنا. من كان ذلك؟»

«السيد ويلسون».

«مم. السيد ويلسون يحب أن يقضي وقتاً طيباً. هل تعرف كم ينفق

من النقود عندما يأتي من العزبة ليومين؟»

ذكره سيتو بالقهوة في تردد، غير راغب في الاستماع إلى تاريخ حياة السيد ويلسون. «لو يمكن أن أحصل على قهوتي. أود أن أغادر بمجرد أن يأتي نامبيار. فأنا أشعر بأنني لست على ما يرام».

رن التليفون في المكتب. أجاب سيتو. كان مسؤول ضريبة الدخل، الذي حاول الوصول إلى السيد في النادي، وفي المطحنة، وفي فندق نسيم البحر. أين هو؟ «هل أنت الكاتب؟»

توقف للحظة، ثم أجاب: «نعم».

«أنا بحاجة إلى سيارة لمدة ساعة».

كانت السيارة الفيات في الورشة. ولم تكن البنز تستخدم إلا للرحلات الطويلة. ولكنه تذكر تعليمات السيد. كان اسم الشخص الذي على التليفون في أعلى قائمة بأسماء الأشخاص الذين ينبغي الحفاظ على حالتهم المعنوية مرتفعة. ومن ثم قال باحترام: «سوف أرسل سيارة».

لم يكن السائق أبّو في المرآب. كان في الأوقات التي يكون لديه فراغ من العمل ينعس هناك، أو يجلس في شرفة المطبخ يتحدث إلى الخادمات.

نما نبات الجهنمية بوفرة على بوابة البيت. كانت السيارة الستاندارد الحمراء لا تزال واقفة في المدخل. تردد في الشرفة، وحرك أصابعه على جلد النمر الموضوع على المقعد المريح. كانت غرفة الاستقبال خالية. خرج مرة أخرى ورن الجرس.

استمع بحرص، لكن لم يكن ثمة صوت أو حركة. تساءل في نفسه

إن كان ينبغي أن يعود ويرسل مينون.

سمع صوت السيد ويلسون: «سوف أتصل تليفونياً».

سمع صوت امرأة: «متى؟»

خرج السيد ويلسون ومسز سرينيفاسان أمامه، يدفعان ستائر الباجودا المطبوعة. تحرك جانباً دون النظر إليهما.

ابتعدت السيارة الحمراء. وانتظرت هي بالقرب من الستائر.

«مسؤول ضريبة الدخل يريد سيارة».

«وإذن؟» بدا صوتها فظاً.

«لا أجد السائق».

«هل تريدني أن أقودها إذن؟»

شعر بالغيظ منها، ولم يتوتر. حاول أن يخفي مشاعره، التفت عائداً إلى الفناء. نادته: «أيها الكاتب!»

أراد أن يقول: «أنا لي اسم»، لكن صوتها كان رقيقاً، خرجت. كانت قد غيرت وارتدت سارياً أسود موشى بالذهب، وبلوزة ذهبية.

«السائق غير موجود. من فضلك استدع سيارة أجرة خاصة».

لم يعد وجهها المستدير استدارة كاملة والمغطى ببعض البثور ينم عن الغضب، وبدت عليه علامات صامتة لطلب الصفح.

«إن لم يأت السائق في المساء، لابد من إرسال السيارة إلى الدير لإحضار الأطفال أيضاً».

عندما عاد إلى المكتب كان المحاسب نامبيار موجوداً.

وبمجرد أن كان مستعداً للمغادرة في المساء، قال مينون: «لقد أرسلت تستدعيك».

«من؟»

«السيدة».

«تريد أن تراني؟» ظن أن مينون يمزح.

«تريدك أن تذهب هناك عندما تنتهي من عملك».

وبمجرد وصوله إلى الشرفة، خرجت. «تفضل». دعته ليجلس في غرفة الاستقبال. جلس على الأريكة المقابلة للمرآة الكبيرة المحاطة بإطار من أنياب الأفيال.

جلست على الديوان، وجذبت ساريها الذي كان ينزلق إلى الأسفل نحو الأعلى، وراحت تؤرجح ساقيها. وبسرعة حول عينيه إلى الأسفل، شاعراً بأنه من الخطأ أن يحدق.

«هل أنت خريج دراسة جامعية، يا كاتب؟»

«نعم».

«سوف ألقي حديثاً في استعراض الأطفال الأسبوع القادم. ويمكن أن أعطيك النقاط التي أريد التحدث فيها، هل تكتب لي هذا الحديث؟ فأنا لا أتقن اللغة المالايالامية».

«نعم، أستطيع أن أفعل هذا».

«لا تكثر من الكلمات الصعبة. لغتي المالايالامية فقيرة للغاية. أو سوف أكتبها بالإنجليزية ويمكنك الترجمة».

«وهو كذلك».

نهض.

«هل أنت في عجلة؟ ألا تتناول كوباً من القهوة؟»

«لا».

دخل الأطفال في ضوضاء. بأربطة عنق حمراء، وثياب زرقاء داكنة.

«مامي، سوشما تقول....».

«ادخلوا الآن». انطلقت الطفلتان الصغيرتان ذواتا البشرة البيضاء إلى الداخل، ممسكتين بصندوقي المدرسة الألومنيوم. كانت تعلو وجنة الكبرى اليمنى شامة مثل والدتها. والتصق الولد الصغير داكن البشرة وذو الوجه النحيل والعينين الذابلتين بوالدته. نهضت. «بمجرد عودتهم، تحدث فوضى شاملة. سوف نناقش الأمر غداً».

دفعت الشعر على جبهتها إلى الخلف، وابتسمت وسألت:

«ماذا قلت اسمك؟»

«لم أقل. سيتو».

ابتسم لنفسه، وخرج.

2

في الأمسيات، كانت الشوارع أكثر ازدحاماً. وكان صوت الناس والسيارات يغلب على الرائحة المتصاعدة من البالوعات.

سار في الممرات الضيقة للحي الأنجلو-هندي، ووصل إلى الشارع الذي يجلس فيه مسلفو المال من الطائفة الملتانية ذوو الكروش الضخمة، يجلسون القرفصاء وراء مناضد منخفضة.

دخل سيتو إلى الشارع حيث شاحنات وعربات التموين تتراص في صفوف غير منتظمة، ونظر إلى الدكاكين المغطاة بالقرميد على جانبي الطريق المترب، وفكر في المعاملات التي تجري بمئات الآلاف من الروبيات في تلك الدكاكين. كانت أكوام القمامة ملقاة على أطراف

الطريق والهواء يردد باستمرار بذاءة سائقي العربات. استدار حول شاحنة تفرغ حمولتها من البالات الثقيلة المليئة بأوراق النخيل، وقفز فوق مقود رُبط فيه ثور، ووجد نفسه وجها لوجه مع شاب يخرج من أحد الدكاكين، كان يضع فوطة فوق كتفه، ويحمل حقيبة بسحّابة تحت ذراعه.

لم يصدق سيتو عينيه. سوامي. ألم يكن هذا سوامي؟

أسرع سيتو، لكنه لم يستطع مقاومة النظر إلى الخلف. كان الشخص الآخر يحدق فيه أيضاً.

جاء سوامي إليه. «ألم تكن أنت في بلغات؟»

شعر سيتو بجرح عميق. لقد اشتركا في نفس الغرفة لسنة كاملة.

«ألا تتذكرني، يا سوامي؟»

«أهلا، زميل الغرفة!»

تصافحا وأصدرا أصواتاً تنم عن السرور المتبادل. حاول سيتو أن يتذكر بعض الصيغ المنسية.

قال سوامي: «لم أعرفك للوهلة الأولى».

لا ألومك. معظم الناس لم تعد تعرفني للوهلة الأولى، يا زميل الغرفة. حتى أنا لم أعد أعرف نفسي!

«ازداد وزنك، يا سوامي».

ابتسم سوامي. كان دائماً نحيفاً كعصا المقشة. وكان معتاداً على ارتداء قمصان قطنية بنصف كُم، وكان طرف لسانه يظهر من بين شفتيه حتى وهو لا يتحدث. كان يبدو الآن مستقراً جيداً، وميسور الحال.

تحركا نحو أحد أعمدة الإضاءة.

«ماذا تفعل يا سيتو؟»

«أعمل في شركة».

سأل سوامي عن نفسه لكي يتجنب الإجابة عن الأسئلة. ترك سوامي دراسته بعد أن أنهى السنة المتوسطة، والتحق بتجارة أبيه. ومات أبوه منذ عامين، والآن كان يدير العمل بنفسه.

«هل أنت متزوج، يا سيتو؟»

ضحك بحماقة. لقد أصبح خبيراً في ذلك. «لا، لا».

قال سوامي، بلهجة تنم عن اعتذار: «عندي طفل عمره عام، لم أكن أعرف عنوانك لأرسل لك دعوة إلى الزفاف».

لم يخبر سوامي، ليس لي عنوان لائق. عزبة قهوة في ويناد، سرير في محطة بنزين، وكر للمقامرين في كرنفال - كان مثل الزَبَد الذي تجرفه الأمواج.

«إلى أين تتجه؟»

«لا مكان على وجه الخصوص».

«ركنت سيارتي خلف السوق. تعال، سأوصلك».

«لا، سوف أسير معك حتى هناك».

سأل سوامي: «هل تتناول قهوة؟»

«لا». وتساءل في نفسه هل سوامي لا يزال يحتفظ بعادة عمل الحسابات حول ما ينفقه كصدقات.

كانت السيارة الفيات السوداء واقفة خارج البوابة ذات العقد القوسي للسوق. أدار سوامي المحرك، وسأل: «ألا تريد أن أوصلك

إلى أي مكان؟ لابد أن أذهب لرؤية فيسواناثا أير، تاجر الجملة في الشاي. إنه عم زوجتي».

«لا بأس، فينبغي أن أذهب إلى مكان قريب».

«إذن، إلى لقاء. سوف أكتب لك».

اتخذت الفيات طريقها بثقة بين الفوضى الحاشدة على الطرق، لابد أن سوامي شعر بالارتياح مثلما حدث مع سيتو عندما افترقا. ربما يلتقيان مرة أخرى، أو يكتب أحدهما للآخر. لقد وضعا نهاية لبركة قديمة تكونت منذ ست سنوات بتبادل مهذب للكلمات. وعندما يلتقيان مرة أخرى، يمكن لهما التظاهر بأنهما لا يعرفان بعضهما.

لم يعد يكتب إلى أي أحد، كما لم يعد يتلقى أية رسائل. بعد ثلاثة أشهر من التحاقه بالعمل في مكتب السيد سرينيفاسان، وصلت إليه رسالة من باراميسوارا إيتان، وكان ذلك بعد أن التقى بأسيسوكوتي، المنتمي إلى طائفة المابيلا المسلمة، الذي كان يعمل في دكان الشاي المجاور لدكان التموين في قريته. ربما فاته الحذر وذكر اسم السيد سرينيفاسان لأسيسوكوتي، ولابد أن هذا هو ما أدى إلى اكتشاف باراميسوارا إيتان لعنوانه.

كان دائماً يشعر بالقلق عندما يأتي مينون بالبريد ويتركه على المنضدة. يدعي أنه ما من شيء له. لم يفتح الرسالة الأخيرة التي جاءت وعليها خط يد تانجاماني. ولكنه كتب رداً. «إنني راحل ولا أعرف متى سأعود. كنت شخصاً طيباً في الماضي، ذلك الشخص الذي أحببته. كل أبواب الهروب مفتوحة أمامك وأنت حرة في اتخاذ قرار». بدت الكلمات بلا معنى عندما قرأها مرة أخرى، ومن ثم مزق الرسالة.

وتوقف بالقرب من تمثال غاندي أمام قاعة المدينة. إلى أين الآن؟ استدار باتجاه الغرب، نحو البحر، أراد أن يجلس في مكان ما مع نفسه.

كان بعض الشباب يجلسون على المصاطب الحجرية المجاورة للممشى، تحت أشجار الكازوارينا. التزم بجانب الطريق، خلف أعمدة النور، وأمام المبنى المغلق الذي تملكه شركة إنجليزية، كان الازدحام أقل. وكانت المياه تتجمع في الأحواض بعد المد العالي. راقب الأطفال يجذبون أجزاء من الشباك في المياه الطينية لاصطياد السمك.

كانت السيارات والدراجات النارية تسير ببطء في الطريق. وانطلق قارب من ذوات المحرك على المياه. وظهرت هياكل سفن النقل في البحر الواسع خلف كل ذلك. واستند رجل مجنون ذو لحية، وقد ارتدى قطعة من الخيش، على حائط المبنى المقابل، ورفع نداء إلى قوى غير منظورة.

اكتشف سيتو أنه ينبغي أن يأكل في مكان ما، وأن يصل إلى البيت بسرعة. أصبح الطعام مشكلة بعد أن تحرك إلى البيت الذي وجده السيد له بعيداً عن المدينة.

عندما وجد نامبيار البيت، دهش موظف مكتب البريد الذي كان يشاركه في الكوخ المجاور للقناة ذات الرائحة النتنة.

«هل عليك أن تدفع الإيجار بنفسك؟»

«لا أعرف».

«أنا متأكد أن الإيجار سيكون ستين وربما سبعين روبية».

إذن، وجد له السيد بيتاً يتطلب ستين روبية إيجاراً. هو الذي فكر

أن الطيبة لم تكن إلا أسطورة. لم يستطع أن يصدق أن شخصاً يعيش في بيت ذي حوائط عالية مغطاة بقطع من الزجاج، وعند بوابته كلاب من أنواع الجورخي والإلزاسي، يعرف معنى الطيبة. فلم يقرأ أبداً عن سادة من أصحاب الأملاك يتميزون بطيبة القلب.

وشرح السيد سبب طيبته: «إذا أجرت الغرفة لأحد، لن أستطيع أبداً أن أستعيدها متى شئت، سوف أهدمها وأعيد بناءها متى ما توفر لي وقت».

قال لنفسه: «سامحني لأنني أخطأت الحكم عليك، أيها السيد صاحب الأملاك».

في كل مرة كان يكتب فيها شيكات لفواتير السيد الشهرية، بعد توقيعها منه وإرسالها ليتم دفعها عن طريق مينون، كان يصاب بصدمة عندما يشهد مدى ما يمكن أن تصل إليه النقود من تفاهة كمادة. فواتير الفندق، فواتير النادي - كانت الأرقام تصل إلى الآلاف. السجائر وحدها وصلت إلى مائتي روبية في الشهر. وكانت الدهشة تظل تلازمه حتى رغم معرفته أن حساب البنك الخاص بالسيد كان يتضاعف بعشرات الآلاف في كل مرة تأتي فيها شاحنة لأخذ حمولة من خشب الورد إلى ميناء كوتشين.

ذات مرة قال لمينون، يا ليت آباءه الأوائل فكروا في زراعة أشجار قليلة على سفح تل أجرد بدلاً من تربية الثيران والدخول في صراعات قضائية!

جرى الأولاد الذين كانوا يصطادون السمك. وعندما استقر الطين، لمعت المياه في الظلام كالمرآة، واستطاع أن يرى انعكاس وجهه.

في كل صباح، كان ينظر إلى وجهه في المرآة الصغيرة المطوية، ويفكر أنه في السنتين الأخيرتين تغيرت ملامح وجهي. تجمعت ظلمة الليالي السوداء عندما كان الجوع يمحو النوم، وتحولت إلى ظلال تحت عينيه. واصطبغت أسنانه بلون أصفر قذر. وأصبح إطار نظارته واسعاً.

شعر بأنه لم يعد يستطيع الابتسام، وأن وجهه يبدو أكثر تشوهاً عندما يحاول ذلك.

وفي الليالي التي لم يكن يستطيع النوم فيها، كان يفكر في الغرفة المظلمة التي جرّب فيها رائحة الموت. كان ذلك في اليوم الذي غادر فيه مخيم التدريب. استأجر غرفة مقابل روبية ونصف على قمة مبنى قديم متهالك وجلس فيها، مفكراً في الموت، بينما كانت تمطر رذاذاً بالخارج.

التصقت بالغرفة رائحة الدخان المتصاعد من المطبخ بالطابق السفلي. ذكرته الرائحة السمجة للدخان المبلل، والخشب الذي نخر فيه السوس، والحيطان المتداعية، بجسد ميت. أخذ ورقة وقلماً. لمن يكتب أولا؟ من يستطيع مواساته؟ ارتعشت أصابعه وهو يمسك بالقلم.

فجأة انطفأت الأنوار وغرقت المدينة في الظلام. استند برأسه على المنضدة، وانتظر عودة النور. أحد الخدم مر به وقال إنه لن يعود لأن شجرة قد وقعت على أحد المحولات ودمرته.

وضع قلمه، وخرج. كانت التجارة الخفيفة تدور في الدكاكين في السوق على ضوء الشموع والمصابيح ماركة بتروماكس. التف بالظلام كشبح، وسار في طريق، خلف شاطئ البحر والجسر على السكك

الحديد، نحو المخيم العسكري. غاص في الحشائش المبللة. وتراقص أمام عينيه مانشيت لإحدى الصحف. العثور على جسد ميت في غرفة فندق!

ظهرت أطراف اللهب الحمراء في المدافئ المفتوحة بالقرب من المجرى، وسرت في الريح الروائح الكريهة المنبعثة من حرق الكاوتشوك، وسمع أصواتاً خفيضة. وبدا أن شخصاً آتياً ناحيته.

«شش، شش».

غذَّ السير. ملأه الخوف، وتسارعت دقات قلبه، هرب، وهو يفكر، أنا أحب الحياة! أريد النجاة!

سمع خطوات خلفه.

«هل أنت ذاهب عن هنا؟» كان صوت امرأة. أسرع إلى طرف الساحة ليكتشف كيف يستطيع الوصول إلى الطريق. جاءت إليه، كانت أسنانها الأمامية تلمع في الظلام.

«أعطني دخان بيدي».

أعطاها سيجارة. وعندما أشعل عود ثقاب، رأى وجهها المستدير المجدور وسنها البارز بوضوح. وذكره الوهج الأحمر للسيجارة بين أسنانها بعفريت يلفظ نارا.

«أعطني نقوداً لشراء شاي، أيها السيد».

أراد أن يضحك. السيد، فعلاً!

وجد ورقة بخمس روبيات في جيبه. تفحصتها وهي لا تكاد تصدق، بينما سار هو، ضاحكاً بصوت مرتفع.

«ألا تريدني، أيها السيد؟»

لم ينظر إلى الخلف. وقضى بقية الليلة في الغرفة التي تنبعث منها رائحة الموت، راقداً متمددا على الحصيرة القذرة، يضحك في نفسه.

كان باقياً معه عشر روبيات. في الصباح، بعد أن يقوم بتسوية حساباته، سوف يتبقى معه سبع روبيات ونصف عليه أن يبدأ بها حياة جديدة!

«يا كاتب».

موبان، الذي كان يمتلك قاربين ولديه عقد لتحميل وتفريغ الخشب للسيد، نزل من على دراجته.

«ماذا تفعل وحدك، يا كاتب؟»

«لا شيء. إلى أين أنت ذاهب يا موبان؟»

دعاه موبان لشرب كوب من الشاي، ووصف له الصعوبات التي يقابلها في بناء بيت. وسوف يدعو الجميع لمباركته؛ ولابد أن يأتي الكاتب.

«مهما كان ما يقوله الناس عن السيد، فهو شخص يهتم بالآخرين. لقد ساعدني كثيراً». وعلق موبان بأن كل من التحقوا بالعمل لدى السيد ازدهرت أحوالهم.

«إنك محظوظ، يا كاتب. السيد يثق بك».

وسأل موبان وهو يغادر: «هل هناك ما أستطيع أن أفعله لك؟»

«لا، يا موبان».

جرجرت نساء جوجاراتي البدينات نعالهن بضوضاء على الطريق الإسمنتي. وتلألأ البحر تحت السماء السوداء كحاوية مليئة بالكحل. وازداد تألق الأضواء على مراكب الشحن.

بدأت الحياة تتدفق في الليل في الشوارع الرئيسة السوداء للمدينة. آلاف الأصوات الصغيرة اختلطت في سيمفونية مبهمة، تزاحمت حول قمة البلدية العاهرات اللائي كن نائمات طوال اليوم، استعداداً للعمل. وعلق السماسرة قطعاً من الخيش خارج الدكاكين الموصدة لتوطيد أماكن عملهم، وانتظروا، يدخنون.

سار سيتو ببطء بين الزحام النشط، شاعراً بالرضا. فهو يستطيع أن يتجول بين هؤلاء الناس، المزدحمين بكثافة، وكأنهم ديدان في جرح متقيِّح، وهو يستطيع أن يطمئن تماماً إلى أن أحداً لن يتعرف عليه.

لقد بدأ يحب هذه المدينة، بكل بالوعاتها الطافحة، وجيوبها المظلمة، وفيضانها المزبد من البشر.

عندما وصل إلى البيت، كان هناك شخص ينتظر على الدرجات.

«من هذا؟»

«مم». ربما كان الخادم الذي قال السيد إنه سوف يرسله. لا، لقد كان مينون، عامل المكتب. جاء مينون إليه باحترام، «إنك متأخر، أيها الكاتب».

«ما الأمر، يا مينون؟»

«لا شيء».

لاحظ سيتو أن الباب الأمامي كان مفتوحاً.

«هل جاء الصبي الخادم؟»

«ماذا؟» أسرع مينون يمنعه من الدخول. وقال بنعومة، «شش. السيد بالداخل». دُهش سيتو، لماذا كان السيد هنا؟

«هناك شخص معه».

خرج السيد، «من هذا يا مينون؟»

«إنه الكاتب».

لم تكن هناك مقاعد في الشرفة. كل ما كان سيتو يريده هو أن يجلس في أي مكان. ودعاه السيد، «ادخل، يا كاتب».

ابتسم له مينون ابتسامة ذات مغزى. كان السيد عند باب غرفة النوم، لا يرتدي سوى موندو ويدخن سيجارة.

«ادخل على الفور، يا كاتب».

كانت الغرفة مليئة بدخان السجائر، ورائحة الخمر. كانت فتاة صغيرة تستند إلى الحائط. ترتدي تنورة بيضاء بطول ركبتها، وبلوزة خضراء.

جلس السيد على الفراش. «اجلس، يا كاتب».

أخذ سيتو كأس البراندي الذي قدمه له.

«صديقي. إنها فتاة لطيفة، أليست كذلك، يا كاتب؟ ما هو اسمك يا طفلتي؟ لقد نسيته مرة أخرى».

انكمشت الفتاة داخل ظل الساري المعلق على الحبل.

«ساروجيني».

«يا كاتب، هذه الفتاة سوف تبقى هنا ليومين. سيأتي الخادم في صباح الغد ليحضر لها طعاماً. انظري يا فتاة، هذا هو كاتبنا. الآن تعالي واجلسي هنا. يا لك من شيء خجول!»

ضاقت عينا السيد المحمرتان، وقال: «لا أحد سوف يرتاب في شيء هنا. قل للخادم إنها قريبتك».

ظل سيتو صامتاً.

«لماذا تلعبين بنظارتك؟ تعالي، السيد والكاتب سوف يشربان معاً. ما رأيك يا فتاة؟»

وقفت الفتاة صامتة في الظلال، ورأسها منحن.

«يا كاتب، قل لمينون أن يخبرني عندما تأتي السيارة».

تصبب العرق على جبهة سيتو وهو يترك الكأس الفارغ على المنضدة ويخرج. أين مينون؟ هل عليه أن يذهب إلى البوابة ويبحث عنه؟ آه، ها هو ذا، بين شفتيه سيجارة جديدة. وتنبعث من أنفاسه رائحة الكحول. بدا أن مينون يحتفل.

«قابلتها، إذن؟» لم يجب سيتو.

قدم له مينون سيجارة. وتضاءل الطعم الكريه في فمه وهو يدخنها.

«إنك محظوظ، يا كاتب. أنا الذي فكرت في هذا المكان عندما رفضت الذهاب إلى فندق».

جلس على الأرض واستمع إلى مينون يضحك ويثرثر، محاولاً السيطرة على غضبه. إذن كان هذا هو ما أراده السيد، عندما أصبح هذا البيت المحاط بالجدران العالية خالياً، المستأجر الذي لن يثير ريبة أحد. لن يتساءل أحد لماذا سيارة السيد موجودة عند باب الكاتب. وسوف يظل مينون واقفاً ككلب حراسة أمين.

فجأة تساءل سيتو في نفسه: ما الذي يمكن أن تكون السيدة لاليثا سرينيفاسان تفعله الآن؟ وتذكرها تجلس على أريكة في غرفة المعيشة، بوجهها المحمر اللامع، وعينيها الفاتحتين، وشعرها الأشعث. كان بريق ابتسامتها لا يزال حياً داخله.

شعر برأسه خفيفاً. ها أنا ذا، أنتظر في شرفة منزلي حتى يخلو فراشي.

لم يكن يشعر بالتعاسة والغم، فقط تبكيت الذات والاستهزاء بها.

«يا كاتب!»

«اخرس!»

فوجئ مينون. «يا كاتب!»

«لا تتحدث. وإذا فعلت». وكبت نفسه. عندما رأى الخوف ينتشر على وجه مينون، ابتسم لنفسه.

وبدأت موجات من الحرارة تسري في نوبات داخل عروقه.

3

تحولت الصرخة التي سمعها على البعد إلى زئير قطار. نظر من النافذة. نظر خارج النافذة. أجساد مبتورة الأعضاء، لا يزالون أحياء، مبعثرة في سلاسل على الطريق بجوار شريط السكك الحديد. رأى عينين متوهجتين في وجه هزيل لصبي صغير يحاول التخلص من السلسلة التي تخترق رجله. كان الزئير يزداد ويتناقص.

بدا أن شخصاً ما يهزه ليوقظه. قام جالساً. اخترق الضوء المتوهج في المصباح الأصفر المترب في الشرفة عينيه كأنه إبر حادة.

كانت الأشكال المشوهة التي رآها من قبل ما زالت تطارده، سأل: «من؟»

«اذهب للرقاد يا كاتب، سوف آتي في الصباح». كان مينون مغادراً.

رأى سيتو رجلاً عجوزاً ملتفاً على نفسه فوق حصيرة في الشرفة. أين رآه من قبل؟ نعم، لقد كان عند البوابة عندما عاد من الخارج.

«اغلق الباب وعد إلى النوم، يا كاتب. لقد ذهب السيد». تبخر

الغمام الرقيق للنوم لثانية. إذن فهو ليس وحده في البيت. دخل وأغلق نور الشرفة. كان الرواق معتماً. وكانت هناك رقعة صفراء من الضوء في غرفة النوم.

وجد الغرفة في حالة فوضى وكأنها غرفة انتظار الدرجة الثالثة وقد خلت لتوها من المسافرين. قطع من الورق الأصفر الملوث، وكسرات من العظام، وزجاجات الصودا الفارغة ملقاة في كل مكان. والفتاة ترقد على سريره، غارقة في النوم ووجهها إلى الجدار، وكأنها طفلة.

مسح حبات الأرز الصفراء من على مقعد، وجلس. كانت زجاجة مغلفة بسلك فضي جميل الشكل، مليئة إلى ربعها، على الأرض وإلى جوارها لفة من البرياني لم تُفتح. حدق في السائل الأحمر المائل إلى الاصفرار في الزجاجة، وفي صورة التاج والكروم. وصب ملء كوب ماء من القدر الفخاري الموجود على الأرض وشرب ملء فمه.

ماذا كان اسمها؟ لقد أخبرَت السيد عندما سأل،

«ساروجيني»، لم ترد.

«ساروجيني».

«أمم».

«قومي».

تحركت نحو الحائط. رفع صوته: «ساروجيني!»

جلست، وفركت عينيها، كانت ترتدي تنورة داخلية حالت إلى لون أصفر باهت نتيجة تكرار الغسيل، وبلوزة منقطة بالأحمر. بدت متعبة، وخائفة إلى حد ما.

فكر في صورة العاهرة التي يحفظها في خياله، والتي تخيرها من بين

التقولات والشائعات وروايات الكتب - أعين دامعة مخمورة، حضور متعاطف يثير الشعور بالقلق، ظهور عارية.

بدت مألوفة على نحو غامض وهي جالسة على حافة السرير الخفيف، تنظر إلى الأرض. ذكرته بالفتيات الريفيات اللائي عرفهن، واللواتي يسرن في طرقات القرية يحملن سلال القش وزجاجات الزيت.

«هل أكلت؟»

«إمم».

«هل يغلبك النعاس؟»

غطت فمها بيدها لتخفي تثاؤبا، وفركت عينيها بظهر يدها، وهزت رأسها وكأنها تريد أن تقول لا.

«أين تعيشين؟» أعطته اسم قرية تبعد سبعة أميال عن المدينة.

فتح لفة البرياني، ولكنه لم يكن يشعر بجوع كافٍ إلى الطعام.

«هل ذهبت إلى المدرسة؟»

«همم».

«حتى أي سنة؟»

«رسبت في السنة السابعة، ولم أذهب بعدها».

«هل لك عائلة؟»

لم تجب. كرر السؤال. قالت «نعم».

لم يكن من الممكن أن تتخطى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها. ولا يمكن أن يكون قد مر وقت طويل منذ استعملها أول رجل. وتساءل في نفسه من أحضرها إلى هذه المدينة.

كان يشعر بفضول كبير نحو العاهرات. عندما كان طفلاً، كان كثيراً ما يسمع الناس يتحدثون بأصوات خفيضة عن امرأة تعيش في الضفة الشمالية من النهر، تعرف كيف تفتن الرجال. وفي السنة الأخيرة من دراسته الابتدائية، سأل رامانكوتي، ابن فايديان جوفيندان، أن يشير عليها له. واضطر للتخلي عن اثنتين من الحصى الخاص به وصندوق نشوق مكسور الغطاء قبل أن يوافق رامانكوتي. سارا في طرقات، ملؤهما الخوف، وقال رامانكوتي: «انظر!»

رآها بوضوح، جالسة وقد مدت رجليها في شرفة منزلها الصغير، تمشط شعرها. الحلقة الحمراء المعلقة بأنفها تلمع. كان ذلك أحد الأحداث العظيمة في حياته، رؤية هذه المرأة التي تقف عند البوابة كل مساء مثل الياكشي[1] تحت نخيل جوز الهند، تنتظر رجلاً لتوقع به.

لكن أحزنه أن ينظر إلى هذه الطفلة، تلعب بالأساور الكاوتشوك السوداء حول معصميها، نحيفة كعود البابايا. قام ووضع يده على كتفها المبلل بالعرق. حاولت أن تبتسم، ابتسامة لا يمكن أن تكون لعاهرة.

«قومي». شعر، بشكل ما، بالغثيان.

ألقى بالبطانية إلى الأرض وقال: «اذهبي ونامي في مكان ما».

ضايقه السؤال الصامت في عينيها. «أنا لست شخصاً طيباً. اذهبي وارقدي».

فكر في نفسه، لقد رأيت وجهك في كل مكان، في سيارات الأجرة الواقفة خلف الفنادق الكبيرة، وفي أكواخ المسافرين المنعزلة، في

(1) الياكشي: روح أنثوية للأرض تتمثل في صورة امرأة وتعتبر رمزاً للخصوبة. [المترجمة]

الطرقات المظلمة، وفي الأجمات بالقرب من مسار السكك الحديد. لا شيء فيك يدهشني!

شد الملاءة المتغضنة لتسويتها، وقلب المخدة، التي انبعثت منها رائحة الزيت وعطر رخيص، رقد وغطى عينيه بيديه.

«أطفئي النور».

رآها تفرد البطانية في الرواق. وبعد ثوان، سمع خطوات وصليل زجاجات الصودا الفارغة. كانت في الغرفة، هل كانت تحاول سرقة شيء من جيب القميص الذي علقه على الحائط؟ التفت بسرعة لينظر. لم يكن هناك شيء ذو قيمة في الغرفة.

خرجت، وسمع الباب الأمامي يفتح. أصدر المزلاج القديم صريراً برغم حرصها على الهدوء. ربما كانت ذاهبة. وحيث كان مقتنعاً بأنها سرقت شيئاً وتحاول الهروب والرجل العجوز راقد بالخارج يراقب، نهض. كان الساري الحريري الرخيص الخاص بها لا يزال معلقاً على الحبل. تبعها بهدوء وسمع صوتها عند الباب.

«أبي، كيف يمكنك أن تنام هكذا!»

زمجر العجوز ومص شفتيه.

«قم يا أبي، هيا». هزته ليستيقظ.

«ما الأمر؟» كان لا يزال نصف نائم.

«هاك، كُل هذا».

رأى العجوز يفتح لفافة من ورق النبات أعطته إياها، ويأكل بشراهة في الضوء الضعيف لمصباح البلدية خلف الجدار. أصيب بالفواق، وتوقف عن الأكل لدقيقة، وسأل:

«هل أكلت شيئاً؟»

«همم».

«متى قال السيد أننا يمكننا الذهاب؟»

«لم يقل».

«هل تستطيعين أن تحضري لي بعض الماء لأشرب».

«من أين آتي بالماء؟» فجأة أصبح صوتها خشناً. «لا تصنع جلبة. إنه نائم».

عاد سيتو إلى السرير. سمعها تغلق الباب بحرص وتعود إلى الرواق.

شعر بالرغبة في البكاء. لم يعد يفكر في أنها راقدة بالقرب منه، خلف الباب مباشرة، مستعدة لأن تمنحه نفسها. وبدلاً من ذلك، تصور عائلتها، راقدين نائمين على حصيرة ممزقة في كوخ صغير في قريتها. يسأل الصغار أمهم،

«أين أختنا الكبرى يا أمي؟»

«ذهبت مع أبيكم».

«ولماذا لم يأخذنا أبي معه؟»

«اخرسوا وناموا».

تُعَزِّي الأم نفسها وهي تفكر أنها الآن سوف تستطيع على الأقل مواجهة الدائنين.

سوف تعود الفتاة بعد أيام قليلة، وسوف تغسل أمها الساري الحريري ذي التسع روبيات، وتضعه بحرص حيث يمكن الحفاظ عليه. وعندما تأخذ السلسلة الذهبية الملولبة عن رقبة ابنتها وتضعها

في الكوة فوق صورة كريشنا، هل ستسأل: «إلى أين ذهبت؟»

وعندما أخذ العجوز لفة من ورق الصحف كان يضعها في وسطه، وهو يسعل ويخور وهو جالس على الأرض، ويعطي الأوراق المالية لزوجته، هل ستسأل: إلى أين أخذتها؟ من كان ذلك؟

قد ينامون راضين في تلك الليلة، كلهم ملتفون معاً على ثلاثة حصائر، الأب والأم والأطفال السبعة.

سمع سيتو صفير قطار. ولم يعرف على وجه التحديد متى غرق في النوم. استيقظ على صوت سحب الماء من البئر. كانت البطانية مطوية بعناية والحصيرة ملفوفة بجوار حائط الرواق. لم يجد أحداً بالخارج. سار عبر الفناء ووصل إلى الرجل. لم يكن عجوزاً بقدر ما ظنه سيتو، فلا يمكن أن يزيد عن خمسين سنة. انتظر الرجل متشككاً، يهرش الشعيرات الرمادية الخفيفة في لحيته.

«أحضر وعاء من الداخل واشتر شايًا لنا جميعا».

كان يدخن بيدي وهو ينتظر الشاي، الذي أحضره الرجل في زجاجة مغسولة حديثاً.

دخل سيتو لإحضار منشفة. كانت الفتاة في غرفته، ترتدي الساري، وتمشط شعرها أمام المرآة المعلقة على النافذة. زحف النمل على قطع الورق المزيتة الملقاة على الأرض.

«نظفي كل هذا».

وبينما غادر الغرفة، نادت قائلة: «أليس لديك بودرة تلك؟»

نظرت بقلق إلى وجهه الغاضب. سار إلى البئر دون أن يرد عليها. كان يريد أن يذهب من المكان بسرعة. غسل وجهه، وارتدى ثيابه

على عجل ومشط شعره. كانت قد استحمت، وتركت شعرها مفروداً ليجف متدلياً على ملاءة السرير. لم يكن الساري الأحمر الحريري يناسبها. فكر أنها قد تبدو أجمل إذا ارتدت موندو، ووضعت علامة على جبينها من دهان الصندل، وزهرة ماندارام معلقة على أطراف شعرها.

جاء مينون بمجرد مغادرة سيتو.

«لماذا تغادر مبكراً هكذا؟»

«لابد أن أقابل شخصاً ما».

كان مينون يريد أن يقول المزيد، لكنه لم ينتظر ليسمعه.

4

بداية يوم مزعج آخر.

لقد مر وقت كان يشعر فيه بالارتياح عندما يأتي المساء. وبمجرد أن يبلغ مكمنه، كان يشعر بأنه يستطيع الهروب على الأقل لساعات قليلة. ولكنه الآن أصبح غريباً في بيته.

الساعة الحادية عشرة. وقف عند النافذة ينظر إلى أشجار البونسيانا. جاء السيد مع أحد أصدقائه. أخذ سيتو إليه بعض الشيكات التي وقعها دون أن ينظر. فكر سيتو في أن الرجل قد أصبح مستعداً بدرجة كبيرة لمشاركة أكثر تجارب حياته سرية معه في الليلة الماضية.

لم يكن السيد يتحدث إلا عن مسائل المكتب. وكان خوف سيتو من أن يتحدث عن البيت لا أساس له.

بعد أن غادر مينون، عاد سيتو إلى النافذة. لم يكن هناك أحد في

الشرفة، وشعر بالخيبة لعدم التمكن من رؤيتها، وكان على وشك العودة إلى مقعده، عندما سمع هدير السيارة المرسيدس في الرواق. كان الساري بلون الزبد وموشى بإطار أحمر يماثل لون بشرتها تماماً. انزلق طرف الساري فأمسكت به وجذبته فوق كتفها. عاد إلى مقعده بينما دخلت هي إلى البيت.

كانت هناك سيارتان متوقفتان عند بوابته عندما عاد في ذلك المساء. وبدت رقعتا الأرقام مألوفتين، ولكنه لم يتذكر جيداً لمن هما.

لماذا كل هذا الخوف من أن يعود إلى بيته؟ كان العجوز جالساً بالخارج، يربت على لحيته القصيرة، ويبدو عليه الضجر.

«من بالبيت؟»

كانت الإجابة غامضة.

جاء سائق يحمل حقيبة من القماش، تنبعث منها أصوات صلصلة الزجاجات.

«هل لديك بيدي؟»

بصق سيتو في الفناء، وسار إلى الخارج دون أن يجيب. صفق شخص ولوح له عند مضخة البترول. «يا كاتب!»

كان راجيتان واقفاً بجوار سيارة فورد قديمة، يلوح بذراعيه بحماس ويتجادل مع مجموعة من الناس. وبينما اقترب سيتو، قال راجيتان: «انظر هنا، لابد لي أن أذهب مع الكاتب الآن. لا تضيع وقتي يا بلال. هيا، انتهِ من هذا، أسرع».

قال راجيتان له: «استمر في طريقك، سأكون معك بعد قليل»، وبعد دقائق قليلة لحق به راجيتان.

«شكرا لله، انتهى هذا. كنت في هذه المعاملة منذ ثلاثة أيام وجف حلقي. وقد كسبت مئة وخمسين روبية. أدعو الله أن يساعد المشتري!»
ذهبا إلى غرفة راجيتان، وطلبا من أسيد رامان أن يظل ملاحظاً بالخارج.
«لمن السيارة ك ل س 8181، يا راجيتا؟»
«لماذا؟»
«لا شيء، أسأل فقط، هذا كل شيء».
«إنها السيارة التي باعتها تشوييكوتي إلى د.ي.س.ب. وعليها رقعة في الجسم الخارجي لكن المحرك في حالة جيدة». كان راجيتان يعرف كل ما يختص بداخل وخارج كل سيارة في المدينة».
لم يستطع سيتو أن يحتفظ بتركيزه حول ما كان يقوله راجيتان،
«ماذا بك؟»
«لا شيء».
أفرغ الكوب الثاني، وسار إلى النافذة.
«ماذا تريد؟»
لم يجب.
«ما الأمر، يا كاتب؟»
«لا تناديني بالكاتب. هذا هو أهم شيء أريده. ثم.».
«ثم؟» أعطاه راجيتان كوباً ثالثاً. «ماذا أيضاً؟»
«أريد سيارة. أريد أن أقود حتى بيت السيد سرينيفاسان بسيارتي الخاصة».
ضبط سيتو نفسه عندما بدأ راجيتان يضحك. عاد إلى مقعده،

وحاول أن ينظم أفكاره المضطربة.

أقف في الشرفة أعزف على القيثارة مثل نيرون وكل المباني حولي تحترق.

انفجر ضاحكا. ما أريد هو....

غمغم راجيتان بكلمات غير واضحة. وضع رأسه على المنضدة وغرق في النوم. خرج سيتو إلى الشارع المهجور. كانت أضواء الشارع واهنة، وبدأت قطرات مطر خفيفة. سار إلى البيت يجرجر قدمين مزعزعتين. لم تعد السيارتان هناك. استند بيديه على الحائط المغطى بالطحالب، وتقيأ. وما أن بصق ما في بطنه واستعاد تنفسه، سمع شخصاً ينادي:

«سيتو إيتا».

التفت، واكتشف من كان ذلك عندما اقترب منه. أوني!

«سيتو إيتا».

أسند سيتو رأسه على الحائط وتقيأ مرة أخرى. وضع أوني يده على كتفه.

«أوني!» ربت أوني على ظهره، فبكى. وترنح متجهاً إلى البيت وهو مستند إلى أوني، وسأله «لماذا جئت يا أوني، لماذا؟»

«طلبت مني تانجا أوبو أن أحضر».

انهار سيتو في الشرفة. لقد كبر أوني كثيراً. ما أسرع أن يكبر الأطفال!

«وصلت في الخامسة والنصف. أعطوني عنوانك في المكتب. واستطعت أن أجد الطريق إلى هنا».

لم يكن هناك أحد في الشرفة. دفع الباب ففتحه ودخل مترنحاً، كاد

أن يتعثر ويقع على العجوز، الذي غمغم بكلمات غير مفهومة في نومه.

«أوني!» خرج مرة أخرى، ورأى أوني لا يزال واقفاً بالخارج، متردداً.

«ألم يكن بمقدورك أن تكتب بأنك قادم؟ لكان من الممكن أن أستعد لقدومك».

«تانجا أوبو كتبت».

لابد أن رسالتها كانت من بين الرسائل التي ألقى بها في سلة المهملات دون أن يقرأها.

فتح أوني حقيبته وأعطاه رسالة. أخذها دون أن ينظر إليه.

«أليس عندك حصص اليوم؟»

«إنه يوم السبت».

ما الذي يستطيع التحدث حوله؟ الصبي الصغير الذي كان يرتدي البنطلون القصير المبقع بقطرات فاكهة الكاجو أصبح الآن شاباً. انكمش أمام عيني أوني المتفحصتين.

«تعال، دعنا نذهب. لا يمكنك البقاء هنا». سار وهو يستند إلى أوني حتى النزل الواقع على الطريق الرئيسي، بجوار فندق المسلمين. ظل الرجل البدين الجالس على الكاونتر وقد لف رأسه بمنشفة ذات مربعات يحدق في أوني. أراد سيتو أن يقتله، برغم أنه لم يكن يستطيع أن يقف منتصباً.

حملق بنظرة انتقام إلى الرجل وهو يأخذ المفتاح، وكأنه يريد أن يقول: «هيا، إن كنت تريد أن تموت، تعال!»

غرق في النوم في الحال، شاعراً بأنه ينزلق إلى حفرة عميقة مظلمة.

حاول أن يتمسك بجذور الوعي، لكنه ظل يعود منزلقاً إلى هاوية لا قرار لها.

استيقظ والشمس في عينيه. واستغرق دقيقة ليتذكر أين هو. انفصلت الليلة المظلمة عن الحلم.

أين أوني؟ سأل الفتى ذا العينين الرماديتين الذي كان يكنس الشرفة، «هل رأيت الشخص الذي كان في الغرفة معي؟»

«الفتى الأبيض؟ لقد أخذ حقيبته وذهب في الصباح الباكر»، أجاب الخادم وعلى وجهه نظرة خبيثة، شعر سيتو برغبة في أن يلطمه، وشعر بالخجل من جبنه. فلم يستطع أن يتماسك حتى أمام هذا الصبي السخيف.

كان يشعر بصداع عنيف. وجد البيت خالياً والرواق مليئاً بآثار أقدام موحلة، ورسالة تانجاماني ملقاة على الأرض. انحنى والتقطها بيدين مرتعشتين. كانت شظايا من الزجاج متناثرة على الأرض، وكان الهواء محملاً بروائح الخمر. جلس على فرشته، الملوثة بوسخ ليال مظلمة لا تحصى، وبكى.

5

كانت الرسالة مبللة وملطخة وتغيرت أشكال الكلمات بسبب آثار البقع. كانت تسأله، ما الخطأ الذي ارتكبته؟

لقد كان خطئي أنا، يا تانجاماني.

وفجأة، أصبح عقله مليئاً بالأفكار حولها. شعاع قمر فضي يلمع متخللاً ظلال نخيل جوز الهند، عبير زهور خفيف يسبح مع النسيم،

وجه طفولي يومض بين حشد - كل ذلك أعاد إليه ذكرياته عنها. لم يكن يهمه أن الجميع لم يكن من بينهم من يوافق؛ فهذا ما كان ليزيده إلا عناداً. لقد أراد أن يتسلق حتى أعلى قمة في العالم ويصيح: «أنت لي، لا أحد يستطيع أن يبعدني عنك».

في الماضي، كان يشعر بأنه سوف ينفجر من الغضب عندما سمع الناس يتناقشون حول زواجها. متى تحول هذا الغضب إلى دعاء سري؟ دعاء بأن يتم زواجها بسرعة، وأن يكون واقفاً في مكان لا تستطيع أن تراه فيه ويراقبها تدور حول المصابيح الموقدة أثناء الاحتفال. كان يأمل أن يكون قادراً على الذهاب إلى بيتها الجديد كزائر، وقد كبت آلامه داخله.

وجد من الصعب أن يصدق الآن أنه تخيل كل هذا. لقد أمضى أياماً يفكر في رسائل إجابة غير مكتوبة على رسالتها. وأخيراً، قرر أن يغادر المدينة وأن يعود ويطلب منها الصفح.

سوف يكتب، أنا قادم إليك أخيراً. سوف تكتشفين مدى خطئك إذ تعتقدين أن البشر يستطيعون الحياة على أحلامهم. لا تلعنيني عندما تكتشفين ذلك.

يوم الأحد. هو يكره الآحاد، عندما تكون المدينة في هدوء ثعبان يطرح جلده وخموله.

كان يسعده أن يفكر بأنه يستطيع أن يذهب إلى المكتب في اليوم التالي، يتمم الحسابات، ثم يغادر. من الذي عليه أن يودعه؟ راجيتان. والسيد. هل عليه أن يذهب إلى البنجالو ويرى زوجة السيد؟ لم يكتب الحديث باللغة المالايالامية على أية حال. لم تطلبه. قرر أنه سوف

يذهب ويراها مرة أخيرة. حلق ذقنه، واستحمّ وغير ثيابه. كانت الشمس قد غربت. ولكي يعزي نفسه، فكر في الرسالة التي سيكتبها إلى تانجاماني. سوف يكتب الليلة، وهكذا يعوِّض عن ذلك الصمت الطويل.

كانت الدكاكين مغلقة، لكن الطريق الرئيس لا يزال مزدحماً. وقف الباعة المتجولون خارج أبواب الدكاكين المغلقة، يبيعون التقاويم، وزيت الطاووس، وعقاقير «سيدها» الشعبية القديمة. احتشدت جماعات من الناس حول المنجمين المشعوذين مع ببغاواتهم، وقارئي الكف.

كان الشاطئ مهجوراً، ربما لأنه كان مبللاً بعد المطر، وبدا البحر في حالة غضب. سار على الرمل المبلل نحو البحر. سحبت الأمواج الرمال من تحت قدميه، وفكر كم ضحكت تانجاماني في ذلك اليوم، منذ زمن طويل.

بدا أنها تمطر على البحر. كل شيء بدا مبهماً ملتبساً. كانت السماء عند الغرب ملطخة بألوان كثيرة، مثل أرضية مذبح بعد تقديم القرابين، عندما تكون الرسوم المقدسة قد انمحت.

لم يعرف كم قضى من الوقت سائراً إلا عندما أضيئت المصابيح. تفتحت المصابيح الزيتية الصغيرة مثل براعم حمراء صغيرة في الأكواخ المسقوفة بالقش. ووجد طريق عودته إلى درب المشاة، ومر على سيارة السيد المرسيدس بالقرب من حديقة الأطفال. كان الأطفال يقفون بجوار عربة الآيس كريم. بدت الفتاة الكبيرة أكبر سناً وقد ارتدت قميص شالوار (وهو زي فضفاض يتكون من قميص وسروال).

ومض خاتم عند باب السيارة، وأرسل لمعانه وهجاً مردوداً داخله. التفت، وسار كيفما اتفق على شاطئ البحر، وتظاهر بأنه جاء إلى جوار السيارة بالمصادفة، مع إظهار الدهشة والاحترام.

«مرحباً!»

ابتسم. أنهى الأطفال أكل الآيس كريم، وكانوا يعدون الثواني التي تستغرقها مصابيح الزينة لتضاء، واحداً بعد الآخر.

«أليس السيد معكم؟»

«إنه في كورج». فتحت الباب بالكامل، وقالت: «حتى لو كان هنا، هل تظن أنه ربما يتجشم مشقة أن يأخذ عائلته للنزهة على الشاطئ؟ لابد أنك تعرف عاداته الآن، يا كاتب». وضحكت، وكأنها لم تكن تريده أن يشعر بأنها تجد في زوجها عيوباً.

سأل: «ألم تكن هناك أنشطة اليوم؟»

ضحكت مرة أخرى. «لقد ضقت ذرعاً بالخدمة الاجتماعية. إنني أحاول أن أجد طريقة للهروب منها الآن».

«هذه أول مرة أراك على الشاطئ. هل تأتين كثيراً؟»

«إنني أكره كل هذا الازدحام والضوضاء. لكن الأطفال أصروا. كنت في الفراش طوال اليوم أعاني من صداع».

راح الأطفال يجرون بضجيج. صاحت عليهم وأرسلتهم بعيداً. واكتشف مدى جمال اللغة الإنجليزية عندما تتحدث بها.

«أحب أن أقف بسيارتي في مكان ما هنا وأراقب البحر عندما تمطر. ففي هذا الوقت تقل الضوضاء ويصبح الزحام أقل».

فتحت الباب، ونزلت، ووقفت تنظر بصمت إلى السماء الملبدة.

وداعبت الريح شعرها.

«أحب الأماكن الخالية. عندما كنا في جايبور، كنت آخذ السيارة دون أن أخبر أبي، وأزور البحيرات والقلاع المشهورة في المدينة. أحب أن أقضي الوقت بجوار بحيرة أو على ربوة. وحدي وسط الطبيعة البرية. كان أبي يغضب عندما يعرف. لا يفهم أحد أن الوحدة تمنحك سلام العقل». بدت حزينة وتحدثت بسرعة لإخفاء رعشة صوتها. وبدا أنها فقدت كل ثقتها وإيمانها.

«الحياة تعيسة هنا. لا شيء يستحق أن تراه، لا مكان يمكن أن تذهب إليه. وليس هناك من يمكن أن تثق به». كبحت نفسها، ثم استمرت، «لا تأخذ الأمر على محمل الجد. هل تريد أن تسمع شيئاً مضحكاً؟ جاءت فتاة صغيرة إليّ قائلة إنها تكاد تموت جوعاً، ووظفتها في البيت. لم تكن تزيد عن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. وقد طردتها هذا الصباح. أترى؟ لا يمكن أن تثق بأي شخص». وشددت على الكلمة الأخيرة.

ظل ساكناً.

«هل لديك كثير من الأصدقاء؟»

«لا، ليس لي أي أصدقاء».

جلست على الطوار الإسمنتي وتحدثت عن المدن الهندية الشمالية حيث قضت طفولتها، وعن منتجعات قضاء الإجازات والناس.

«لماذا لا تجلس؟»

جلس، على مسافة منها، إلى حد ما.

«هل تعيش وحدك؟»

لم يكن هذا السؤال متوقعا. «نعم».

«كيف تقضي وقتك، إذن، مثلاً في أيام الآحاد مثل هذا اليوم؟»

ابتسم. «أقرأ، أو أذهب لأتمشى».

أخبرته أنها تحب الكتب، وأنها اعتادت أن تقرأ كثيراً عندما كانت في الدير في كانانور، ثم في مدرسة كوين ماري في مدراس. أما الآن فليس لديها وقت لأي شيء.

«بعض الناس ينفرون من القراءة. انظر إلى زوجي. إنه لا يقرأ حتى الصحف. أقنعته بأن يأخذني لمشاهدة فيلم أثناء شهر العسل».

«الناس الذين يعملون في أعمال كبيرة لا يملكون وقتاً لأي شيء».

فجأة جمد وجهها كقطعة حجر. ثم هدأت وقالت:

«نعم، نعم».

لم يلق بالاً إلى ما كانت تقوله. كان جالساً هناك أمام سماء معتمة، وبدت كلماتها تنطلق متحررة من المعاني لتتحول إلى موسيقى. كان زئير المرور أمامهما وصياح الأمواج ينساب مبتعداً في الفراغ.

«أردت أن أسافر إلى الخارج، وسألت أبي أن يجد عملاً في الخدمة الأجنبية، لكنه لم يحبذ الفكرة».

وسألته، «لماذا قبلت هذا العمل؟»

شعر بحيرة وقلق متسائلا في نفسه، هل له أن يخبرها. كان يتجول حول المدينة بحثاً عن عمل حتى وجد عملاً كصراف في أحد الفنادق، حيث التقى بالسيد. وأعد الكاتب له أن يذهب كشاهد في قضية احتيالية. استشهد صاحب الفندق بالكاتب وعاملة التليفون كشاهدة.

«اسمك؟»

«سيتو مادهافان».

«هل أنت متعلم؟»

«حاصل على البكالوريوس».

«مهنتك؟»

«موظف في فندق».

«أين كنت في يوم ستة عشر عند الغسق؟»

«في الغرفة المجاورة لطاولة الاستقبال».

ورفضت القضية. ولكن السيد كان معجباً بالشاهد، الذي وصف ما رآه من خلال النافذة بالضبط كما وجهه المحامي. كان قد رأى المتهم يحاول أن يمنع السيد من الدخول في السيارة. وقد سمعه يستخدم كلمات نابية. وخشية أن يحاول المتهم مهاجمة السيد سرينيفاسان، اندفع هو وعاملة التليفون.

عرض عليه السيد خمسين روبية. وبدلاً من قبولها، قال بنعومة: «أريد عملاً».

وفي محاولة لطرد اللحظات التي قضاها على منصة الشهود من عقله، قال: «سوف أغادر غداً».

«أين ستذهب؟»

«إلى مكان ما. أردت أن آتي وأقول لك قبل أن أرحل. أريد أن أجد عملاً آخر، مدينة أخرى».

أطلق الأولاد نفير السيارة. نهضت. «لقد مر الوقت سريعاً».

دخلت إلى السيارة. «من أي طريق ستذهب؟»

«لا مكان على وجه الخصوص. في العادة أسير بلا هدف فترة طويلة

ثم أعود إلى البيت».

«يا ليتني أستطيع التجول بلا هدف مثلك. تعال، سأوصلك».

«لا. أنا.....».

«أوه، تعال».

كان الصبي الصغير جالساً في الأمام والفتاتان في الخلف. تردد حتى عندما أدارت المحرك.

«اركب. افتح الباب يا صغيري».

الصبي، الذي كان يلعب بالكلب البلاستيك المعلق فوق واجهة السيارة، فتح الباب دون التفات وتحرك مقترباً من أمه.

خفضت الفتاتان صوتيهما وتحول حديثهما همساً، أوقفت السيارة عند بوابة منزلها، وأطلقت النفير. خرج الطباخ العجوز. ونزلت الفتاتان وصفقتا البابين.

«هيا انزل، يا صغيري». خرج سيتو أولاً، وأخذ بيد الطفل. لكنه دفع يده متحرراً منه وجرى على الممر الإسمنتي إلى البيت.

سألت الطاهي: «هل غادرت؟»

«لا، قالت إنها سوف تنتظر حتى يعود السيد».

ارتعد صوتها غضباً. «ألم أقل لك أن تلقي بها في الخارج؟»

وقف العجوز بهدوء، وعيناه موجهتان للأرض. غمغمت بشيء لنفسها.

«اركب».

«سوف أسير إلى البيت».

«اركب. أريد أن أرى ذلك المنزل. الذي قيل لي إنه ملكي. فقد

أعيش هناك ذات يوم. أعطني المفتاح عندما ترحل. أريد أن أصلحه وأجعله مكاناً مريحا».

بدأ يفتح الباب الخلفي، لكنها مدت يدها وفتحت الباب الأمامي. أخذت الطريق المتاخم للشاطئ، وأسرعت، وهي تضحك. «دعني أقدم لك جولة في البنز، يا كاتب. هذا حفل وداعك. سوف تغادر غداً، أليس كذلك؟ سوف أودعك».

تقلص في مقعده، شاعراً بأنه ليس من حقه أن يكون هناك. وعندما وصلا إلى المدينة، وجدا الشوارع التي كانت مزدحمة في المساء قد أصبحت مهجورة. وبطرف عينه، راقب يديها الرقيقتين تتحركان بسلاسة على عجلة القيادة.

خرجا من الطريق الرئيسي. سألته: «إذن، كيف كانت آخر حفلة لك؟»

«أية حفلة؟»

«حفلتك. لماذا تدعو السيد وحده إلى حفلاتك؟»

شعر بصدمة مفاجئة.

«من كان هناك؟»

«لا أعرف».

«أنت الداعي، لابد أنك تعرف». وأضافت: «إنني أصل إلى معرفة كل شيء، حتى لو كان ذلك فيما بعد. كل شيء. ليس هناك ما لا أعرفه». بدت الشوارع مظلمة بشكل غير معتاد. ربما انطفأت بعض مصابيح البلدية. وجهها إلى الطريق. كان البيت في ظلام تام. أشار إليه. وبدا أنها لم تسمع، كانت تبدو مستغرقة تماماً في نقطة غير مرئية

على عجلة القيادة.

«هل تريدين رؤية البيت؟» بدأ قلبه يدق بسرعة كبيرة عندما اكتشف أنه سيكون مضيفاً الآن، ليس الشخص الذي ظل يراقب من الشرفة الخارجية. هدأ، ووجد الشجاعة بشكل ما لكي يدور حول السيارة، ويفتح بابها ويسأل، بمزيج من الخوف والقسوة:

«ألن تنزلي؟»

رأى وجهها المتعب للحظة في ضوء السيارة وهي تفتح الباب. وشعر بأنه يترنح وهما يسيران على الأوراق الميتة المكومة في الفناء.

«بحرص، هنا توجد درجة». ومد لها يده. اندفع الدم إلى وجهه عندما أمسك بيدها الناعمة بين أصابعه المرتعشة. وترك يدها في الشرفة. استغرق الباب وقتاً أطول ليفتح. أدار مفتاح الضوء، وقال بنوع من الترحيب: «تفضلي بالدخول، ألا تريدين أن تري؟»

أخذها لترى المطبخ والرواق. ثم فتح باب غرفة النوم. «هذه هي الغرفة الوحيدة التي أستخدمها».

بدأت تستعرض الكتب في خزانة الحائط ذات الباب المكسور. ومن أجل أن يقول شيئاً، سألها: «متى سوف تهدمين هذا المكان؟

تجاهلت سؤاله: «فقدت الكثير من كتبي، لكن لا يزال عندي عدد لا بأس به».

«يسعدني أن أراها».

«متى سترحل؟»

«لم أقرر بعد. غداً، أو بعد غد».

وقف بهدوء كحارس يحمي بيوت النساء بينها راحت تتفحص

الحجرة. فجأة، قالت بالإنجليزية: «أستطيع قراءة أفكارك».

تظاهر بأنه ليست لديه أية أفكار على الإطلاق.

«لا تحكم عليّ، لا تظن أنني مدللة وشريرة. الأمر هو أنني أشعر بالقلق. كان اليوم سيئاً جداً بالنسبة لي!»

أمسك بيدها ليريها الطريق عبر الفناء المظلم. وعند البوابة، فقد تحكمه فجأة، وبدأ يتحدث بلغة غير مفهومة بالنسبة له:

كان هذا حلماً، قامت فيه الأميرة بتكريم كوخ الراعي. أنا لا أحد، ولكني اعتدت أن أقف في النافذة وأنظر بانتظار أن أراك.

حاولت أن تسحب يديها، لكنه أمسك بهما بقوة.

«إنني أعبدك!» كان دائماً يشعر بالدهشة أمام سهولة تدفق الكلمات إلى ذهنه عندما يحتاجها.

وعندما أصبحت داخل السيارة، قال لها: «لن أرحل».

«ماذا؟»

«أريد أن أستمر في رؤيتك. حتى الآن، لم يكن لدي ما أحلم به. والآن أستطيع الانتظار أن تأتي الأميرة مرة أخرى إلى مسكن الراعي».

ابتعد هدير السيارة. بعد دقائق، اكتشف أنه واقف وحده عند البوابة.

عندما تمدد لينام، أدرك أن بعض العبير لا يزال باقياً في أطراف أصابعه. تفتح الليل حوله كزهرة من خلال ذكرى هذا العبير، وشعر أن العالم أشبه بزهرة لوتس سوداء. وضع رأسه على إحدى بتلاتها، واستمع إلى موسيقى الأمواج، واستغرق في النوم.

6

سأل السائق أن يدور إلى المبنى الصغير لفندق غرفة واحدة للمسافرين على أطراف المدينة. كان السائق متلهفاً لأن يخبره بحقيقة أنه كان في هذا المكان مرات عديدة مع السيد، فقال له:

«هناك بيت السائح على الناحية الأخرى، وهو مناسب أكثر».

تظاهر بأنه لم يسمع. كان الظلام يغلف المبنى. وبدا وكأنه لم يسكنه أحد في الفترة الأخيرة، حيث كان الفناء مغطى بأوراق أشجار ميتة.

أطلق السائق نفير السيارة مرتين أو ثلاثاً قبل أن يظهر الحارس من الظلام. انتظر حتى أشعل الحارس النور وفتح الباب الأمامي قبل أن ينزل من السيارة الجيب.

كانت الأرضية المبلطة على نحو خشن مشققة، والخيزران في المقاعد في حالة سيئة حتى أصبح من غير الممكن استخدامها. وكانت المرآة مغيمة. كان الحارس العجوز القادم من مدينة كورج يرتدي ثوباً مهلهلاً وقد ربط قطعة قماش حول رأسه. فتح الخزانة، وأخرج ملاءة وفرشها على الفرشة البالية. ثم التقط إبريق الماء الفخاري، وفتح باب الحمام بصعوبة، وخرج.

مد رجليه على المنضدة، وأشعل سيجارة. دخل السائق.

«بيت السائح أكثر راحة. لا أحد يبقى هنا عادة وحده». ابتسم ابتسامة ذات مغزى، ليؤكد كلمة «وحده».

لم يحاول سيتو أن يخفي استياءه. بدأ الناس يتحدثون عنه في ذلك الوقت باحترام كبير. كان مينون هو الأول، ثم الموظفون عندما يذهب إلى الساحة أو إلى الطاحونة أو إلى إدارة المحاسبة. هذا السائق هو

الوحيد الذي لم يسر في نفس الاتجاه. لاحظ سيتو ذلك طوال الطريق إلى هنا. حتى عندما كان يجيبه بمقاطع أحادية، حاول أن يكون عادياً. وضايق سيتو كثيراً عندما التقط علبة ثقاب سيتو من المقعد ليشعل سيجارته البيدي. وها هو الآن هنا، يتجول متغطرساً في أنحاء الغرفة.

راقب حلقات الدخان من سيجارته تتجمد في الهواء البارد، وقال دون أن يحول وجهه: «يا سائق، أحضر صندوقي من السيارة». واستمتع برؤية وجه الرجل يعبس أمام لهجته السلطوية. هل سيرد؟ هيا، إن كنت تجرؤ.

أحضر الرجل الصندوق وألقاه بعنف على المنضدة. فكر سيتو بازدراء، انتظر وسوف ترى، إنها مجرد البداية وسوف تعرفون كيف سيكون الحال!

في الفترة الأخيرة، كان هناك الكثير من التغيرات في المكتب، وفي الطاحونة، وفي الساحة. أكان ذلك بعد أن بدأ السيد يرسله إلى المزادات، أم قبل ذلك؟ كانت عينا مينون الحادتان تريان كل شيء. من المؤكد أنه كان يعرف أن سيتو دائماً يرى زوجة السيد في البيت. كان فخوراً بنفسه في المرة الأولى التي شعر فيها برائحة الفضيحة. كان يتوق للحظة التي تصل فيها الأخبار إلى أذني السيد بمزيج من الخوف والبهجة.

عندما اندفع مينون إلى بيته ذات يوم، كان سيتو مستعداً لأسوأ الأمور.

«السيد في حالة سيئة. إنه في المستشفى».

كان فناء المستشفى مليئاً بالسيارات. وقع السيد في الحمام أثناء

الليل. وأسرع الخدم عندما سمعوا زوجته تصرخ ووجدوه فاقد الوعي. قال شخص ما: «إنها جلطة. وهو مشلول». عندما عاد إلى البيت بعد شهر، كان أحد جانبي جسده لا نفع منه.

دخل الحارس بعد أن ملأ الوعاء في الحمام بالماء، وسأل بلغة مالايالامية مكسرة ماذا يريد سيتو أن يأكل. ونادى السائق، «خذ الحارس إلى المدينة». وأخبر الرجل العجوز أن يحضر له شيئاً خفيفاً، ربما أومليت مع خبز، وأعطى السائق خمس روبيات.

نهض وفتح النافذة بعد أن ذهبا. كانت قطع ملتفة من الضباب تترامى فوق قمم الأشجار كالذكريات. وشعر بأن الجو أكثر برودة. جذب كُمَّي قميصه وأشعل سيجارة أخرى.

عندما عادا، طلب من الحارس أن يعطي السائق شيئاً ينام عليه.

«نعم، أيها السيد».

رأى السائق ينظر بحسد إلى السرير الخفيف الثاني الموجود في الغرفة.

ما كاد يدخل في النوم تحت تلك البطانية القديمة ذات الرائحة الكريهة التي أحضرها له الحارس، حتى سمع صوت سيارة تقترب بالخارج.

كانت هناك أصوات في الشرفة، ثم خبطة. قام وفتح الباب.

«مرحباً!»

كاروناكاران من أولور، محمد سيد من كوتشي، ورجل ثالث قدمه كاروناكاران. «إينجار، من أكبر المصدرين في مدراس».

«كيف حال سرينيفاسان؟»

«أفضل». فكر سيتو في المنظر الذي شهده عندما ذهب لأخذ إجازة من السيد. كان يجاهد لاتخاذ طريقه إلى الحمام باستخدام يده اليسرى وقدمه اليسرى فقط، ممسكاً بحبل لدعمه. طرد الخادم الذي جاء ليساعده.

«اخرج يا بن الكلب».

ضاعف المرض من نظرة القسوة في عيني السيد، ومن حدة لسانه. كان يقضي أيامه على فرشة في ركن من غرفة الجلوس، مبقياً الحمائم على مقربة منه، كما نصح طبيب الأيورفيدا[1]. وفي المساء ينتقل إلى غرفة النوم بمساعدة الخدم.

«لماذا اخترت هذا المكان؟»

«لأنه هادئ جداً».

كانت عينا كاروناكاران محمرتين وتنبعث من أنفاسه رائحة الويسكي.

وأثناء تحركهم بالسيارة، راح كل منهم يلقي ملاحظاته حول جمال نساء كورج وطريقة وضعهن أطراف الساري على صدورهن. ودخل في مناقشاتهم حول إنجازاتهم في المزادات الأخيرة، وقال لنفسه، أنا أنتمي لهؤلاء الناس الآن، الذين يتعاملون في المزادات التي تجري بمئات الآلاف من الروبيات.

أعادوه بعد منتصف الليل. لم يكن في عقله سوى فكرة واحدة، وهي أنه إن استطاع أن يحجم عن المزايدة في المزاد في اليوم التالي،

(1) **الأيورفيدا** (وتعني: «علم الحياة») هي منظومة من تعاليم الطب التقليدي التي نشأت في شبه القارة الهندية وانتشرت إلى مناطق أخرى من العالم كشكل من أشكال الطب البديل. [المترجمة]

فسوف يعطيه أينجار خمسة آلاف روبية.

خمسة آلاف روبية!

في العاشرة من صباح اليوم التالي، جاء إليه كارونكاران أمام النزل.

«أنت لم تنس ما قلناه لك في الليلة الماضية، أليس كذلك؟»

«أنا لا أنسى بهذه السهولة».

اقتسموا النقود في بيت السائح. قال سيد: «هذا لم ينته، لا يمكن أن نختم الأمر بدون أن نتجرع زجاجة إينجار بالمثل».

نهض سيتو، راغباً في الرحيل في الحال، لكنهم حثوه على البقاء، وأشاروا إلى الاحتمالات المنتظرة أثناء الليل. استطاع أن ينتشل نفسه. كان المظروف الذي يحتوي الخمسة آلاف روبية راقداً داخل صدريته، بالقرب من جلده.

غادر، والسيارة تهدر في نزولها من التل. لم تكن سيارة الجيب سريعة بما يكفي. كان يشتاق للعودة إلى المدينة. لقد بدأ يحب الدقائق التي يقضيها عند نافذة بيته، ينظر إلى البوابة من خلال شق في الستائر. عندما يفتح باب السيارة، سوف تُفتح أبواب قلبه، ثم تتساقط اللحظات بنعومة مثل بتلات زهرة ذابلة أمام حرارة دقات حذائها عالي الكعبين على الدرجات الإسمنتية. وعندما يجلس بين يديها، مغلفاً بالعبق واللون، يمكن أن يشعر بقوة تدفق شيطان الحب في عروقه.

أصبح شديد التعلق بالبيت الصغير على أطراف المدينة. الآن توجد على النوافذ ستائر بلون أخضر باهت، وستارة مطبوعة بالزهور عند الباب، وملاءات ذات إطار أزرق على السرير. وكان شيش النافذة يغرق الغرفة برقة في ظلام ناعم بارد.

وكان هناك جهاز تسجيل يستطيع تشغيله وهو في الفراش.

«سوف أعطيك شيئاً، ليكون رفيقاً لك». وقفت في ثوبها الداخلي الأصفر الساتان، لتريه كيف يقوم بتشغيله. جاء عامل من الساحة، فخرج ليتحدث إليه. قال الرجل ملاحظاً:

«رأيت سيارة السيد بالخارج».

«نعم، أنا أحضرتها». وعبس في وجه الرجل، وكأنما ليسأله، هل تحتاج مزيداً من التفسير؟ وغادر الرجل بسرعة.

استمع لها كتلميذ مطيع وهي تصف مغني البوب،

«يغني بات بوون عن جنة الحمقى؛ أما توني برنت، الذي غنى «قمر معتم» فهو هندي».

«يا عزيزي، لا تكن رسمياً هكذا، نادني باسمي».

«لا أستطيع. أشعر بغرابة ذلك».

«لابد، نادني، يا بنت. أنا أحب ذلك».

ضحك.

«يا عزيزي، ألست فتاي الحبيب».

نسجت الخيوط الحريرية للموسيقى عالماً سحرياً حولهما. حتى انتهى الأمر بتركه مع عبير شعرها على الوسادة وملاءة السرير في حالة فوضى. سوف يشعر بألم مبهج عندما يصبح وحده ويبدأ في انتظار اللحظة التي سوف يسمع فيها خطوات أقدامها مرة أخرى على الممر الإسمنتي.

كان اليوم الثالث بعد عودته من كورج يوم أحد. استيقظ يفكر، من المؤكد أن تأتي اليوم. عاد من عمله في الظهر. كان الخادم قد قام

بتنظيف البيت، وملأ الماء في الحمامات، ووضع الطعام في ناقلة الطعام، والقهوة في الزمزمية.

قال: «اذهب الآن. عُد في الساعة الثامنة». كان السيد قد درب الصبي على الطاعة دون أن يسأل.

انتظر عند النافذة، ناظراً إلى البوابة، رأى شخصاً يبدو مثل المحاسب، باتشوكوتي. واكتشف فجأة أنه باراميسوارا إيتان.

نظف باراميسورا إيتان أنفه بضوضاء، ودخل. حاول سيتو أن يبتسم.

«هل جئت الآن فقط؟»

«جئت بالأمس. إنها في حالة سيئة، ودخلت المستشفى». كان يتحدث عن زوجته.

«ماذا بها؟»

«هي مريضة منذ شهرين حتى الآن. تتقيأ طوال الوقت. ربما تحتاج عملية».

دفع سيتو مقعداً نحوه. فتح باراميسوارا إيتان الأزرار في قميصه الخشن المخصص للعمل في الحقل، ونفخ صدره.

«هل تناولت الغداء؟»

«نعم. ماذا تفعل للحفاظ على انتظام طعامك هنا؟»

«هناك صبي يحضر لي الطعام من الفندق».

سأل أسئلة كثيرة لا لزوم لها عن مرض زوجة أخيه. هل كان عندها حمى؟ أو أنه توعك معوي؟ لم يكن يريد أن يترك لباراميسوارا إيتان فرصة لأن يتكلم. هل المستشفى مريحة؟ كانت حالياً في جناح عام.

ولا يمكن أن يسمحوا بوجود مرافق لها سوى في جناح خاص. بدأ باراميسوارا إيتان يتحدث عن معدلات أسعار الأجنحة الخاصة. قال: «لا تقلق، سوف أتولى كل هذا».

جلس ليأكل، لكنه شعر بانعدام شهيته. شعر بأنه قلق ومضطرب. سرعان ما سوف يسأل باراميسوارا إيتان عن السبب الذي كان يمنعه دائماً من العودة إلى البيت برغم أنه يعيش على بعد ستين ميلا فقط. تظاهر بأنه يأكل، وكدس الأطباق، ثم خرج. كان باراميسوارا إيتان ينظر في صحيفة قديمة.

«ألم يكتب أبي لك؟»

«أنا كتبت بالأمس. وأرسلت نقودا»، كان دائماً يكتب نفس الكلمات مع حوالة النقود «سأرسل رسالة». لكنه لم يكتب أبداً. وما أن بدأ يكسب نقوداً، بدأ يرسل حوالات بالنقود، بانتظام كمن يدفع أقساطاً لتاجر.

«أمي تنتظرك كل سبت. وكنت أنتظرك أيضاً، مرتين أو ثلاثة في أيام الآحاد».

«كنت أريد أن آتي، لكن السيد وقع مريضاً. وأصبحت مشغولاً للغاية. المسؤوليات كبيرة جداً، حتى في أيام الآحاد».

أصبح مدركاً أنه يتحدث بكلمات غير مترابطة، وحاول أن يخفي اضطرابه بإشعال سيجارة. وبينما ينفخ الدخان، اكتشف أن هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها أمام باراميسوارا إيتان، وأنه تجرأ أيضاً على إشعال سيجارة. قدم علبة السجائر إلى باراميسوارا إيتان، الذي لم يلتفت إليها.

«إنه وقت سيّئ بالنسبة لنا. أمي أيضاً تعاني من المرض. إنها دائماً في الفراش».

«ألا تستطيع أن تأخذها إلى طبيب؟»

«أخذناها إلى موسى. وجاء دكتور لاسار إلى البيت مرة أو اثنتين».

خلع باراميسوارا إيتان نظارته ومسح زجاجها. أخرج نوعاً رخيصاً من السجائر من جيبه، كسر واحدة نصفين وأشعله. شعر سيتو بشفقة مؤلمة. فجأة أصبح أخوه متقدماً في السن عبر هذه السنوات القليلة الأخيرة. كان الشعر على أذنيه أشيب. وظهرت بعض القرح المثيرة للغثيان على رقع في رأسه سقط الشعر عنها.

شعر بأن الصمت زاد عن حده، فسأل: «أي جناح نزلت فيه زوجة أخي؟»

«السادس عشر. إنه بالطابق العلوي، عند نهاية الممر».

شعر سيتو بالتوتر. ربما تأتي السيارة في أية لحظة الآن، كانت هناك مقابلة للجنة المستشفى العقلي في الساعة الثانية، وقالت إنها سوف تمر في طريق عودتها.

«أين قضيت الليلة الماضية، يا أخي؟»

«أخذت غرفة في فندق بالقرب من المستشفى. فكرت أنه سيكون من الصعب أن أعرف مكانك أثناء الليل».

لو لم يغادر باراميسوارا إيتان الآن، فسوف تفوته رؤيتها. دخل، غير ثيابه، وخرج وقال: «لابد أن أقابل مشترياً في المخزن».

قام أخوه.

«يمكنك أن تستريح هنا، سأعود سريعاً».

أجاب باراميسوارا إيتان بالإجابة التي كان يأمل أن تكون، «لا، سوف أغادر الآن».

«سوف آتي إلى المستشفى بمجرد أن أنتهي من العمل». أغلق الباب. وعند مفترق الطرق، قال، «سر مباشرة أمامك، وسوف تجد الحافلة رقم تسعة. سوف تنزلك مباشرة أمام المستشفى».

وزحف خلسة إلى البيت كاللص. وبينما يفتح الباب، سمع السيارة تقف خارج البوابة.

7

ذكرته الرائحة غير المريحة للمستشفى بالجراح النازفة.

رقدت زوجة أخيه على سرير حديد خفيف تحت بطانية حمراء تغطيها حتى وسطها. وبدا وجهها شاحباً. أضاءت عيناها المتعبتان عند رؤيته. كان يتوقع أن تحمل له الكثير من اللوم، لكنها بدت متألمة أكثر منها غاضبة. «كنت أنتظرك منذ الأمس».

«لم أعرف إلا عندما جاء باراميسوارا إيتان». تناول اللوحة الخاصة بالمريض المعلقة عند نهاية السرير، وتفحصها بنظرة خبير. «سوف نجعلهم ينقلونك إلى جناح خاص. هذا مناسب أكثر، يمكن أن آتي وأراك متى وجدت فراغاً. لا تقلقي، سوف نرتب كل شيء».

«تصلني أخبارك. إذن فقد صادفت حظاً طيباً في طريقك».

ابتسم، «أوه، حسناً».

«أنا لست بحاجة لنقودك. ولكن ألا تستطيع أن تكتب ولو مرة كل حين؟»

لزم الصمت. بدا أن زمنا طويلاً للغاية قد انقضى منذ كان يتجول على جانب الربوة ليجد لها ثمار المانجو الصغيرة غير الناضجة وفاكهة المبوزيا.

سألته أن يجلس عند نهاية السرير. «أريد أن أبقى معك يوماً بعد أن أشفى. لدي الكثير مما أريد أن أرويه لك».

«سوف تتحسنين سريعاً. لابد من بقائك معي عدة أيام قبل عودتك».

«لا يقلقني سوى التفكير في الأطفال».

احتشد الزوار حول الأسِرّة، وأصبح الجناح في حالة ضوضاء شديدة.

قالت: «لقد مر حوالي شهر ونصف منذ ذهبت إلى بيتك. لم أذهب منذ مرضت الأم».

بدأت تتحدث عن القرية، وفجأة شعر بأن مسافة أبعدته عن الضوضاء في الجناح. أخبرته زوجة أخيه الأكبر عن اللص الذي ذهب ليسرق ووقع في البئر. وعندما ضحكت، ضاقت عيناها.

«هل عرفت أن الخال مادهافا استقر في القرية الآن؟»

«لا».

«اشترى دكان تموين يوسف. ويقولون إنه في حالة رواج».

«سمعت عن ذلك».

«هل تعرف أن ممتلكات فاداكيتو تم تقسيمها؟»

لم يكن يعرف ذلك. ولا كان يعرف شيئاً عن دكان الخال مادهافا. ولكنه قال، «ذكر شخص ما شيئاً عن ذلك مؤخراً».

«الصغيرة، كارتو، تزوجت. زوجها يعمل في ورشة في سالم أو طانجور أو مكان كهذا. وهو من أوماثور».

وسوميترا؟ أخذ يقاوم الرغبة في السؤال عن سوميترا.

قالت زوجة أخيه إن سوميترا وديفو أخذت كل منهما نصيبها، وافترقتا. صارت سوميترا تعيش وحدها في بيت بنته على التل. أما ديفو فبقيت في فاداكيتو. أحياناً يزورها الخال مادهافا، ويلتقي بالأطفال، ويعطي ديفو بعض النقود.

عندما بدأت زوجة أخيه تصف وتحكي، وجد سيتو من السهل أن يتخيل المشاجرة العائلية التي حدثت في أحد أيام مهرجان شيفا راتري (أو مهرجان زواج الإله شيفا).

فتح الخال مادهافا كشكاً للشاي في اليوم الذي يحتفل فيه القرويون بشيفا راتري. كان مشروعاً مربحاً. وعيّن أوني نامبوديري طباخاً. لطم الخال مادهافا أوني نامبوديري أمام الجميع لأن عجينة الفطائر لم تكن مطحونة جيداً. كانت ديفو والأطفال في الدكان في ذلك الوقت. تدخلت ديفو وضربها الخال مادهافا أيضاً. وفي تلك الليلة، سمع الجميع صرخات ديفو من فاداكيتو. وانتقل الخال مادهافا من البيت.

لم يعد برغم أن الأم بذلت كل ما تستطيع لإقناعه. وتحدث كاندان كولانجارا مينون معه نيابة عن ديفو، وبعد ذلك كان يذهب أحياناً أثناء النهار، لرؤية الأطفال.

«وسوميترا أيضاً مريضة. مصابة بالهستريا».

يقول الناس إن ذلك لأنها بنت بيتها بالقرب من مزار براهما راكشاسو. في أحد الأيام، بعد أن استحمت في النهر، جرت عبر

الحقول وهي مبللة تقطر منها المياه. تصرخ. كانت تلك هي البداية. عندما أمسكوها أخيراً، عند أطراف الحقل، كانت غائبة عن الوعي.

«من يسكن معها؟»

«وهل تعرف أحداً؟»

وصل باراميسوارا إيتان ومعه لبن وخبز وبرتقال، ونهر زوجته: «ألا تمسكين لسانك أبداً حتى وأنت مريضة؟»

رن الجرس، وكان على الزوار أن يرحلوا. قال باراميسوارا إيتان إنه سوف يخرج معه.

«لماذا لا تترك غرفة الفندق وتأتي لتقيم معي».

«إنها فقط بروبيتين ونصف، وهي قريبة جداً. سوف أبقى هناك».

ودعاه أخوه الأكبر لغرفته في الفندق الصغير.

«تعال. هل أنت في عجلة؟»

«لا، لا».

خلع أخوه قميصه وجلس على السرير. أصبح يبدو في حالة إجهاد أكثر حتى من أبيه.

«كم من الوقت لديك؟»

«أسبوعان. إذا طلبت مد الإجازة، سيُخصم من راتبي».

بدا أن أخاه على وشك أن يقول شيئاً. أشعل سيجارة أخرى، في محاولة لإخفاء قلقه.

«كنت أريد أن أكتب لك، ولكن ما الفائدة. فلن ترد أبداً».

شعر سيتو بأنه يتضاءل. لم يكن يستطيع تقديم أي تبرير. ابتلع ريقه، وجلس صامتاً.

«ماذا قررت بخصوص فتاة بوشبوت؟»

«سوف أفكر في الأمر فيما بعد».

«ليس هناك من يعترض. إذا كان أحد قبل ذلك قد قال ما يسيئك، فلا تأخذه على محمل الجد».

«سنرى».

«متى؟»

تجنب تقديم إجابة مباشرة، وتحدث بدلاً من ذلك عن مدى انشغاله. كان على وشك أن يبدأ عملاً وبحاجة إلى رأس المال. كان عقله مليئاً بالخطط.

استمر أخوه ينظر إليه نظرة خالية من التعبير.

«سوف أزور البلدة قريبا».

«مم». لم يكن يبدو أن إيتان يصدقه.

«هاك، احتفظ بهذا معك. من الأفضل أن تنقلها إلى الجناح الخاص غداً».

«لا. لا بأس بذلك. لدي ما يكفي الآن».

لم يكن متأكداً كيف يقنع أخاه بأخذ النقود.

«حقاً، لا أحتاجها».

طوى الورقة، وأعادها إلى جيبه.

سار في الشوارع المزدحمة، وفكر في سوميترا، وحدها في كوخها بجوار مزار براهما راكشاسو. بهتت الضوضاء والازدحام حوله ورأى أشجار المبوزيا والتلال في ذلك العالم المفقود. فكر في الصبي الصغير الذي يرتدي الشورت البالي المربوط حول وسطه بخيط، يذرع جوانب

التل بحثا عن ثمرة ممبوزيا سليمة. وتذكر كم كان يشعر بالإثارة عندما يجد واحدة أخيراً ويهديها إلى زوجة أخيه الأكبر، ويراقب أسنانها البيضاء الجميلة عندما تصطبغ بلون الثمرة البنفسجي.

وعندما شعر بالتعب، وتباطأت خطواته، أحاطت به آلاف الأصوات من المدينة الصارخة مرة أخرى.

8

جفَّ النهر. سار على القاع المتشقق الظمآن، تاركاً السنوات الضائعة خلفه، وصعد إلى الطريق.

بنيت درجات حجرية عند مصاطب الاستحمام. وأصبحت الظلة المسقوفة بالقش خلف النهر مسجداً صغيراً مبنياً بالآجر.

كان الشباب الصغار في سن السادسة عشرة من العمر يحيطونه بنظرات الإعجاب حين يمرون.

هناك الآن مدرسة عليا بالقرب من القرية. في الأيام السابقة، كان الأطفال يتوقفون عن الذهاب إلى المدرسة بعد الصف الخامس، ويساعدون في الحقول أو في الدكاكين. من المؤكد أن الجميع الآن يرسلون أطفالهم إلى المدرسة العليا.

شعر بالازدراء، وبعض الحزن، وهو ينظر إلى الشوارب الرفيعة كأقلام الرصاص خلف دخان البيدي والياقات المقلوبة إلى الأعلى. وتخيل هؤلاء الأمراء القرويين ينطلقون بشهاداتهم بحثاً عن عمل لأكل العيش.

بدا أن ذلك كان منذ زمن بعيد الآن، عندما كان يرى المدينة أمامه

سراً عظيماً، بما تضمه من آلاف الأبواب التي تنفتح بطريقة سحرية. انتظر، يتصبب عرقا ويلتقط أنفاسه، أمام العديد من البوابات ذات الأقواس، يراقب الآخرين يدخلون ويخرجون باحتقار وحسد.

أول شيء لفت نظره وهو سائر في الطريق هو التمثال القبيح على البيت الجديد المبني بالآجر بجوار النهر. بيت من هذا؟ صيادو السمك من طائفة المابيلا. إلى جوار كوخه كانت شجرة تين بنغالي مزدوجة تنشر ظلها على الطريق طوال اليوم. قُطعت. كانت الثيران عندما تتحرر من نيرها لتتمتع ببعض الراحة معتادة على الرقاد في ظلها، تجتر طعامها، وأجراسها تصدر رنيناً رقيقاً.

كان الطريق عبر الحقول الذي يقود إلى بيت كاندان كولانجارا، والذي كان واسعاً بما يكفي ليتيح لعربة ثور أن تمر، قد أصبح الآن أكثر ضيقاً بدرجة كبيرة؛ اقتطعت منه أجزاء من الجانبين.

لم يقرأ اللافتة الجديدة على جانب الطريق. امتدت الحقول التي حصدت محاصيلها مشققة وجافة، بانتظار أمطار شهر ميدام (إبريل- مايو).

بدأت دقات قلبه تتسارع عندما وصل إلى بوابة فاداكيتو. لم يكن أحد بالخارج. هل يلمحه أحد من خلال الفرجة بين نخيل جوز الأريكا؟

تشققت الدرجات الحجرية عند مدخل بيته. شقت نخلة جوز هند طريقها من خلال ركن الحائط المسود، الذي انتفخ على نحو زائد بسبب الطحالب، وأصبح مسترخياً متدلياً نحو الحقول. ارتعشت قائمتا البوابة التي نخر فيها السوس، عندما لمسها. ذكره المنزل بعجوز

منحنية الظهر محلوقة الرأس تجلس في الشمس وعيناها مغمضتان. صعد الدرجات بسرعة. كان لابد أن يحني رأسه لكي لا يصطدم بعوارض الشرفة.

جاءت إلى الباب فتاة سمراء، نحيفة، ونظرت إلى الخارج.

بادمو! الطفلة الصغيرة سائلة الأنف التي اعتاد أن يحملها على ردفه عبر بستان جوز الأريكا، تتبعها صيحات الخالة الصغرى!

«تعالي يا فتاة، أين تشيرياممّا؟»

ارتعش صوتها بالفرحة. «أمي! إنه سيتو إيتان».

كانت الغربان والدجاج تلتقط الديدان التي يميل لونها إلى الحمرة في كومة من الروث بالقرب من الحائط. وقف ويداه تلمسان العارضة وتذكر كيف اعتاد أن يمد ذراعه يحاول أن يبلغها بطرف إصبعه كل أسبوع ليقيس طوله.

جاءت الخالة الصغرى تجر قدميها، تمسح البصاق الذي يجري من فمها بظهر يدها.

«انظروا مَن الذي جاء الآن. هل تتذكرنا جيداً، يا طفلي؟ لقد مر وقت طويل للغاية».

انحنت واستندت على الباب وبكت. أسرع يساعد الحمال ليُنْزِل صندوقه من فوق رأسه.

لم يغير التقدم في السن من الخالة الصغرى كثيراً. كانت هناك بقع حمراء حول شفتيها، وصارت أكثر شحوباً وهزالاً. كانت هناك ندوب حمراء أيضاً على قدميها المتغضنتين.

«مرت سنوات طويلة انتظرناك فيها، لا سنة أو اثنتين». مرة

أخرى غرقت كلماتها في الدموع، ودخل سيتو البيت. كان البيت كله، والشرفة، والغرف الخارجية والداخلية، كلها تبدو أصغر كثيراً من الصور التي يحتفظ بها في خياله.

ومن خلال دموعها، تفجعت الخالة، «لم يعد باقياً لي في الحياة مثل هذا الوقت الطويل».

وقفت بادمو عند الباب تبتسم ابتسامة تعاطف. قال لها، بسلطة أحد أعضاء العائلة، «اطلبي من أحد أن يأخذ هذا الصندوق إلى الطابق الأعلى». لاحظ أنها غيرت وارتدت موندو نظيفاً. أعطاها روبيتين لتعطيهما للحمال. قالت لأمها بنعومة وهي تخرج:

«كفى، وفري كل هذا البكاء لوقت آخر. لدينا زوار».

هدأت الخالة. «أحضري له حصيرة، يا بنتي».

خرج إلى الشرفة بمجرد أن تأكد من أنها توقفت عن البكاء. اختفى المقعد المريح الذي كان موضوعاً هناك دائماً من أجل الأب. والجص الذي استخدم لعلاج البقع التي نخرها السوس في المقعد الخشبي، بدأ يتقشر.

قالت بادمو مترددة، «خرجت مسامير الكرسي المريح، ولم يعد الجلوس عليه آمناً».

دخل الزوار إلى الفناء. نارايانان ناير، آبو ناير. لم يتعرف على سانكوني ناير مباشرة، حيث خُلع السن النافر في مقدمة وجهه.

ألقوا عليه التحية بالابتسام، وتحدثوا بأصوات مليئة بالاحترام.

«آه، إذن لا تزال تذكر الطريق إلى البيت!»

«ما الأخبار، يا نارايانان ناير؟»

قالوا إن شخصاً رأى سيتو من الطريق وخمن شخصيته. وجاء نارايانان ناير ليتأكد إن كان هو سيتو حقاً.

«اجلس. أحضري حصيرة»

«لا، لا، لست بحاجة لحصيرة».

جلسوا على الأرض المتشققة. استند سيتو على العمود، وحذرته الخالة، «سوف يتسخ الموندو خاصتك».

لم يأخذ سيتو الحصيرة التي أحضرتها له بادمو.

«لماذا لم تكتب لتقول بأنك قادم؟ كان أبوك هنا بالأمس. لم يقل لنا إنك سوف تأتي».

«وجدت فراغاً من العمل فجأة».

«هل جئت بالقطار أم بالسيارة؟»

«بالسيارة حتى الناحية الأخرى من النهر».

«نحتاج لجسر فوق النهر عندنا. الناس من أمثالك يذهبون إلى أماكن كثيرة، ويقابلون الكثير من الشخصيات ذات المكانة الرفيعة، لماذا لا تحاول أن تجعل ذلك يتحقق؟»

تظاهر بأنه مهتم بما يقولون عن الجو الحار والمرض الذي هاجم نخيل الأريكا.

قال سانكوني، «سرت مع أبيك حتى الطريق. لم يعد بصحة طيبة كما كان في الماضي».

بدأ سيتو يتحدث عن المدينة، سعر الأرز، الفوائد التي تجنى من تجارة الأخشاب. عندما خلت جعبته وأصبح لا يجد ما يتحدث عنه، ألمحت الخالة الصغرى، باذلة مجهوداً لتأخذه لنفسها:

«لماذا لا تستحم وتغير ثيابك؟ لقد وصلت بعد رحلة طويلة».

وسأل الزوار إن كان ينوي البقاء بضعة أيام.

«لم أقرر بعد».

«لماذا لا تأتي معنا وتلتقي بالجميع؟»

«فيما بعد».

بعد مغادرتهم، جاء رجل عجوز يستند على عصا. قالت بادمو، «إنه تشينان مينون».

بدا التوتر على الخالة، لكنه أدرك أن لديها أيضاً نوعاً من الفخر، «لم تكد تضع قدماً داخل المنزل، والقرية كلها فيما يبدو قد علمت بمقدمك!» نادت بادمو لتحضر حصيرة. فلابد من معاملة كوندان كولانجارا مينون باحترام، على أية حال. صعد مينون الدرجات بمشقة، وسأل:

«إذن، هل عرفتني؟» ابتسم سيتو ودعاه للجلوس. روح مينون عن نفسه بالموندو خاصته، وقال: «أنا مصاب بالربو، وقد استشرت الدكتور جوبالا مينون ووصف لي كل أنواع الأدوية. لكنني لا أكاد أستطيع النوم أثناء فترة اكتمال القمر».

وطلب من الخالة أن يشرب ماء ساخناً. عندما توقف عن اللهاث، سأل سيتو: «ماذا تفعل الآن؟»

«لدي تجارة صغيرة»

«أخشاب؟»

«نعم».

«هل هي تجارتك التي تمتلكها أنت يا سيتو؟» زجر سيتو.

«كنت أطلب من أبيك أن يكتب لك. عندما عرفت أنك هنا، فكرت أن آتي بنفسي».

كانت الخالة على حق. ما أسرع ما انتشرت الأخبار بأنه عاد إلى البلدة!

«لست متأكداً من أنك رأيت ابني الأصغر. لم أعلمه. فقد فشل في السنة التاسعة، لم يكن جيداً في الدراسة. وهو عاطل في البيت منذ ثلاث سنوات، لابد أن تجد له عملاً في مكان ما».

«عمل في هذه الأيام...»،

لم يدعه مينون يكمل. «لا يهم ماذا يعمل أو أين يعمل. أنت...»، توقف لبرهة، ثم استطرد، «يمكنك أن تدير المسألة الآن. لا أستطيع أن أسأل أحداً آخر».

«دعني أفكر في الأمر».

«أنا الوحيد الباقي من التراواد، العائلة القديمة. لابد أنك سمعت أن العائلة انقسمت».

«نعم، سمعت».

«لابد أن أعبر النهر هذا المساء، ومن ثم فكرت أن آتي وأراك في الحال. متى أستطيع أن أرسله؟»

«دعني أستكشف الأمر. سوف أكتب لك».

غادر مينون. وأحضرت الخالة شاياً لسيتو في كوب معدني. «إنه يشرب طوال الوقت. وهذا هو السبب في المشكلات بينه وبين إخوته».

كانت رائحة لبن الماعز الطازج تنبعث من الشاي. وضع الكوب. سألته الخالة: «هل تريد مزيداً من السكر؟ اشربه بسرعة قبل أن يأتي

شخص آخر».

ازدرد معظم ما في الكوب، وأعطاها إياه، وأشعل سيجارة.

«نحن لا نحتاج نقودك»، ارتعد صوت الخالة. «هذا مكانك، وينبغي أن تتذكر أننا جميعاً هنا من أجلك. هل تدرك كم من السنين مرت وأنت بعيد؟ ليس سنة أو اثنتين، يا بني. تسع سنوات! كنت أعدها».

تسع سنوات.

نهض، خشية أن تبدأ في سرد أحداث تلك السنوات التسع.

ذهب إلى غرفته القديمة فوق الشرفة الأمامية. ذكريات الماضي لا تزال هاجعة في الضوء الضعيف الذي يزحف متردداً من خلال قضبان النافذة الدائرية. هل الأبيات والعبارات التي نقشها على الحائط لا تزال هناك؟ لابد أن يشعل المصباح ليعرف. لا تزال الرائحة المألوفة العفنة للمعدن البرونزي المبقع بالزنجار ملتصقة بالحجرة. علق قميصه وسترته على قائم السرير، وتناول منشفة من حقيبته، ورقد على الإفريز الخشبي.

هل تبدو الغرفة أكثر عتامة مما كانت عليه من قبل؟ أم أن ذلك لأنه كان متعبا للغاية لدرجة أنه لم يستطع أن يرى اللون الأصفر الغامق الناعم للأرضية بوضوح؟

سمع الخالة تعطي تعليماتها لبادمو. ثم ذهبت إلى الشرفة الشرقية للاعتذار بالنيابة عنه لشخص ما ينتظر هناك.

«إنه راقد. لقد اضطر أن يترك السيارة على الضفة الأخرى من النهر وأن يمشي. تعال مرة أخرى غداً. انظر، يا تامي، لن يغادر السيد

الصغير على عجل، تستطيع أن تراه، تعال فيما بعد».

صعدت الخالة الدرجات ببطء. «أناس كثيرون يريدون أن يروك، الشيرومان، والمابيلا!» ضحكت، حتى بدت نواجذها التي اسودَّ لونها. «كلهم يريدون شيئاً منك، لقد سمعوا أنك تسك النقود».

وأضافت: «إنك تبدو بصحة لا بأس بها».

بدأت تتحدث عن مواجعها. في المساء، تشعر بألم شديد في قدميها حتى أنها لا تستطيع المشي. وفكرت أنه قد يكون روماتيزماً، وحاولت تدليكهما بالزيت. ولديها مشكلة في الهضم، الطعام يشعرها بالغثيان.

استمع، وأصدر تعبيراً عن الموافقة من حين لآخر. ولجأت الخالة إلى الصمت، وراحت تحدق من النافذة لوقت طويل، تستنشق النشوق وتربت على طرف أنفها المفلطح. ثم سألت فجأة:

«عندما جاءت برقية باراميسواران، لم تكن هناك، أليس كذلك؟»

«لا»، أجاب وهو يلتفت بوجهه إلى الحائط.

نظر إليها مرة أخرى، ورآها تمسح عينيها، «لقد انتظرنا حتى وصل قطار الصباح قبل أن نحرقها، كنا نظن أنك سوف تأتي».

تلك الليلة الباردة من شهر مايو. وبدأ ذلك اليوم بشمس حارقة.

استيقظ في التاسعة في غرفة الفندق يشعر بثقل في رأسه. كانت الشمس حارة بالفعل. كان التفكير في أن النطق بالحكم سيكون اليوم لا يزال يتشكل وسط ضباب عقله. في الليلة الماضية، تخلص من هذه الفكرة بالشرب قبل أن يسقط في نوم عميق.

كان ذلك هو الفندق الذي عمل فيه كاتباً لبعض الوقت. وكان هناك بعض النوادل لا يزالون يذكرونه.

«من في رقم أربعة عشر؟»

«السيد سيتو».

تناول كوب القهوة بيدين مرتعشتين، ارتشف منه ونادى الاستقبال. «كأس ويسكي كبير».

سوف تنعقد المحكمة في الحادية عشرة. كل أصدقائه الذين وجدهم حديثاً سوف يأتون في العاشرة ليعطوه دعماً معنوياً.

هل استطاعت النوم؟ كان يتساءل في نفسه إن كان له أن يطلبها، ورن التليفون.

«كيف حالك؟» كان صوتها دائماً برداً وسلاماً على أعصابه المتوترة. قال، مستهدفا أن يبعث في نفسها ارتياحاً: «أنا بخير، لا تقلقي على أي شيء».

«هل تشعر بالقلق».

ضحك ضحكة خالية من المعنى.

عندما وقع باستلام الرسالة المسجلة، كان قد خمن أنها تحتوي أمراً بإنهاء خدمته. وكان قد استبق الأمر بإخلاء المنزل. قرأ الرسالة بنوع من الازدراء، ثم اتصل بها.

«لدي خبر جيد. لم أعد موظفاً لدى زوجك يتلقى منه راتباً».

كانت قد حذرته بمجرد أن أرسل زوجها لأخيه من بومباي. وقضى هو والمحامي يوماً كاملا بجانب زوجها، يتشاورون بأصوات خفيضة.

لم ينزعج أو يرتبك عندما رفعوا قضية على أساس أنه اختلس مبالغ كبيرة من النقود من الشركة. أيقظ محاميه في وقت متأخر من الليل

وطلب منه أن يرفع قضية مضادة، بعد حساب الكميات التي كانت في حيازته حيث أزال ملفات معينة من المكتب وقام بتعديل الأرقام. وأصبحوا يدينون له بمئة ألف روبية وبجزء من الأرباح.

عندما اتصلوا به لعمل تسوية، قال: «إنه هو السيد، أليس كذلك؟ دعوه يرفع قضيته ويكسب».

«سوف يسحب السيد القضية. أنت تعرف الحالة التي هو فيها. ونحن لا نعرف خطأ من هذا. نناشدك باسم الإنسانية».

ضحك بصوت مرتفع، وأصابهم الذهول.

«لماذا تضحك؟»

«لا شيء».

باسم الإنسانية؟

«ماذا علينا أن نفعل؟»

«كيفما شئتم. حتى أنكم يمكن أن تقرروا أنني لست إنسانا».

في إحدى الليالي، سأل لاليثا، «هل لديك الشجاعة؟»

«لأي شيء؟»

«لأي شيء يحدث».

«لقد جئت هنا لأن لدي الشجاعة. فكرت أنه من الأفضل ألا آتي، لكنني لم أستطع البقاء بعيداً».

«ارفعي قضية إذن، إن كانت لديك الشجاعة».

«قضية لأي شيء؟»

«الطلاق».

فجأة شحب وجهها. استمر الصمت للحظات بدت طويلة

وأصبحت لا تحتمل، فقام إلى الحمام ليغير ثيابه. عندما خرج كانت جالسة أمام منضدة الزينة، تمشط شعرها. نظر إلى انعكاس صورتها في المرآة للحظة، ثم سحب عينيه.

سارت إلى الممر المظلم الذي أوقف فيه سائقها الأمين السيارة. كانت خطواتها مترددة، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى.

اتصلت به في تلك الليلة على غير انتظار، «أنا مستعدة».

«ماذا؟»

«أنا مستعدة».

في اليوم التالي، استمعت بوجه خال من التعبير والمحامي يشرح لها ماهية «سوء العشرة بما يجعل الحياة مستحيلة»، ومعنى «عدم التكافؤ»، الحادية عشرة.

كان في حالة توتر بالغ حتى ظن أنه سيصاب بانهيار عصبي. رن جرس التليفون. وجاءه صوت المحامي الغليظ يقول: «سوف يستغرق الأمر حتى الساعة الواحدة. لا تقلق».

كانت الشمس تلتهب في الخارج. وتدفقت في أمعائه غازات ويسكي السوق الحرة الذي هربه خادم نادي التجار. اتصل المحامي مرة أخرى في اللحظة التي كان يتسرب فيها النوم إلى جفونه.

«مبروك! لقد فزنا».

انفجر في الضحك. أكان هو الذي ينبغي تهنئته؟ لقد قال لنفسه مرات عديدة إن هذه هي اللحظة التي كان ينتظرها طوال حياته.

كان المحامي، الذي اشتهر بالقدرة على تغيير وجه الحقيقة، يقدم له التهنئة!

«هل تهنئني أنا؟»

فجأة أدرك أنه لم ينجز أي شيء. من الذي فاز، إذن؟

رن جرس التليفون مرة أخرى، وسمع صوتها المتعب،

«هل أنت سعيد؟»

السعادة، الفرحة - جعله هذا يضحك.

أصرت على أن يرحلا في الحال، كانت تريد الهروب من الجميع لأيام قليلة.

لابد أن برقية باراميسوارا إيتان جاءت في ذلك المساء. وكانا قد انتقلا إلى الفندق الشهير بالقرب من الحديقة على النهر.

كان واقفاً في الشرفة الخاصة لجناحهما في الطابق الثالث، وكانت تتحدث عن الأطفال، وجاءته مكالمة من البدالة كان قد حجزها لمكتبه. وقال الموظف له:

«هناك برقية لك».

«من أين؟»

بدا الشاب متردداً في الإجابة. قال بغضب:

«افتحها واقرأها لي».

«إنها من منزلكم، يا سيد. والدتك... والدتك توفيت».

وضع سماعة التليفون، وأزاح الستار الذي يفصل مساحة المعيشة عن غرفة النوم، وتناول سيجارة من على المنضدة. دخلت وسألته:

«ماذا حدث؟»

«لا شيء». لم ينظر إلى وجهها. وقف في الشرفة، يتوق إلى البكاء، لكن قلبه كان قد أصبح في قسوة الصخر.

نادت عليه: «شايك يبرد».

راقب الزحام من الناس الذين يتحركون بين مربعات الحديقة ودوائرها تحت إضاءة صناعية فضية كضوء القمر. وقفت الأخبار خارج عقله مباشرة كمسافر يبحث عن مأوى - أمي ماتت!

دخل، ورأى نظرة لوم على وجهها. كانت قد وضعت عطراً جديداً وتدهن كريم ماكس فاكتور تحت جفونها المتغضنة.

أشعل سيجارة أخرى، جلس ومدد رجليه على مقعد واطئ. كررت، «الشاي يبرد».

هل كانت تجد فيه عيباً؟

«اسكبيه في الحوض».

هل بدا فظاً؟ بدا عليها الغضب وليس الدهشة. لاحظ شفتيها ترتعشان. ما الأمر؟ ماذا حدث؟ كانت عيناها مليئتين بأسئلة لم تسألها.

لا شيء، أنا بخير حال.

رقد على النصف الخاص به من السرير الكبير المزدوج، يستنشق عطرها، وسأل نفسه أين ذهبت اللهفة التي كان يشعر بها عندما يسمع خطوات أقدامها على الدرجات الحجرية؟

شعر بالوسادة باردة، وكذلك لحمها. أغمض عينيه وشعر بهما مغرورقتين بالدموع. لكنه ما زال لا يبكي. ذات مرة، ظن أنه تنهد. سيطر على نفسه، وسمع صوتها الناعم:

«ما الأمر، يا حبيبي؟»

لا شيء. ليس بي أي مشكلة.

جرت بأصابعها على صدره برقة، فانسحب مبتعداً.

«قل لي، ماذا حدث؟»

«لا شيء».

لا شيء. لم يكن الليل المظلم شيئاً، والطريق الطويل الذي قطعه لم يكن شيئاً. الفرحة التي شعر بها أثناء تلك اللحظات من الانتظار ورائحة الوسادة، كل ذلك لم يكن شيئاً. أنت لا شيء، الحقائق والأرقام التي أعطيتها لي لا شيء. غرفة الفندق الباهظة هذه ورمز الأسد على حاجز الريح في السيارة لا شيء. لن تفهمي. لا شيء، لا شيء.

«أرجوك، أخبرني».

«لا شيء هناك».

شهر العسل، الذي لم يكن قد بدأ بعد، انتهى في تلك الليلة الباردة، على وسادة مبللة بالدموع.

عاد الدبور الذي كان يلف حول قفص الببغاء متشككاً إلى خليته.

قالت الخالة:

«كان الله رحيما بها لأنها لم تكن عبئاً على أحد. كلنا كنا ندعو من أجل هذا. كل ما أريدك أن تفعله يا بني هو أن تجد زوجاً مناسباً لابنتي هذه. أنت تعرف أنني أراك ابناً لي. هذا كل ما أريده منك. وما أن يحدث هذا، لن يكون في حياتي أي شيء يقلقني».

جلس في صمت تام.

«ما الأمر يا سيتو؟»

«لا شيء».

9

في الغسق، أشعلت بادمو الفتيل الموجود على الدرجات الأمامية. تلألأ ضوؤه خافتاً، مثل حزن قديم شبه منسيّ، في ضوء المساء الضعيف. ردد طفل، ربما من فاداكيتو، أدعيته بشكل آلي. وانسابت أغنية من فيلم قديم قادمة من ناحية غابة شجر الورد في الجنوب. فكر ربما هناك حفل زفاف يقام الآن. توقف الطفل في فاداكيتو عن الترنم.

سار في الفناء جيئة وذهاباً، قالت الخالة، «يمكننا تسخين بعض الماء إن كنت تريد حماماً، ويمكنك أن تستحم بجوار البئر بعد أن يسود الظلام».

واشتكت من تامي، الشيرومان، الذي لم ينشئ بعد، حتى الآن، ظليلة محاطة بأستار بالقرب من البئر برغم أنها طلبت منه ذلك مرات كثيرة.

«فقط أريد الاستحمام».

كان مجمّع إلّام مغلقاً بالظلام. لأول وهلة، بدا البيت رث الهيئة مهجوراً، ثم رأى مصباحاً من نوع القنديل يتحرك خلف القضبان المسودة للمطبخ.

كان الطريق إلى مجمّع إلّام تنمو فيه النباتات والحشائش بشكل زائد. كاد قلبه يقف عندما تحرك هيكل أسود بالقرب من السياج المكسور. جاء شخص ناحيته. تعرف عليه عندما اقترب منه، أوني نامبوديري.

أصبح أوني نامبوديري رمادي الشعر، وبدا رجلاً في الستينيات من عمره. كان يرتدي بشكيراً قذراً بالكاد يغطي ركبتيه.

«ما الأخبار، أوني نامبوديري؟»

«سمعت لتوي أنك هنا».

«تعال واجلس».

جلس أوني نامبوديري في الشرفة بالقرب من الدرجات الحجرية. كان الفتيل قد انطفأ.

أحضرت بادمو مصباحاً. رأى سيتو وجه أوني نامبوديري بوضوح في ضوئه، وفجأة شعر بالخوف. كانت الشعيرات الشوكية القصيرة في ذقنه رمادية بالكامل، وكانت أسنانه متآكلة ومسودة اللون، وكان شعر رأسه الأشعث خشناً كألياف جوز الهند. من المؤكد أن أيّ شخص يقابله في طريق ريفي خال من الناس سوف يفر هارباً.

راح أوني نامبوديري يرمقه بنظرات سريعة من وقت لآخر، ثم يخفض عينيه.

«ألا تزال تذهب إلى مهرجانات المعبد، أوني نامبوديري؟»

«لا».

انتظر أن يتحدث أوني نامبوديري، أن ينفجر كالعادة في ضحك مرتفع. لكنه كان هادئاً للغاية.

«كم لديك من الأطفال، أوني نامبوديري؟»

«ثلاثة». وبعد برهة أضاف، «كلهن بنات. فقدت الولد الوحيد الذي حظيت به». احتفلت عائلة زوجته بمهرجان في معبدهم بعد مرور اثني عشر عاماً. وجلس أوني نامبوديري على قمة أحد الجدران، والطفل في حجره، وفجأة تراخت قبضته.

«كنت أنظر إليه وأراقب سقوطه». كانت الخالة عند الباب، قالت بنعومة، «أيتها الأم المقدسة».

مرة أخرى، ساد بينهما صمت مفعم بالقلق.

سألت الخالة، «أوني نامبوديري، هل بعت شجرة المانجو التي تثمر هذه الثمار الصغيرة اللذيذة؟»

«نعم. لقد أعطونا خمس عشرة ولا يزال عليهم عشر أخرى».

خمن أن أوني نامبوديري قد جاء إليه ليساعده وقرر أن يعطيه عشر روبيات عندما يغادر. التفت أوني نامبوديري إليه مباشرة. كانت تنبعث منه رائحة التربة، رائحة أوراق التنبول والعرق.

سأل: «متى سترحل؟»

«لم أقرر بعد».

«إذن». تردد أوني نامبوديري، وقال سيتو، «قل لي، هيا».

«إذا جئت معك يا سيتو مادهافان، هل يمكن أن تجد لي عملاً في مكان ما؟»

«أجد لك عملاً، أوني نامبوديري؟»

«نعم».

ابتسم سيتو. «من سوف يرعى مجمع إلّام؟»

لم تعد ضحكة أوني نامبوديري تلك الضحكة البلهاء القديمة. بدا أنه يحاول إخفاء ارتعاشة صوته.

«ماذا يحتاج الرعاية هنا؟ جوفيندان لا يعطينا حبة واحدة من الأرز. وبعد أن فقدنا نخيل الأريكا... كل شيء في حالة فوضى».

شعر سيتو بالحيرة، ماذا ينبغي أن يقول؟ قال أوني نامبوديري، «لا أهتم إن كنت أقوم بالطبخ أو الخدمة».

رأى عيني أوني نامبوديري تلمعان في الظلام، وتراجع على الفور.

«حسناً، أوني نامبوديري. سوف نرى ما يمكن عمله».
ذاب الهيكل الأسود لأوني نامبوديري في الظلام.
قالت الخالة: «إنهم يهدمون كل شيء، حتى غرف الخزين الخشبية، لبيع الخشب. وزوجته تبدو أكثر تعاسة من نساء الشيرومي».
أصرت الخالة على أن يستحم. «هل تريد أن تأكل الآن؟»
«لست في عجلة».
«يأتي مادهافان متأخراً جداً. يقول إن التجارة أفضل في الغسق».
لكن مادهافان جاء مبكراً عن المعتاد. خلع نعليه المصوتين وجلس، كانت المفاتيح على وسطه تصلصل. ازداد وزنه. وكان يرتدي تي شيرت صناعة المصنع، له ياقة ويضع على كتفه بشكيراً بإطار أحمر. أوقد سيجارته البيدي بقداحة. لاحظ سيتو أنه فقد أحد أسنانه الأمامية.
سأل: «لماذا لم تحضر الأطفال؟»
الأطفال؟ أطفاله هو؟ إنهم بانتظار حكم آخر من المحكمة. لابد أنها متحيرة الآن كيف ينبغي لهم أن ينادوه عندما يأتون إلى البيت. تلعثم محاولاً أن يجد إجابة.
«جئت في عجلة. قررت المجيء فجأة».
«أنا أذهب هناك من حين لآخر لشراء الإمدادات. لكني لا أعرف مكانك، وحيث إنني دائماً أعود في نفس المساء، لا يكون عندي وقت أبداً للبحث عنه».
خلع الخال مادهافا سترته، وطلب فوطة واتخذ طريقه إلى البئر.
«هذا فصل مريع. لا توجد نقطة مياه واحدة في النهر».
كان قد سمع بادمو تسأل الخالة بنعومة إن كان عليها أن تقلي خبز

البابادم كاملاً أم قطعاً. طلبت منها الخالة أن تصنع مزيداً من الكاري، وصلصة جوز هند سائلة، وذهبت معها إلى المطبخ.

هذه المرة بالأمس، كان في حفل استقبال في بيت كيه. إيه. مينون. وبينها كان يستمع إلى مينون يتحدث بلهجة متثاقلة بشدة، عن القصف بالقنابل في رانجون كان ينظر إلى الأريكة المجاورة للراديو من وقت لآخر، محاولاً أن يدفئها بصمت.

في ذلك المساء، عندما أمسكت بمفاتيح سيارتها من على المنضدة، وألقتها إلى يديه، كانت عيناها مليئتين بالرجاء. ومن ثم فقد سأل: «هل ستأتين؟»

«هل تريدني أن آتي؟»

تحدثت كثيراً حتى بدأ حديثها يتآكل. في أوقات سابقة كانا يتحدثان بلا توقف. وفي النهاية، يسأل كل منهما الآخر،

«عن أي شيء كنا نتحدث؟»

لا شيء.

يا ربي! لقد مر وقت طويل، والآن؟

الآن، أصبحت الكلمات أشياء استعراضية سهلة الانكسار في غلاف زجاجي، لا تستخدم إلا في مناسبات خاصة.

لا تزال تتلكأ في عقله ذكرى غير مريحة لأول استعراض «كاباريه» أقيم في الفندق المفتوح حديثاً في المدينة.

قالت: «سوف آتي إذا لم يكن لديك اعتراض. أو يمكن أن أخبر مسز مينون أنني أشعر بصداع. التعلل بالصداع رحمة الآن، شكراً لله!»

علمته السنوات القليلة الأخيرة أن يخفي مشاعره وراء ابتسامة.

«استعدي».

في الطريق حدثته عن عائلة مينون. كان الرجل شديد الثراء، وكانت هي زوجته الثانية.

كان البيت خارج حدود المدينة. اخترقت أذنيه رياح البحر الباردة، وزئير الأمواج. كان المدخل مليئاً بالسيارات. نظرت باشتياق إلى إحداها وسألت:

«إنها سيارة موريس أوكسفورد مستوردة، لمن هي؟»

«لا أعرف».

لابد أنها حسبت ثمنها في عقلها.

تبادلوا تقديم الشخصيات والعبارات المهذبة.

مسز مينون في كل مكان، وفي يدها كوب من الجين. يمكن أن تظنها ابنة مينون. الابنة، في السادسة عشرة، أحضرت له علبة سجائر.

توقفت سيارة رياضية بزعقة في الخارج، وخرج منها شخص ما. رمق سيتو زوجته بنظرة. أزالت البهجة التجاعيد عن وجهها.

كان الشاب طويل القامة الذي خرج من السيارة له حاجبان كثيفان وشفتان متوردتان، ويرتدي سواراً نحاسياً في يده. أحنى رأسه وهو يدخل من الباب، وكأنما ليؤكد على طوله، مما دفع الجميع للالتفات إليه.

قدمه مينون. كان مهندساً، عُين حديثاً في شركة مرواري. إندراجيت.

تحرك حول المكان، يلتقي بالجميع، وقال: «إندراجيت، نعم. لكني مضطر لأن أحبطك. فأنا لست ابن رافانا». جلس بين سيتو وطبيب

ورفع كوبه. «في صحتكم!». كانت الثقة تتدفق من كلماته، ومن نظراته، ومن موقفه. شعر سيتو بالغيرة.

أُفرغت الكؤوس ومُلئت. وانسابت الموسيقى من أجهزة الستيريو. وارتفعت الضحكات. ظل محتفظاً بنظراته على زوجته، حتى وهو يستمع إلى حديث الرجل الجالس بجواره. الحرص، الحرص.

تظاهرت أنها لا ترى التحذيرات في عينيه. هل كان الكأس نصف المملوء في يدها هو الثاني أم الثالث؟ ذهب إليها بزعم أنه سيأتي لنفسه بعلبة ثقاب، وغمغم هامساً «احترسي».

لم ترفع رأسها.

كانت مسز مينون تعرف كيف تجعل الحفل مليئاً بالحيوية. قالت آمرة «هيا، انتشروا». اضطر الجميع لتغيير أماكنهم.

دعاه مينون وصاحب الطاحونة السندي للخروج معهما لاستنشاق بعض الهواء المنعش. وأصر مينون أن يأخذوا كؤوسهم إلى الحديقة.

راح مينون يصف حمام السباحة الذي ينوي إنشاءه بحيوية بالغة. كان من الممكن سماع غمغمة البحر المبهمة من خلفهم، مثل ترجيع الصدى لأصوات مهرجان بعيد في معبد ما.

كان أحدهم في الشرفة العلوية يصفر بفمه لحن أغنية، «واحد، اثنان، ثلاثة، أحبك».

في كل مرة، يذكّر نفسه بصعوبة بأن الوقت أصبح متأخراً، وحاول المغادرة، لكن مينون كان يقول إن الليل لا يزال في أوله ولا يزال هناك الكثير من الوقت.

أخيراً استطاع الهروب بمساعدة مرشانداني. في قاعة الطعام، كان

سمسار التأمين متوسط العمر يجري أصابعه على يد مسز مينون، يقرأ لها الطالع.

«أين هي؟»

«أوه، لا تكن آفة. دعها حرة». كانت تمضغ الكلمات. ولم تكن تستطيع رفع رأسها بثبات، وظلت تنزلق مستندة إلى كتف قارئ الكف. دخل سيتو البيت وهو يشعر بالغثيان. كان الناس مجتمعين في جماعات صغيرة.

«هل رأيت زوجتي؟»

«هل تشعر بالقلق؟»

ضحك شخص ما. ظل معهم دقائق قليلة، ليثبت أنه ليس قلقاً، ثم انسل منهم.

وجدها في الشرفة. كانت اليد ذات السوار النحاسي ملتفة حول كتفها.

راقبها ببرود وهي تترنح في نزولها على السلم اللولبي، متوقعاً منها أن تتعثر وتقع. لو تراخت قبضتها على الدرابزين الألمونيوم، لانهارت وتدحرجت لتتكوم عند نهاية الدرجات السبع والعشرين، ولانتشر لون أحمر ولوث الأرض ببطء.

جفل عندما صُفق باب السيارة. هل هو الذي أغلقه بنفسه؟

تظاهر بأنه لا يسمع نهنهاتها.

عبرا أكواخ الصيادين، والمنارة، وأصبحا في المدينة. بدت مصابيح الطريق خائفة تهرب خلفها. استدار بالسيارة وأصبح أمام حائط عال. داس بقدمه على دواسة البنزين، وبدأ يضحك. اندمجت الموجات

المتتالية بلا نهاية لضحكه مع صرخات المعدن والإطارات.

سمع الخوف في الصمت بجواره.

مصباح طريق منعزل لم يستطع أن ينجو منه، انكفأ، وانفجر هو ضاحكا.

«أنت مجنون».

«نعم، كلنا مجانين، هذه السيارة، وعمود النور أيضاً، نعم».

وضحك مرة أخرى.

وهكذا أصل إلى بوابتك. دائماً ينتهي اليوم هنا. أدخل الحديقة التي أبدعت ترتيبها وتنظيمها، أفتح الباب وأدخل غرفة نومك. أقف بجوار فرشتك الباردة بكل غضب وإحباط رجل عاجز، مليء بالأسف والندم على الفرصة الضائعة، اللحظة التي ولولت فيها الإطارات المنزلقة وصرخ المعدن المتكسر.

لم تكن هناك أسئلة عندما وصل التاكسي الأصفر والأسود عند البوابة في الصباح. وعندما وضع الخادم الحقيبة التي جهزها على عجل على المقعد، كان ينتظر خشية أن توجه إليه أسئلة. لكن لا. لم يكن مضطراً لإخبارها أين سيذهب.

دخل الخال مادهافا إلى الشرفة، وهو يرسم خطوط الفيبهوتي، الرماد المقدس، على جبهته. «فليحفظنا كريشنا، جورو فايورابا!» وسأل، «لماذا تجلس في الظلام؟»

«هكذا فقط».

قام. نادت الخالة، «تعالا لتناول الطعام. وضعت الأوراق منذ وقت طويل».

تبعتهما بادمو بالمصباح.

قالت الخالة، «لم أستطع الحصول على سمك جيد. صبي الشيرومان حاول في كل مكان، وعاد بحفنة من أسماك الفيلوري».

«سوف أرتب مع الصيادين غداً، لو كنت ستبقى».

لم يرد.

استمتع بأوراق المورينجا المطبوخة مع حساء العدس بالكاري، ملأت بادمو طبقه العميق مرة أخرى وأخرى. وبرغم أنه لم يكن يريد مزيدا من الأرز، أصرت الخالة. «مغرفة واحدة، مع اللبن الرائب».

بعد العشاء، سار في الفناء. فرشت بادمو فرشة الخال مادهافا في الشرفة. وقالت الخالة: «فرشتك فُرشت بالطابق العلوي يا سيتو. قل متى تريد أن تنام وسوف أرسل مصباحاً».

«بعد قليل».

«ألن تذهب إلى بيت أبيك؟»

«نعم، لابد أن أفعل».

«أبوك ليس في حال طيبة أبداً. لماذا لا تذهب وتراه من حين لآخر؟» ونادت بادمو، «كلي شيئاً يا فتاة، ثم اذهبي للنوم. أنا لا آكل بالليل. فعندي مشاكل مريعة مع الحموضة».

جلست الخالة على الأرض، ومددت رجليها. بدأ الخال مادهافا يغط في نومه.

«أظن أنك تعرف أن بوشبوت تانجاماني في بومباي».

أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، خشية أن تراه، حتى في الظلام. ارتفعت دقات قلبه حتى وصلت إلى أذنيه.

«لكل منا مصير مكتوب. سمعت أنها عادت إلى البيت لتلد طفلها الثاني».

سار مترنحاً إلى الحائط، وحدق في بستان الموز، حيث كانت الظلمة والريح تتلاعب بالأوراق. تمنى لو أن الخالة لم تقل أي شيء آخر. تنهدت.

«أحضرها وأولادها هنا في وقت ما. أريد أن أراها».

«سوف أفعل». كان حلقه جافا، وتحدث بصعوبة.

«سوف أذهب للنوم، أعطيني مصباحاً».

«خذ فانوس الهواء. سوف أشعل واحداً آخر بالداخل».

صعد إلى الطابق الأعلى، خفض فتيل الفانوس وتمدد. أحضرت الخالة ماء في إبريق نحاسي، ورفعته على الحافة، وانتظرت، يبدو أنها أرادت أن تقول شيئاً له. تظاهر بأنه نائم.

ما أن أصبح وحيداً حتى أطفأ المصباح.

بدا وكأنها على وشك أن تمطر. كان يتوق لسماع صوت قطرات المطر على أوراق الموز. ولكنها لم تمطر. وسُمع عواء ابن آوى في مكان ما على جانب التل.

هب نسيم خفيف من النافذة الصغيرة. رقد في الظلام وعيناه مغلقتان، بأمل أن يهدأ قليلاً. ربما ينام الليلة دون تناول مهدئ. قرر ألا يفكر في الليالي التي كانت فيها الحبوب المنومة تمحو الذكريات، أو في الأيام المؤلمة عندما كان يتخيل أن مناشير تخترق جسده.

مرت سنوات على ذهابه إلى المعبد آخر مرة. وفكر أنه سوف يذهب في الصباح. لم يؤدِّ صلاة أو دعاء منذ كان طفلاً. فما هو الدعاء الذي

يمكن أن يقوله عندما يذهب إلى المعبد؟

لم يكن هناك ما يمكن أن يدعو لتحقيقه. كان يعرف ماذا يريد، كان يريد فرصة أخرى. «يا رب، امنحني فرصة أخرى».

كان دائماً يقف خارج الأبواب المغلقة لمعبد ما، يدعو طالباً بركات لن تمنح له أبداً.

دائماً.

فرصة واحدة أخرى!

شعر وكأن سحباً محملة بأمطار كثيفة تثقل قلبه في حرارة شهر ميدام المجردة من الرحمة.

تقلب في فراشه، وفتح عينيه. وقع ضوء القمر من خلال النافذة الصغيرة. جلس، مليئاً بالفرحة. ضوء القمر يغمر العالم بامتداد البصر حتى أبعد مكان يستطيع رؤيته، كمعجزة، كحلم. نفس ضوء القمر الذي أيقظه منذ سنوات.

جلس، استند على عتبة النافذة، ونظر إلى الخارج. وبدا أن آلافا من زهور الماندارام البيض قد تفتحت في السماء. وبدا ضوء القمر متألقا عبر الجدائل غير المقطوعة لنخيل جوز الأريكا، كمشهد في حلم. انساب جمال مرعب عبر الفناء الخالي. وتلاعبت الجذور الهوائية للنباتات المتسلقة بالظلال في بستان الموز.

شعر بحزن لأنه لا يستطيع رؤية ضوء القمر ينزل كالمطر فوق الرمل الجاف لقاع النهر من هنا. وأخفى الظلام شجرة البالا في الطريق إلى مجمّع إلّام. فكر في كيف تبدو النباتات المتسلقة وهي تتحرك مع النسيم شبيهة بالكائن الأسطوري، الراكشاسا، بشعرها المتشابك.

كان حقل الأم الجنوبي فوق الرقعة التي ينظر إليها بالضبط. هل نمت فسيلة جوز الهند التي غرسها فوق كومة من التراب هناك؟

تذكر القصص التي كان يسمعها وهو طفل، وشعر بالخوف. الجاندارفان عند أسفل شجرة البالا، كارينيلي من ميكبارامبو وبراهما راكشاسو من مجمع إلّام سوف يخرجان الآن، ليتمشيا في ضوء القمر.

في كل مرة يغالبه النوم، يستيقظ مجفلاً.

إحدى الزجاجات في الصندوق الصغير في حقيبته كانت تحتوي مهدئاً، كان متردداً في القيام والبحث عنها.

ترنم، «أرجونان، فالاجونان، بارثان، فيجايان». الأسماء الشهيرة، ثم «كيرسيتي»، وترنم بصوت أعلى وأعلى، حتى شعر بالارتياح والمواساة في صوته نفسه.

أيقظه صوت صرير باب. فرك عينيه وفتحهما، ليجد أن ضوء النهار قد انتشر.

نزل على السلم بهدوء. لم يستيقظ أحد بعد. قام الخال مادهافا بتغطية نفسه بالموندو خاصته، وكان لا يزال غارقا في النوم.

صعد التل من الطريق الواقع إلى الغرب. لم تكن هناك تغييرات كثيرة. حفرت قيعان وجهزت لزراعة التابيوكا في المكان الذي كان فيه بستان الممبوزيا.

على الجانب الآخر من النهر الجاف، كانت بقع فضية من الضوء في السماء الشرقية وقد لحقت أطرافها ألوان جعلتها تبدو كقطرات من الدم.

هنا كان الكهف الصغير شبه الدائري، حيث اعتادت الماعز

أن تلجأ في المطر. أما الآن فقد اختفى، حيث تم تمهيد منحدر التل وتوسيع الطريق.

قُطعت شجرة الساج الكبير المجردة من الأوراق، التي كانت قائمة بجوار دغل البامبو. وتكومت الأوراق المبللة حول الجزء الباقي في الأرض من جذعها، الذي تآكل بفعل النمل.

رأى الجدران الطينية الواطئة والسقف المغطى بالقش خلف الأشجار مباشرة. شعر بهدوء تام وهو يدخل إلى الفناء الملوث بروث البقر. عندما رأى الباب الموصد، أراد فجأة أن ينادي اسمها.

سمع وقع أقدام خلفه، والتفت. ذُهل، لقد كانت سوميترا.

كانت قد استحمّت لتوها وتلف موندو مبتلاً، بلون أصفر غامق، حولها. كانت المياه تقطر من أطراف شعرها الكثيف الملبد، وبرزت عظام وجنتيها الغائرتين. فتحت عينيها على اتساعهما عندما رأته. عندما توجه بناظريه بعيداً عنها، قالت:

«إنه يوم بويام، ذهبت إلى النهر في الفجر لأستحم».

كان صامتاً.

«اجلس».

فتحت الباب ودخلت. استمر واقفاً هناك، يحرك أصابعه ليرسم في الهواء حول الساحة خارج البيت.

خرجت من البيت، وسألت، دون أي أثر للانفعال: «لماذا لا تجلس؟»

ألم تعرفه؟

بدت شفتاها المزرقتان تتمتمان بشيء في صمت. وظهرت خطوط

الفيبهوتي العريضة على جبهتها بوضوح عندما جف البلل. كانت قطرات من الماء لا تزال تقطر من أطراف شعرها المتشابك غير الممشط. وتأرجح في عينيها اتقاد باهت فوق بقع مظلمة من الظلال، ضعيفة وكأنها ذبالة أشعلت في الغسق.

«سوميترا».

للحظة، توقفت شفتاها عن الحركة، ثم بدأتا غمغماتهما المبهمة مرة أخرى.

«هل تعيشين هنا وحدك؟»

«الرب معي».

هل كانت تسخر منه؟ نظر إلى معصميها النحيلين المتشققين، والعظام البارزة تحت عنقها.

«سمعت أنك كنت مريضة».

«كذب».

«سوميترا!»

للحظة، بدت عيناها في حالة ضعف، في وجه شاحب كزهور التومبا البيضاء بعد أن داستها الأقدام.

تجمدت الكلمات المزدحمة عند شفتيه، وظلت مسكوتاً عنها.

«هل تكرهينني؟»

ضحكت سوميترا. مر بذهنه بسرعة صدى الضحكات التي سمعها منذ سنوات.

«كنت أحبك».

ضحكت سوميترا مرة أخرى.

«أحببتني؟» خفض عينيه وسمعها تقول، «لقد أحب سيتو شخصاً واحداً فقط، وهذا الشخص هو سيتو نفسه».

عندما نظر إليها مرة أخرى، ابتسمت وسألت: «أليس الأمر كذلك؟»

لم يجب.

جلست سوميترا بالقرب من الحائط، وبدأت تصلي وكأنه غير موجود.

تنحنح، «إن كان هناك ما أستطيع أن أفعله...».

«نارايانا! نارايانا! نارايانا!» وبدأ صوتها يعلو أكثر وأكثر.

وقف هناك بهدوء لدقيقتين، ثم سار مبتعداً، وقد أحنى رأسه.

فاضت ألوان الصباح الباهتة وملأت السماء. وبدا الشرق وكأنه مضمخ بالدم.

على الضفة البعيدة، كانت العربات المثقلة بأحمالها تصعد جسر السكك الحديد، وارتفع صليل العجلات ليمزق أذنيه فوق زئير مسار السكك الحديد ورائحة الأخشاب المبللة.

10

طفت حزم من الضباب المزرق فوق الرمل الذي بلله الندى. حاول ظله الطويل أن يلاحقه وهو يسير على الضفاف المهجورة للنهر في شمس الصباح الرفيقة.

تلكأت خطواته المتعبة وهو ينظر إلى التفافات الضوء المبهرة فوق الأشجار، وتذكر كيف كان يريد أن يكتب قصائد عن شروق الشمس.

عن شمس الصباح التي تشرق كالأزهار من بين شقوق جدران المعبد القديم، وحزم الضوء تفتح أعين زهور لوتس غير مرئية.

كيف كان هذان البيتان اللذان نقشهما بقلم رصاص على حائط حجرته القديمة؟ لم يستطع أن يتذكر. كان عقله فارغاً كمجرى النهر الجاف.

ظلت قدماه تغوصان في الامتداد اللانهائي للرمل، وفي كل مرة يجذبهما، يفكر بيأس في أنه لا يستطيع أن يتذكر.

لحق به الرجل الشيرومان يحمل حقيبته.

وعلى البعد، ارتعد الجسر الصلب ومسار السكة الحديد. وخلفه رقد النهر، نهره، الذي يحلم بالفيضانات وهو يزداد جفافاً، كجسد بلا حياة استنفدت منه كل الدماء وخلا من القدرة على الحركة.

مسرد لبعض المصطلحات المالايالامية

أديان:	مصطلح يستخدمه شخص من طائفة أدنى إشارة إلى نفسه وهو يتحدث إلى شخص من طائفة أعلى	adiyan
أمين:	موظف في المحكمة المدنية	ameen
أنّا براسانام:	طقس يمارس عند إطعام طفل بالأرز لأول مرة	anna prasanam
أنترجانم:	امرأة من طائفة نامبوديري	anterjanam
بر ا هما	روح براهمي مات قبل الأوان أو مات ميتة	Brahma
ركشاسو:	بشعة	rakshasu
شاندو:	سائل ملون يستخدم في وضع علامة على الجبين	chandu
شيرومان:	شخص من الطوائف الأدنى (مذكر)	cheruman
شيرومي:	شخص من الطوائف الأدنى (مؤنث)	cherumi
شيتيار:	مجتمع التجار	Chettiar
شيتيشي:	مؤنث شيتيار	Chettichi
تشونام:	معجون من الحجر الجيري	chunam
ديبام:	مصباح	deepam
إمبرانديري:	براهمي، عادة بوجاري	embrandiri
جوليكان:	روح شريرة لابد من استرضائها	gulikan
هيدومبان:	راكشاسا؛ شيطان	Hidumban
هومام:	طقس يمارس أمام نار مقدسة	homam
إلّام:	مسكن لعائلات النامبوديري	illam

جنمي:	مالك الأرض	jenmi
كانجي:	أرز يقدم مع الماء الذي يطبخ فيه	kanji
كارانافار:	أكبر شخص في العائلة الممتدة	karanavar
كارياستان:	مدير	karyasthan
كاسافو:	خيط ذهبي، ينسج عادة في الأطراف	kasavu
كافادي:	هيكل خشبي على شكل القوس يزين بريش الطاووس والأزهار، يحمله الحجاج على أكتافهم كقربان عند ذهابهم إلى معابد سوبرامانيا	kavadi
كيندي:	إبريق معدني من البرونز، أو الفضة، أو النحاس، له طرف، يستخدم لصب الماء	kindi
كونام:	قطعة ضيقة من القماش تستخدم لتغطية أعضاء التناسل	konam
كوتامبالام:	قاعة منفصلة في المعبد لإقامة الاحتفالات	koothambalam
كوجا:	وعاء يوضع فيه ماء الشرب	kooja
كوتو:	دراما راقصة تؤدى في المعابد	koothu
كوفيلاكام:	مسكن عائلة أميرية	kovilakam
كوفالام:	شجرة تعتبر أوراقها وزهورها مقدسة عند شيفا	kuvalam
ماهامايا:	أحد أسماء ديفي	Mahamaya
مودالالي:	السيد، رب العمل، المالك	mudalali
نايفيديام:	طعام يقدم لأحد الأرباب	naivedyam

نالوكيتو:	فناء منخفض له أربعة أعمدة تحيط به	nalukettu
نازهي:	مقياس، حوالي ثلث لتر	nazhi
نيرامالا:	قربان يصنع في معبد يزين فيه المزار بالزهور	niramala
باناكام:	مشروب من الماء، وسكر النخيل، وحب الهال	panakam
بارا:	مقياس للأرز، حوالي ثلاثة عشر لترا	para
باتايام:	هيكل خشبي لحفظ الحبوب؛ ويمكن أيضاً أن يشير هذا الاسم إلى الغرفة التي تخزن فيها الحبوب	pathayam
بوتو:	علامة توضع على الجبين	pottu
براداكشينام:	طقس الطواف بالمعبد	pradakshinam
بولايا:	إحدى الطوائف الدنيا	pulaya
راوكا:	بلوزة، تُعقد أطرافها فوق الوسط	rowka
سامباندهام:	علاقة زواج تعاقدي	sambandham
ساسترام:	النصوص المقدسة	sastrams
تراواد:	عائلة ممتدة	tarawad
تامبوران:	صيغة لمخاطبة شخص من طائفة أعلى	Thampuran
تكيني:	غرفة في الجانب الجنوبي من البيت	thekkini
تيرتام:	ماء مقدس	thirtham
تيرومني:	صيغة تستخدم لمخاطبة النامبوديري	tirumeni
فاريار:	جالية لديها حقوق وواجبات في المعبد	Variar

فيشو: السنة الجديدة المالايالامية، وتحل في وسط إبريل — Vishu

ياكشي: روح أنثوية يمكن أن تغير شكلها بإرادتها، وتمارس تأثيرا شريرا — yakshi

يالي: حيوان أسطوري أشبه بالأسد؛ وعادة تشاهد تماثيله ونقوشه في المعابد — yali

ييجامان: مالك، سيد — yejaman

أسماء الشهور المالايالامية وزمنها التقريبي

شينجام: أغسطس – سبتمبر — Chingam

كاني: سبتمبر – أكتوبر — Kanni

تولام: أكتوبر – نوفمبر — Thulam

فريشيكام: نوفمبر – ديسمبر — Vrischikam

دهانو: ديسمبر – يناير — Dhanu

مكارام: يناير – فبراير — Makaram

كومبهام: فبراير – مارس — Kumbham

مينام: مارس – إبريل — Meenam

ميدام: إبريل – مايو — Medam

إدافام: مايو – يونيو — Edavam

ميتونام: يونيو – يوليو — Mithunam

كاركيتاكام: يوليو – أغسطس — Karkitakam

نبذة عن المؤلف:

ولد مادات تيكيبات فاسوديفان ناير في قرية كودالاور، بولاية كيرالا الهندية عام 1933. وحصل إم. تـي، كما يعرف بين الناس، على الاعتراف به كاتباً بعد نشر قصته «حيوان السيرك» (1953)، التي بدأ بها حياته ككاتب.

واشتهر إم. تي بكتاباته التي تؤرخ للحياة في العائلة الأمومية المترابطة في كيرالا، وهي البيئة التي يصفها بحميمية في روايات مثل نالوكيتو (Nalukettu, 1959)، وكالام (Kaalam, 1969). وفاز بعدة جوائز. أما روايته راندامووزهام (Randamoozham, 1984)، فهي إعادة رواية للماهابهاراتا.

حصل إم. تي على عدة جوائز منها جائزة جنانبيت Jnanpith لعام 1995. وهو حالياً رئيس أكاديمية ساهيتا بكيرالا، ولا زال رئيس تحرير صحيفة ماتروبهومي.

نبذة عن المترجمة:

سحر توفيق: روائية ومترجمة مصرية، من أهم أعمالها: «أن تنحدر الشمس»، و«بيت العانس» (مجموعتان قصصيتان)، و«طعم الزيتون»، و«رحلة السمان» (روايتان). ترجمت عدداً من الكتب منها: «بحث التغير الاجتماعي» تأليف جولي ماكليود وريتشيل طومسون، القاهرة، 2014، و«الإرهابية الطيبة» تأليف دوريس لسنج، القاهرة، 2010، و«ألوان أخرى» تأليف أورهان باموق، القاهرة، 2009، و«الطريق الطويل: مذكرات صبي مجند» تأليف إشمائيل بيه، 2009، و«شهيرات النساء» تأليف ماريلين بوث، 2009، و«الهوية والعنف» تأليف أمارتيا صن، الكويت، يونيو 2008.

كلام..

في هذه الرواية، سيفاجئك عالم جديد. عالم من الحياة في قرية هندية من قرى الجنوب الفقيرة، المنعزلة، في وقت فرضت فيه العزلة على القرية التمسك بتقاليد قديمة بالية ترجع لمئات، وربما آلاف السنين.

يأخذنا المؤلف، إم. تي. فاسوديفان ناير، في رحلة مع بطله من القرية التي قضى فيها صباه وبواكير شبابه، إلى المدينة الصغيرة التي ذهب لقضاء دراسته الجامعية فيها، ثم إلى مدينة أكبر، حيث عمل وقضى معظم حياته العملية.

وسيتو، بطل الرواية، شخصية تشبه أغلب شباب جيله، تربى في بيئة فقيرة في بيت أسرته، وقابلته العديد من العقبات والإحباطات التي سارت به من الآمال الكبيرة في حياة أفضل، إلى حياة أخرى ولكنها مليئة بالتعاسة. وقد رسم المؤلف شخصية سيتو ببراعة تامة، والحق أن معظم شخصيات هذه الرواية مرسومة بدقة تجعلك تشعر بأنك تعيش معها وتشعر بكل ما يدور في نفوسها. وفي النهاية سوف تسأل نفسك: هل كان سيتو شخصاً أنانياً خائناً لكل من أحبوه، أم أنه كان ضحية الظروف والإحباطات التي لاقاها في كل مرحلة من مراحل حياته؟







